الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 122 - March 2009

مجلة شهرية العدد ١٢٢ - السنة الحادية عشرة - مارس ٢٠٠٩ - الثمن عشرة جنيهات

لعنة آدم !

هل ينقرض الرجال ؟!!



- ثلاثون عاماً على اتفاقية السلام

فضل النقيب / محمد العليمى / سعد مرتضى / وليد سيف

- ألان جريش (حوار) / داليا السعودى
- الغيطانى وتجليات الحياة والموت / جون فرنسوا كليمان
- Google ومستقبل الكتب / روبرت دارنتون

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٢
مارس ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- بريان سايكس.. أستاذ في علم الوراثة بجامعة أكسفورد.
- جون فرنسوا كليمان.. أستاذ في جامعة ليون.
- جون ميرشايمر.. أستاذ العلوم السياسية بجامعة شيكاجو.
- داليا توفيق سعودي.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بجامعة الملك سعود.
- روبرت دارنتون.. مؤرخ ثقافي أمريكي.
- سعد مرتضى.. دبلوماسي مصري.
- صالح النعامي.. صحفي فلسطيني يقيم في غزة.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ بجامعة واترلو.
- محسن يوسف.. خبير في التعليم والموارد البشرية بالبنك الدولي واليونسكو.
- محمد بيلي العليمي.. كاتب مصري.
- مصطفى إبراهيم فهمي.. أستاذ الكيمياء الإكلينيكية بالأكاديمية العسكرية.
- وليد سيف.. أكاديمي وكاتب عربي.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - © Kerry Waghorn

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ /٢٣٩٣٠٤٦١ /٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٣٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٥٦٠٥٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن دينارين ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO ٤ - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»



أمراء السلام!

قراءة فى «نهج الاعتدال العربى»

فضل مصطفى النقيب

* * يهدف هذا المقال إلى قراءة كتاب «نهج الاعتدال العربى» للدكتور مروان المعشر بصورة جدية ومنهجية. وذلك بأن نعرض للأطروحات الرئيسية فى الكتاب بدون أى أحكام مسبقة، ثم نقوم بفحص صدقيتها على أساس المحاكمة المنطقية والأدلة المتوفرة بما فى ذلك الشواهد والأحداث التاريخية المعاصرة.

الدعوة إلى الجدية لا تنبع فقط من كون المؤلف قد شغل مناصب عديدة هامة ذات اتصال مباشر بموضوع الكتاب فهو أول سفير للحكومة الأردنية فى إسرائيل، ثم سفيرها فى الولايات المتحدة وكان وزيراً للإعلام، ووزيراً للخارجية ونائباً لرئيس مجلس الوزراء المكلف بشؤون الإصلاح، وهو الذى يشغل الآن منصب نائب رئيس البنك الدولى.

الدعوة إلى الجدية فى التعامل مع كتاب الدكتور المعشر تنبع من أن المؤلف يمثل ظاهرة أصبح لها وجود متنام فى معظم الحكومات العربية، ومن المفيد التوقف عندها بجدية.

يمثل مروان المعشر ظاهرة الأفراد الذين لهم مراكز قيادية فى حكومات بلادهم والذين يتمتعون بكفاءات عالية تم صقلها خلال سنوات الدراسة فى أفضل الجامعات الأمريكية، وما يميز هؤلاء عن غيرهم من حملة الشهادات العالية الذين لهم مناصب قيادية فى نفس الحكومات: هو أنهم يعترفون بأن الفساد يستشرى فى تلك الحكومات، وإن يكن بصورة متفاوتة بين الدول، ويكرس

نهج الاعتدال العربى: مذكرات سياسية ١٩٩١ - ٢٠٠٥.
مروان المعشر.
دار النهار، بيروت ٢٠٠٨



© Kerry Waghorn

نظاماً يعيد إنتاج التأخر بشكل مستمر، وأنهم يسعون فى تلك الحكومات من أجل تحقيق إصلاح تدريجى من الداخل، على أساس أن إحجامهم عن العمل فى تلك الحكومات يعنى تركها تحت سيطرة ما يمكن تسميته مع شىء من التعميم برجال «الحرس القديم» المجندين بشكل مستمر للوقوف ضد أى تغيير فى النظام القائم لأن ذلك يهدد مراكزهم ومصالحهم. وهم يخشون أن يقود بقاء النظام القديم على حاله إلى سقوطه بيد الحركات الإسلامية الاصولية التكفيرية.

وهم يرون أن أهم عقبة تقف فى وجه تيار الإصلاح العقلانى الذى يلتزمون به، هى مشكلة الصراع العربى - الاسرائيلى، على أساس أن ذلك الصراع يكرس جواً معاديا للتقدم والإصلاح، إضافة إلى المآسى والكوارث الإنسانية التى يجرها بشكل يومى على الشعب الفلسطينى، والشعوب العربية المجاورة. إنهم يرون أن أوضاع الصراع والعنف تكرس أجواء الخطر التى تساعد رجال «الحرس القديم» على منع التغيير، كما أن انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل يغذى أجواء العداء لأمريكا والكراهية للغرب وانتشار الفكر التكفيرى. إنهم يرون أن أحداث ستة عقود من الصراع قد أثبتت بشكل لا يقبل الشك بانه ليس بمقدور إسرائيل أو العرب تحقيق الانتصار العسكرى الذى يفرض نهاية للصراع، وأن الحل الوحيد الممكن هو الحل الذى يأخذ بعين الاعتبار المصالح الحيوية للفريقين، وأن مثل هذا الحل ممكن إذا تمكن المعتدلون فى العالم العربى والمعتدلون فى إسرائيل، وبرعاية أمريكية، من تكوين جبهة متماسكة ضد المتطرفين العرب والمتطرفين الإسرائيليين الذين يعادون السلام.

يرى المؤلف أن تحالف مصر والسعودية والأردن شكل «لأول مرة فى العالم العربى تحالفاً فعالاً من أجل السلام عمل على التأثير فى سياسات الولايات المتحدة والغرب، بدلاً من الاكتفاء بردود الأفعال عليها»

يعترف أصحاب مدرسة الاعتدال بأن غالبية الناس فى العالم العربى لا تشاركهم ذلك الشعور المتفائل، إذ إن خيبة الأمل المتكررة منذ عقود لم تترك عند الناس أى أمل فى الإصلاح التدريجى لأنظمة الحكم العربية، أو فى حدوث أى تغيير فى الموقف الأمريكى الداعم لإسرائيل. وبالرغم من ذلك فهم يصرون على أن تفاؤلهم مبنى على أرضية الفهم الموضوعى للمصالح الحقيقية لأطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل والولايات المتحدة، وأن لغة العقل والحداثة والتسامح ستنتصر فى النهاية لأنها اللغة الوحيدة التى تعبر عن روح العصر.

لذلك دعونا نقرأ الكتاب بجدية لنرى ما هو المعنى الحقيقى لهذه الظاهرة؟

[١]

تسيطر على كتاب «نهج الاعتدال العربى» فكرتان محوريتان، يعمل المؤلف على إثبات صدقيتهما، من خلال روايته لأحداث عايشها وكان له أحياناً دور فى التأثير على مسارها.

الفكرة الأولى هى أن نهج الاعتدال العربى الذى شاع صيته فى السنوات الماضية، بعد أن انقسم العالم العربى إلى «معسكر الاعتدال» و«معسكر الممانعة»، هو فى جوهره نهج أردنى، وأن الأردن هو البلد العربى الوحيد الذى ظل مخلصاً لذلك النهج منذ بداية الصراع العربى- الإسرائيلى وحتى اليوم.

يعيد المؤلف نشأة نهج الاعتدال إلى حكمة القيادة الأردنية (الملك عبد الله أولاً ثم الملك حسين) التى التزمت، منذ تأسيس إمارة شرق الأردن عام ١٩٢١، العمل على توثيق العلاقات مع العالم الغربى حتى أصبح للأردن دور امميز فى العالم العربى، حيث كانت الدول الغربية تنظر إليه طوال سنوات الحروب العربية- الإسرائيلية كواحة للاعتدال و«كجسر بين الغرب والعالم العربى». ثم يرى المؤلف أن ذلك الدور قد تطور بعد توقيع معاهدة السلام الإسرائيلية- الأردنية عام ١٩٩٤، «حيث ذهب إلى أبعد من كونه جسراً بين الشرق والغرب ليصبح نموذجاً للتسامح تفتقر إليه المنطقة منذ وقت طويل» (صفحة ٢٤).

ويرى المؤلف أن صواب ذلك النهج قد اتضح بشكل جلى فى السنوات القليلة الماضية وذلك عبر النجاحات الكبيرة التى حققها الأردن وكرست له مكاناً إقليمياً وعالمياً مرموقاً يفوق بدرجات ما يسمح به حجمه الصغير وإمكاناته المادية والبشرية المتواضعة. ويذكر المؤلف من هذه «النجاحات»: نجاح الأردن فى توقيع اتفاقية التجارة الحرة مع الولايات المتحدة فى الوقت الذى لم تستطع فيه دولة أكبر وأقوى مثل مصر توقيع مثل تلك الاتفاقية، كما يذكر نجاح الأردن فى أخذ المكان الذى كانت تحتله سوريا، لسنوات طوال، فى التحالف غير الرسمى (إضافة إلى السعودية ومصر) الذى يعمل على قيادة إجماع عربى تجاه قضايا المنطقة. وهو يرى أن تحالف مصر والسعودية والأردن شكل «لأول مرة فى العالم العربى تحالفاً فعالاً من أجل السلام عمل على التأثير فى سياسات الولايات المتحدة والغرب، بدلاً من الاكتفاء بردود الأفعال عليها» (صفحة ١٥٥).

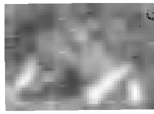
ولكن الكتاب لا يتوقف طويلاً أمام هذا النوع من «النجاحات» التى يعرفها الجميع، إنه يهتم بنوع آخر من «النجاحات» غير المعروفة للناس: النجاحات التى أنجزتها الدبلوماسية الأردنية بصمت، وسمع عنها الناس غالبا على أنها إنجازات دول أخرى.

من الأمثلة الهامة عن تلك «النجاحات» قصة المبادرة السعودية من أجل تحقيق السلام بين العرب وإسرائيل، وفق مبدأ «انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضى العربية، مقابل التطبيع الكامل معها»، وهى التى أصبحت تعرف بالمبادرة العربية بعد أن تبنتها الدول العربية فى آذار/ مارس ٢٠٠٢ فى مؤتمر القمة فى بيروت.

لقد سمع الناس أول مرة عن المبادرة السعودية فى ٦ شباط / فبراير ٢٠٠٢، من مقال فى جريدة النيويورك تايمز للصحافى الأمريكى توماس فريدمان اقترح فيه أن تعرض ٢٢ دولة عربية على إسرائيل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة، وتطبيع التجارة، وضمانات امنية، مقابل الانسحاب الإسرائيلى الكامل إلى حدود ٤ حزيران / يونيو عام ١٩٦٧، وبعد بضعة أيام، نشر فريدمان مقالاً تحدث فيه عن مقابلة أجراها فى الرياض مع ولى العهد السعودى الأمير عبد الله، عرض عليه خلالها فكرة «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل»، فما كان من الأمير عبد الله إلا أن اتهم الصحافى، عن طريق الدعابة، بأن تلك الفكرة هى فكرته وأن الصحافى حصل عليها عبر سرقة أوراق مكتبه، لأن المملكة العربية السعودية فى الطريق إلى القيام بمبادرة من أجل السلام مبنية على أساس «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل». وبعدها، قامت السعودية بإخطار الأمين العام للأمم المتحدة بأنها ستتقدم بالمبادرة إلى مجلس القمة العربى لنيل موافقة الدول العربية عليها، وهذا هو ما حصل، فى الواقع، بعد أسابيع فى مؤتمر القمة فى بيروت.

وفى الكتاب نقرأ تفاصيل القصة «الحقيقية» وراء تلك المبادرة، فهى، حسب المؤلف، لم تبدأ مع مقال توماس فريدمان فى شباط/ فبراير ٢٠٠٢، بل إبتدأت فى عام ١٩٩٨ ومع الملك حسين. ففى ذلك الوقت أخذ الملك يبدى ضيقه من الجمود الذى أصاب العملية السلمية بين الفلسطينيين وإسرائيل، ثم توصل إلى قناعة مفادها أن أسلوب تحقيق السلام بشكل تدريجى على مسارات مختلفة، لم يعد مجدياً، وأنه لابد من انتهاج أسلوب آخر تشترك فيه الدول العربية فى مسار واحد يهدف إلى إنهاء الصراع، على أساس «الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل»، وأنه عرض الفكرة على الرئيس حسنى مبارك حتى تقوم مصر بتبنيها وإقناع بقية الدول العربية بالموافقة عليها، وأن مبارك تحمس للفكرة ووعد بالدعوة لعقد مؤتمر قمة عربية لتبنيها، ولكن ذلك لم يحصل، لأن وزيرة الخارجية الأمريكية وقتها، مادلين أولبرايت، طلبت من مبارك عدم الدعوة لعقد مؤتمر قمة لأنها رأت أن مثل ذلك المؤتمر سيعمل على إجهاض الجهود الأمريكية من أجل تحقيق السلام. (صفحة ١١٥) ثم مضت أربع سنوات قبل أن يعاد طرح الفكرة من جديد ضمن رسالة أرسلها الملك عبد الله الثانى إلى الرئيس جورج بوش فى ٨ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ حتى يتسنى له مناقشتها فى الاجتماع الذى كان مقرراً عقده بين الرجلين فى ٢٠ سبتمبر/ تشرين الثانى ٢٠٠١. ولكن ذلك الاجتماع لم يتم بسبب أحداث يوم ١١ سبتمبر، ولم يتم إحياء الفكرة من جديد إلا فى ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثانى لعام ٢٠٠١ وعلى مائدة إفطار فى أحد فنادق واشنطن حيث قام مروان المعشر، وكان سفيراً للأردن فى الولايات المتحدة، بشرح الفكرة لتوماس فريدمان، كما جاءت فى مقاربة الملك حسين عام ١٩٩٨، وفى رسالة الملك عبد الله الثانى إلى الرئيس جورج بوش عام ٢٠٠١. فتحمس فريدمان للفكرة بشدة، ويبدو أنه قرر فى ذلك الصباح أن يطير إلى الرياض ويقوم بسرقتها من مكتب الأمير عبد الله.

وفى الكتاب قصص «حقيقية» وراء «نجاحات» أخرى كثيرة، من أهمها القصة التى كانت وراء إطلاق ما أصبح يعرف باسم «خارطة الطريق»، إذ نقف على تفاصيل المحاولات المضنية التى قام بها المؤلف، كوزير للخارجية، مع اللجنة الرباعية (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبى، روسيا، الأمم المتحدة) ومع وزارة الخارجية الامريكية، تارةً، ومع البيت الأبيض، تارة أخرى، من أجل التوصل إلى اتفاق على «خطة محددة ومفصلة تنفذ ضمن مهلة زمنية محددة لتحقيق السلام» (صفحة ١٤٤). وكم من مرة ووجهت تلك المحاولات بعدم الاكتراث أو الرفض الصريح حتى نجح أخيراً المؤلف فى أن يعرض الموضوع على الرئيس بوش الذى قال له غاضباً «ماذا يريد الفلسطينيون منى؟ أعطيتهم تصوراً، ما الذى يريدونه بعد؟» (صفحة ١٦٨) فقال له «سيدى الرئيس، يشك معظم الفلسطينيين فى إمكان تحقق هذا التصور، جل ما نطلبه هو ترجمة تصوركم بحرفيته إلى خطوات عملية. لا نطلب أى التزامات إضافية من جانبكم» (ذات الصفحة) وعندئذ، فكر بوش للحظة، ثم نظر إلى المعشر وقال «لا مشكلة لدى فى هذا»، ثم خاطب مساعد وزير الخارجية وليم بيرنز: «لم لا تستبطنان شيئاً ما؟». وكان ذلك هو الأمر الرئاسى الذى أطلق مشروع خارطة الطريق. فبعد ذلك الاجتماع عقدت الاجتماعات والمداولات والرحلات المكوكية بين عواصم العالم حتى تم التوصل إلى الصيغة الرسمية لخارطة الطريق التى تبنتها اللجنة الرباعية وأعلنت السلطة الفلسطينية موافقتها

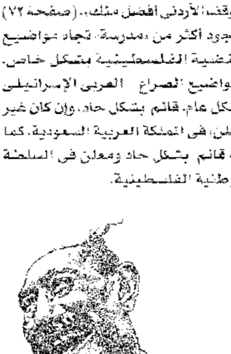


علينا على الفور، بينما وافقت عليها الحكومة الإسرائيلية مع أربعة عشر تحفظاً.

الآن، كلنا يعرف أن بعض القراء يعتبرون تلك «النجاحات» إنجازات حقيقية، وأن بعضهم الآخر لا يعتبرها كذلك. ولكن من المؤكد أن جميع القراء سيستغربون عند قراءة الكتاب من كثرة عدد تلك «النجاحات»، ومن قصر المدة التي يعيشها كل واحد منها - لماذا هذه الكثرة؟ ولماذا لا يعيش أي واحد من تلك «النجاحات» إلا فترة قصيرة جداً؟

الواقع أن أهمية كتاب «نهج الاعتدال العربي» هو أنه يقدم أجوبة مقنعة لهذه الأسئلة، إذ يستطيع أي قارئ للكتاب، حتى وإن كان غير ملم بتفاصيل العملية السلمية في الشرق الأوسط، أن يكتشف بسرعة، ومن الطريقة التي يصف المؤلف بها المخاض العسير لولادة أي واحد من تلك «النجاحات»، أن كل «نجاح» يتحقق، يكون في واقع الأمر بمثابة «مكسب» بالنسبة لبعض اللاعبين في الصراع، و«خسارة» بالنسبة للاعبين آخرين، وفي خلال أسابيع أو أشهر تتمكن الأطراف الخاسرة من تحطيم مكاسب الأطراف الرابحة، وذلك لسبب بسيط وهو أن كل طرف من أطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل، والولايات المتحدة يضم دوماً رابحين وخاسرين في الوقت ذاته تجاه أي اتفاق يتم بينهم. وذلك لأنه ليس هنالك طرف واحد من عداد الأطراف الثلاثة يملك وجهة نظر واحدة تجاه القضايا المحورية للصراع. ففي الولايات المتحدة غالباً ما تكون وجهة نظر وزارة الخارجية على تناقض تام مع وجهة نظر البيت الأبيض، ومع وجهة نظر أعضاء أقوياء في الكونغرس وفي إسرائيل هنالك وجهات نظر كثيرة ومتنافرة لعدد كبير من الأحزاب وللمؤسسة العسكرية ومؤسسة المخابرات إضافة إلى قوى المستوطنين. أما في الطرف العربي، فإضافة إلى الانقسام الحاد بين معسكر «الاعتدال» ومعسكر «الممانعة» هنالك وجهات نظر متنافرة داخل كل معسكر، بل داخل كل دولة. الانقسام في الجانب الأمريكي يخص طبيعة النظام الأمريكي.. والانقسام في إسرائيل يخص طبيعة الحركة الصهيونية. ولذلك فإن ما يهمنا هنا هو الانقسام في الجانب العربي، ولا نقصد الانقسام بين معسكر «الاعتدال» ومعسكر «الممانعة»، ولكن الانقسام داخل كل طرف من أطراف معسكر الاعتدال. والمؤلف يعرض بشكل تفصيلي للانقسام الحاصل في الأردن، حيث يقول بوجود «مدرستين»، المدرسة السياسية التي تؤيد قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الملك حسين وهي على صلات جيدة مع حزب العمال في إسرائيل، والمدرسة الأمنية التي تعارض قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الأمير الحسن ولها صلات مع حزب الليكود في إسرائيل. وعندما كان المؤلف سفيراً في إسرائيل، كان الملك حسين يطالبه بعدم الاجتماع بزعماء الليكود الذين كانوا في المعارضة تلك الأيام، بينما كان الأمير الحسن يؤنبه لأنه لا يجتمع بهم. وأخيراً عندما اجتمع المؤلف بزعيم الليكود بنيامين نتنياهو بادره الأخير بالقول إن إسرائيل والأردن يلتقيان على مصلحة واحدة وهي ضد قيام دولة فلسطينية. وعندما عارض المعشر هذا القول وتحدث بمنطق المدرسة السياسية التي تجد أن من مصلحة الأردن قيام دولة فلسطينية قال له نتنياهو: «سعادة السفير: أظنني أفهم الموقف الأردني أفضل منك». (صفحة ٧٢)

ووجود أكثر من «مدرسة» تجاه مواضيع القضية الفلسطينية بشكل خاص، ومواضيع الصراع العربي الإسرائيلي بشكل عام، قائم بشكل حاد، وإن كان غير معلن، في المملكة العربية السعودية، كما أنه قائم بشكل حاد ومعلن في السلطة الوطنية الفلسطينية.



وهكذا يتضح لنا أن أي «نجاح» يتحقق كاتفاق بين الأطراف الرئيسة الثلاثة للصراع يكون في واقع الأمر عبارة عن تأجيج للصراع بين القوى المختلفة داخل كل طرف من أطراف الصراع. ومن الطبيعي أن يقود ذلك الصراع إلى إضعاف التزام الأطراف الثلاثة بأي اتفاق، ولهذا نشهد انهيار الاتفاقات واحداً بعد الآخر وتحول «النجاحات» إلى فشل بعد فشل.

ولهذا كله فإن سرعة تحول «النجاح» إلى «فشل» تتناسب طرداً مع أهمية «النجاح»، فكلما كان «النجاح» كبيراً، كان سقوطه يتم بسرعة كبيرة. ومن الأمثلة المهمة على ذلك، النجاح الذي حققه المؤلف فيما هو وزير للخارجية، في التوصل مع موظفي البيت الأبيض إلى صياغة رسالة من الرئيس بوش إلى الملك عبد الله الثاني في عام ٢٠٠٤.

كان الرئيس بوش قد التقى برئيس الوزراء الإسرائيلي شارون في ١٤ إبريل/ نيسان من ذلك العام، وتبادلا رسائل علنية. وكانت رسالة بوش لشارون كارثة من وجهة النظر العربية، حيث إنها شكلت تراجعاً عن السياسة الأمريكية المعلنة وانحيازاً كاملاً للموقف الإسرائيلي. وقد شعرت الدبلوماسية الأردنية بحرج شديد من تلك الرسالة، فألغى الملك عبد الله الثاني زيارة كانت مقررة لواشنطن. وقام المعشر، وزير الخارجية، بزيارة واشنطن والاجتماع بموظفي البيت الأبيض لصياغة رسالة يقوم الرئيس بوش بتوجيهها للملك عبد الله تعمل على إيجاد توازن مع رسالته لشارون، حتى يتمكن الملك من الحضور لواشنطن. وبعد مفاوضات طويلة، وجهود مضنية، تمكن المعشر من الاتفاق مع المسئولين في البيت الأبيض على صياغة رسالة اعتقد أنها تدحض ما جاء في رسالة بوش لشارون، وقد شعر بالاعتزاز من هذا النجاح الكبير، وخصوصاً عندما عرض الرسالة على وزير الخارجية الأمريكي كولن باول الذي قال له بصراحة «ما كانت وزارة الخارجية لتحصل على رسالة بهذه القوة» (صفحة ٢١٣).

وقد مهدت تلك الرسالة لزيارة الملك لواشنطن والاجتماع بالرئيس بوش وعقد مؤتمر صحفي في البيت الأبيض في السادس من أيار/ مايو ٢٠٠٤. وعلى أثر ذلك المؤتمر اتصل كبير المفاوضين الفلسطينيين صائب عريقات ليهنئ المعشر ويقول له «إنه افتخر كثيراً بالملك عند مشاهدته حفل حديقة البيت الأبيض على شاشة التلفزيون» (صفحة ٢١٦).

بعد أسابيع قليلة من ذلك النجاح الكبير، النجاح الذي حرك، وفق رواية المعشر، شعور الاعتزاز عند الدبلوماسية الأردنية، وشعور الفخر عند السلطة الفلسطينية، وشعور الحسد عند وزارة الخارجية الأمريكية، استقبل الرئيس بوش الملك عبد الله الثاني وقال له: «لقد سئمت من المسألة الفلسطينية-الإسرائيلية» (صفحة ٢١٧).

كان المسئولون الأمريكيون يسأمون في أحيان كثيرة من العملية السلمية في الشرق الأوسط، فيعمدون إلى إيقاف تدخلهم المباشر فيها. وكان المسئولون الإسرائيليون يعلنون، بين الحين والآخر، عن خيبة أملهم من العملية السلمية وتوصلهم إلى القناعة بأنه لا يوجد لهم شريك للسلام في الجانب الفلسطيني فيعمدون إلى تعطيل المفاوضات مع السلطة الفلسطينية. ولم يكن يخفى على أي مراقب محايد أن سأم إدارة بوش لم يكن أكثر من الإمعان في سياستها الثابتة في إطلاق العنان لليمين الإسرائيلي لفرض سياسات الأمر الواقع دون تدخل والتظاهر بأن الأمر يعود إلى إرادة الطرفين، كما أن سأم الحكومة الإسرائيلية ليس إلا تعبيراً تضليلياً عن رفضها من الناحية الفعلية التفاوض بصورة جدية مع أي طرف فلسطيني مهما كان معتدلاً لأن أقصى ما يمكن أن تقدمه هو أقل بكثير من الحد الأدنى الذي يمكن أن يقبل به الشعب الفلسطيني أو أي شعب آخر يسعى لنيل حريته.

أما رباعية الاعتدال العربي (مصر والسعودية والأردن والسلطة الفلسطينية) فإنها لا تصاب بالسأم ولا بخيبة الأمل، وعلى العكس فإن حيويتها ونشاطها يزدادان بعد كل نكسة تحل بالعملية السلمية فيبدأ فرسانها بالزيارات المكوكية لعواصم العالم، والاجتماعات التي لا تنتهي حتى يتمكنوا من القضاء على السأم الأمريكي، أو خيبة الأمل الإسرائيلية

هم يرون أن أهم عقبة تقف فى وجه تيار الإصلاح العقلانى الذى يلتزمون به، هى مشكلة الصراع العربى - الإسرائيلى، على أساس أن ذلك الصراع يكرس جواً معاديا للتقدم والإصلاح

وتعود العملية السلمية إلى مسارها من جديد.

ويعد ان يأتى الكتاب على تكرر ذلك المشهد شهراً بعد آخر، وسنة بعد سنة، يصبح من الواضح لأى قارئ جاد للكتاب أن هناك شبهاً كبيراً بين ظاهرة أصحاب النفوذ فى أنظمة بلدان الاعتدال العربى الذين يصرون على التمسك بالعملية السلمية بشكل دائم ومستمر ومطلق.. وبين ظاهرة «أمراء الحرب».

من المعروف أن ظاهرة «أمراء الحرب» تحدث فى الحروب الأهلية بعد انهيار السلطة المركزية للدولة وقيام أشخاص أقوياء، يتمكنون من السيطرة على مناطق معينة من البلاد وفرض سلطتهم عليها بقوة السلاح، وحينئذ تنشأ لهؤلاء المتنفذين الأقوياء مصالح اقتصادية وسياسية لا يستطيعون الاحتفاظ بها إلا عن طريق الاستمرار فى الحرب، وفى شكل مشابه فنحن نرى أنه بعد أن انهار إجماع النظام الرسمى العربى بالنسبة لقضية العرب المركزية: فلسطين، ظهرت فئات عديدة داخل تلك الأنظمة تعمل على حماية مصالحها الاقتصادية والسياسية عن طريق الحصول على التأييد الأمريكى. وهو تأييد لا يستطيع هؤلاء ضمانه إلا عبر الحصول على التأييد الإسرائيلى لهم، والذى يدفعهم إلى الاستمرار بشكل دائم فى العملية التى أصبحت تعرف باسم «العملية السلمية»، ويتود هذه الفئات أشخاص يمكن وصفهم بأنهم «أمراء السلام» على أساس أن مصالحهم أصبحت مرتبطة باستمرار «العملية السلمية»، تماما كما أن مصلحة «أمراء الحرب» مرتبطة باستمرار الحرب..

كيف نشأت ظاهرة «أمراء السلام» وكيف ارتبطت مصالح الذين يمثلونها باستمرار «العملية السلمية»؟

[٢]

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال بدون أخذ الفكرة المحورية الثانية فى كتاب «نهج الاعتدال العربى» فى الاعتبار.

يرى المؤلف أن تكرار مبادرات السلام العربية قد نجحت فى إقناع العالم «بطريقة لا يرقى إليها الشك، أن قوى الاعتدال العربى موجودة فعلا، وأنها هى التى أطلقت معظم المبادرات السياسية فى الأعوام الخمسة الماضية - لا سيما مبادرة السلام العربية وخارطة الطريق - من أجل الخروج من المأزق ودفع عملية السلام نحو الأمام» (صفحة ٢٥٨).

وهو يرى أن أهم ما يهدد قدرة قوى الاعتدال العربى على الاستمرار فى نهج الاعتدال هو أن تلك القوى كرست نهج الاعتدال فى عملية السلام ولم تكرسه فى «مشاغل أخرى مثل الحاكمية الرشيدة والرفاه الاقتصادي والمشاركة فى صنع القرارات» (ذات الصفحة).

وهذا هو المحور الثانى للكتاب الذى ينتقد فيه المؤلف حكومات الاعتدال العربى فى أنها لم تعمم سياسة الاعتدال التى اتبعتها فى العملية السلمية على أوضاعها الداخلية. وهو يقول:

«التعايش والتنوع والاعتدال، قيم لا تنطبق على عملية السلام فقط، بل يجب أن تمارس أيضاً داخل المجتمعات العربية. فالحكومات العربية لا تستطيع أن تطلب من العرب الموافقة على إقامة علاقات مع إسرائيل، الدولة العدوة منذ ستة عقود، بينما تأبى القبول بالأحزاب المعارضة فى بلدانها، فهذا يفقدها الصدقية فى عيون شعوبها» (صفحة ٢٦٠).

والمعنى الواضح لهذا الكلام هو إعتقاد مؤلف كتاب «نهج الاعتدال العربى» أن أنظمة الاعتدال العربى قد نجحت فى سياستها «الخارجية» وفشلت فى سياستها «الداخلية». وهو قول غريب جداً إذ إنه يتناقض مع طبائع الأمور ومع أبسط مفاهيم المنطق السياسى، كما أنه يتناقض بشكل كامل مع السجل التاريخى للعلاقة بين «السياسة الخارجية» و«السياسة الداخلية» لأنظمة «الاعتدال العربى».

يبدو غريباً جداً أن يكون هناك من يعتقد أن الدول تختار «سياستها الخارجية» بشكل مستقل عن «سياستها الداخلية». فطبائع الأشياء تفرض أن تكون السياسة الخارجية تعبيراً عن متطلبات السياسة الداخلية. فالدولة، فى أى بلد، تعمل على حماية مصالح معينة(قد تكون المصالح الوطنية، وقد تكون مصالح طبقة معينة أو فئة معينة)، وهى تختار السياسات التى تعتقد أنها تضمن حماية تلك المصالح، فتقوم بتطبيق بعض تلك السياسات فى الداخل، والبعض الآخر فى الخارج. وهناك مقولة من القرن التاسع عشر، لا يكل الأستاذ محمد حسنين هيكل من ترديدها فى أحاديثه الأسبوعية على

كما يرون أن الحل ممكن إذا تمكن المعتدلون فى العالم العربى والمعتدلون فى إسرائيل، وبرعاية أمريكية، من تكوين جبهة متماسكة ضد المتطرفين العرب والمتطرفين الإسرائيليين الذين يعادون السلام



وهم يصرون على أن تفاؤلهم مبنى على أرضية الفهم الموضوعى للمصالح الحقيقية لأطراف النزاع الثلاثة: العرب، إسرائيل والولايات المتحدة، وأن لغة العقل والحداثة والتسامح ستنتصر فى النهاية لأنها اللغة الوحيدة التى تعبر عن روح العصر

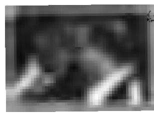
شاشة الجزيرة، تقول: «ليست هناك سياسة خارجية لأى بلد. ولكن هناك سياسة داخلية تفرض أسلوب التصرف الخارجى للبلد». وفى منتصف القرن العشرين اكتسبت مقولة «كل السياسة هى سياسة محلية» (All politics is local) لرئيس مجلس النواب الأمريكى المشهور توماس أونيل (١٩١٢ - ١٩٩٤) شهرة طاغية فى الأوساط الأمريكية، إذ أنها أعادت صياغة مقولة القرن التاسع عشر بلغة السياسة الأمريكية. وهى مقولة تؤكد حقيقة أن ما تتخذه حكومة أى بلد فى العالم من مواقف، تجاه بلدان العالم الأخرى، ما هو فى الواقع إلا امتداد للمواقف التى اتخذتها تلك الحكومة تجاه أوضاع بلدها الداخلية، أى أن الممارسات الخارجية لأى دولة تأتى دوما تعبيراً عن الممارسات الداخلية فى تلك الدولة، ولذلك فالقول بأن دول «الاعتدال العربى» نجحت فى «اختيار» سياستها الخارجية وفشلت فى اختيار سياستها الداخلية، هو قول لا معنى له من الناحية المنطقية.

ومن ناحية تاريخية، فالعلاقة بين نشوء ما يدعوه المؤلف بنهج «الاعتدال العربى» وتطوره وبين تطورات الأوضاع الداخلية لبلدان دول الاعتدال علاقة واضحة لا التباس فيها.

لنأخذ مصر، وسنرى أن تطور سياسة «الاعتدال» فيها تجاه الصراع العربى - الإسرائيلى كان تعبيراً عن تطور الأوضاع الداخلية لمصر، ومن الممكن المرور السريع على ثلاث مراحل مميزة فى ذلك التطور.

المرحلة الأولى تخص العهد الملكى، حيث كان عنوان المشهد السياسى هو النضال لتحقيق الاستقلال من الاستعمار البريطانى، وحيث كان هناك ملك، وحزب أغلبية (الوفد) وأحزاب أقلية (السعديين والأحرار الدستوريين)، وأحزاب عقائدية (الإخوان والشيوعيين). ومن المعروف أن الحكومة عام ١٩٤٨ كانت بيد الأحزاب الأقلية (حكومة النقراشى) وأن تلك الحكومة رأت أن من مصلحة مصر عدم خوض الحرب فى فلسطين ولكن هذه الحكومة اضطرت إلى دخول تلك الحرب تحت ضغط الرأى العام الذى كان يرى أن المعركة ضد الاستعمار والمشروع الصهيونى هى معركة واحدة، أى أن السياسة الداخلية المتمحورة حول قضية التحرر الوطنى فرضت السياسة الخارجية فى دخول الحرب.

المرحلة الثانية كانت



مرحلة ثورة ٢٣ يوليو، ومن المعروف أن النهج الذى اختطته الثورة فى سنواتها الأولى كان نهج العمل على تحقيق جلاء القوات البريطانية وتكريس سياسة التحرر وعدم الانحياز، وتحقيق التنمية الوطنية بشكل يعيد توزيع الدخل القومى لصالح الأغلبية الفقيرة. ولم يكن فى أولويات الثورة، فى تلك السنوات، أى مكان للصراع العسكرى مع إسرائيل. والذى حدث أن الدول الاستعمارية وإسرائيل عارضت مشروع التحرر والتنمية المستقلة فى مصر وشنت عليها حرب ١٩٥٦، وهكذا كان اختيار الثورة لسياسة داخلية تعتمد على التنمية المستقلة هو الذى عكس نفسه فى سياسة خارجية كرست الصدام مع إسرائيل.

المرحلة الثالثة كانت مرحلة الارتداد على سياسة التنمية المستقلة، وتكريس نهج التبعية للرأسمال العالمى، التى قادها أنور السادات. ولقد كان من المستحيل المضى فى تلك السياسة بدون تكريس التبعية للسياسة الأمريكية التى تتطلب أول ما تتطلب الصلح مع إسرائيل. وهكذا نرى أن سياسة الصلح مع إسرائيل، كانت كسياسة الصدام مع إسرائيل، تعبيراً عن متطلبات السياسة الداخلية فى مصر.

ولنأخذ السعودية، ثانياً. وسنرى أن علاقتها بالصراع العربى- الإسرائيلى قد مرت بأربع مراحل، وأن تلك المراحل كانت تعبيراً أميناً على تطور الأوضاع الداخلية فى المملكة فى العقود الماضية.

المرحلة الأولى تخص الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، عندما كانت الأوضاع الداخلية فى المملكة توصف بالهادئة والآمنة والمستقرة وذلك بفضل الثروة الهائلة التى بدأت تنهال على المملكة من عائدات النفط من ناحية، وبفضل نظام القرون الوسطى الذى كرسته العائلة السعودية، وهو نظام وصفه الروائى عبد الرحمن منيف، الذى نزعت عنه الحكومة السعودية الجنسية، بقوله: "... نحن نعيش فى نظام لا يمنع فقط حرية المعارضة، إنه يمنع أيضاً حرية التأييد"، وفى تلك المرحلة لم تكن الأسرة المالكة تشعر بأى تهديد لشرعيتها ولذلك كانت تأخذ موقفاً متشدداً فى مجال الصراع العربى - الإسرائيلى وإن كان فى عمومه موقفاً لفظياً.

المرحلة الثانية كانت المرحلة الضبابية التى اتخذت فيها الأسرة السعودية مواقف متناقضة من الصراع العربى - الإسرائيلى. بدأت تلك المرحلة عندما بدأت الأسرة السعودية تشعر برياح التغيير تهب فى المنطقة بعد قيام ثورة اليمن عام ١٩٦٢ ولم يعد بإمكانها البقاء خارج حلبة الصراع العربى - الإسرائيلى كما كانت فى المرحلة السابقة.

ولكن متطلبات الحفاظ على الأوضاع الداخلية للمملكة بدون تغيير تبدلت فى بداية السبعينيات حين ظهر التعاطف الشعبى العربى الهائل مع المقاومة الفلسطينية ثم الإجماع العربى الهائل على الوقوف مع سوريا ومصر فى حرب عام ١٩٧٣، وقد قاد هذا الأسرة السعودية إلى اتخاذ موقف معاد للمعسكر الأمريكى-الإسرائيلى وتبنى سياسة قطع إمدادات النفط عن الولايات المتحدة الامريكية (هناك من يعتقد أن ذلك الموقف الذى قاده الملك فيصل كان وراء اغتياله، ولكن ليس هناك إثبات على ذلك).

المرحلة الثالثة التى اتصفت باتخاذ الأسرة السعودية دوراً نشيطاً فى الصراع العربى - الإسرائيلى، وقد تجلى ذلك النشاط فى مبادرة الملك فهد للسلام التى طرحتها المملكة على القمة العربية المنعقدة فى فاس عام ١٩٨٢. فلقد جاءت تلك المبادرة مع ما بدأ من ظهور تحديات لشرعية العائلة فى المملكة، إذ شهدت سنوات آخر السبعينيات ظهور تصدع فى التحالف الذى قامت على أساسه المملكة عام ١٩٣٢ بين العائلة السعودية والمؤسسة



الوهابية وتجلى هذا الصدع فى حادث احتلال الحرم الشريف فى مكة فى نوفمبر / تشرين الثانى عام ١٩٧٩ الذى انتهى بإعدام قائد المتمردين جهيمان بن محمد بن سيف العتيبى مع عدد من أتباعه. وفى الوقت ذاته ظهر التحدى الذى مثلته الثورة الإسلامية فى إيران وظهور الحركات الإسلامية المعادية للولايات المتحدة. وقد كان من تداعيات تلك التحديات تعاظم قوة اتجاه جديد فى الأسرة السعودية يقوده الأمير بندر بن سلطان (وهو من ظل سفير المملكة فى واشنطن لحوالى عشرين سنة) وكان يرى أن التصدى للتحديات التى تواجهها الأسرة السعودية لا يتم إلا عبر تطوير العلاقة السعودية. الأمريكية إلى تحالف استراتيجى كامل فى كل الشئون السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية، وأن مثل هذا التحالف لا يتحقق إلا إذا أظهرت السعودية مرونة فى موضوع الصراع العربى - الإسرائيلى، بدت بوادره فى مبادرة الملك فهد للسلام فى مؤتمر القمة العربى فى فاس.

المرحلة الرابعة، التى ابتدأت بعد أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول لعام ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة، وفيها أخذت الحكومة السعودية فى لعب دور قيادى فى تبنى العملية السلمية وفق الرؤية الأمريكية، ففى هذه المرحلة تعرضت الأسرة السعودية لأخطر تحد واجهته منذ تأسيس المملكة. وجاء هذا التحدى من ثلاثة مصادر. الأول من الكونغرس الامريكى، الذى رأى أن الحكم السعودى المتزمت أوجد تربة خصبة لولادة الحركات الأصولية الإرهابية فأخذ يطالب الأسرة السعودية بالقيام بإصلاحات سياسية تفسح المجال أمام الأمراء الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات الأمريكية لتسلم مهام قيادية فى الحكومة. وكان ذلك يثير قلق الكثيرين من أفراد الأسرة السعودية الآخرين. أما المصدر الثانى فجاء من الحركات الأصولية التى أخذت تقوم بعمليات إرهابية داخل المملكة، وكان المصدر الثالث للتحدى هو نمو ظاهرة المعارضة من أعداد متنامية من المثقفين ونخب الطبقة الوسطى. وفى هذا السياق قام الأمير ثم الملك بتقديم المبادرة السعودية للسلام مع إسرائيل وفق مبدأ الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل، كما أخذ يتخذ مواقف من نهج المقاومة فى فلسطين ولبنان ويقود ما أصبح يعرف بنهج "الاعتدال العربى".

يتضح من هذه المراجعة التاريخية السريعة أن السياسة الخارجية لمصر والسياسة الخارجية للسعودية، تجاه قضايا الصراع العربى - الإسرائيلى تطورتا فى نحو شكّل تعبيراً صادقاً عن تطور الأزمة فى نظام حكم البلدين، وفى هذا السياق يتضح أن مقولة المؤلف فى أن نهج "الاعتدال العربى" كان فى الواقع نهجاً أردنياً هى مقولة صحيحة على أساس أن سؤال الشرعية الذى يبدو أنه طرح مصريا فى السبعينيات، ثم سعوديا أواخر الثمانينيات، كان مطروحا فى الأردن قبل ذلك بعقود، بل وربما منذ ولادة الدولة الأردنية ذاتها فى سنة ١٩٢١ لأسباب يراها البعض مرتبطة بشكل عضوى بمتطلبات الرعاية البريطانية للمشروع الصهيونى، ومن هنا نفهم طبيعة المأزق الذى واجهه ملف الكتاب فى الواقع المعاش، فالمعشر، عندما أصبح نائباً لرئيس الوزراء مسئولاً عن قضايا الإصلاح، حاول بجهد وصدق أن يغير من "السياسة الداخلية" فى الأردن حتى تتلاءم مع سياسة الاعتدال الخارجية، إلا أن الحقيقة التى فرضت نفسها فى نهاية المطاف تمثلت فى أن سياسة "الاعتدال" الخارجية التى يتحمس لها، كانت فى الواقع تعبيراً عن سياسة "الاستبداد" التى يمقتها ويعمل على تغييرها. "الاستبداد" فى الداخل و"الاعتدال" فى الخارج ما هما إلا وجهان لعملة واحدة.

ربما كان سؤال الشرعية وحده هو ما يفسر إصرار "أمراء السلام" على التمسك بالاستمرار فى العملية السلمية بشكل دائم، ومطلق، على أساس أنها المصدر الوحيد الذى يمنحهم "شرعية" يعتقد ناصحوهم أنها قد تكون كافية لتعويضهم "وضمان استمرارهم".

وربما يفسر هذا ما يبدو أحيانا بحثا دائما ومحموما عن الشرعية فى الخارج، من مؤتمر إلى آخر، ومن مبادرة سلام إلى أخرى.

ويبدو الأمر فى نهاية المطاف، كأننا أمام شخص يعيش فى بلد ما على أساس تأشيرة إقامة مؤقتة. ولذلك فإن من المفروض عليه كلما انتهت صلاحية التأشيرة أن يكرس كل جهده للحصول على تمديد لها لفترة أخرى.

وهنا يبرز السؤال الجوهرى: ما هو اسم البلد الذى يعيش فيه "أمراء السلام" العرب بتأشيرة إقامة مؤقتة.

يستعرض الكتاب النجاحات التى أنجزتها الدبلوماسية الأردنية بصمت وسمع عنها الناس غالبا على أنها إنجازات دول أخرى

[٣]

من الواضح أن اسم ذلك البلد هو «ميونيخ» بالمعنى السياسى الاصطلاحى للكلمة وليس المعنى الجغرافى.

من المعروف أن مدينة «ميونخ» الألمانية قد اكتسبت، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر / أيلول ١٩٣٩ مضموناً سياسياً دخل فى قاموس الاصطلاحات السياسية. فعندما يوصف أى «اتفاق سياسى» على أنه «ميونخ جديدة» فذلك يعنى أن الأيام ستثبت بسرعة أن الطرف القوى فى الاتفاق قد غرر بالطرف الضعيف، وأن النتيجة الحتمية للاتفاق ستكون استمرار الطرف القوى فى الممارسات التى وعد فى الاتفاق أن يتوقف عنها.

ويعود هذا المضمون السياسى لاسم مدينة ميونخ إلى الاتفاق الذى تم توقيعه فى نهاية المؤتمر الذى انعقد فى المدينة فى ٣٠ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٣٨، وضم أدولف هتلر عن ألمانيا، وبنيتو موسلينى عن إيطاليا، وادوارد دالادييه عن فرنسا، ونيفيل تشمبرلين عن بريطانيا. ونص هذا الاتفاق على تقسيم دولة تشيكوسلوفاكيا (التى لم تدع إلى حضور المؤتمر) حيث تضم ألمانيا منطقة السوديت، ويتم إجراء استفتاء شعبى لتقرير مصير بقية المناطق، وبذلك وافقت بريطانيا وفرنسا على تمزيق تشيكوسلوفاكيا وإعطاء هتلر كل ماكان يطالب به، مع أن فرنسا كانت مرتبطة بمعاهدة دفاع مشترك مع تشيكوسلوفاكيا.

وعندما عاد رئيس الوزراء البريطانى تشيمبرلين إلى مقره فى ١٠ داونينغ ستريت فى لندن خاطب الجماهير التى أتت لتحيته: «أيها الأصدقاء الكرام، للمرة الثانية فى تاريخنا نعود من ألمانيا إلى داونتغ ستريت بالسلام مع الشرف، إن عصرنا هو عصر السلام» (كانت المرة الأولى عندما عاد رئيس الوزراء البريطانى بنيامين دزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١) من مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ بمعاهدة السلام).

ولقد وصفت جريدة التايم اللندنية يومها عودة تشيمبرلين بالقول: «... لم يحدث أن عاد فاتح من ميدان القتال بإكليل غار أنبل من الإكليل الذى عاد به تشيمبرلين من ميونخ». ومن المعروف أن ذلك الإكليل قد تمرغ فى الوحل بعد شهور قليلة من ذلك عندما تبين أن تشيمبرلين عاد من ميونخ بدون سلام وبدون شرف. فهتلر لم يتوقف عند احتلال منطقة السوديت، كما نص اتفاق ميونخ، بل إنه قام فى ١٥ مارس / اذار ١٩٣٩ باحتلال كل تشيكوسلوفاكيا (اى بعد ستة أشهر من مؤتمر ميونخ) وبعد أن انتهى هتلر من ذلك، قام فى ١ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩ بالهجوم على بولند. وعندها وجدت بريطانيا وفرنسا أنهما مضطرتان لإعلان الحرب على ألمانيا فبدأت الحرب العالمية الثانية. ومنذ ذلك الوقت أخذ اصطلاح «ميونخ» السياسى يتضمن ثلاث نقاط. الأولى تخص التصرفات السياسية الناجمة عن خداع النفس. فلم يكن هناك أى مبرر لتشمبرلين ودالادييه فى الاعتقاد بان هتلر سوف يلتزم بالاتفاق الذى وقعه فى ميونيخ، أو الاعتقاد بأن هتلر قادر على أن يعيش بسلام مع جيرانه. فدالادييه نفسه قال قبل المؤتمر: «إن هدف هتلر الحقيقى هو السيطرة على كل القارة الأوروبية، اليوم تشيكوسلوفاكيا، وغداً بولندا ورومانيا، وعندما يحصل على الزيت والقمح الذى يريده من الشرق سيتوجه نحو الغرب». وقد علق وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا على اتفاقية ميونخ يوم توقيعها بقوله «لقد ضحت بريطانيا وفرنسا بتشيكوسلوفاكيا من أجل السلام، ولكنهم لن يحصلوا إلا على الحرب». والنقطة الثانية هى أن خداع السياسيين الفرنسيين والبريطانيين أنفسهم لم يكن قضية شخصية تخص أصحابها ولكنها كانت تعبيراً عن المناخ العام الذى يعيش فيه البلدان ويتسم بالضعف العام وعدم وجود رؤية قومية واضحة ومحددة فى كلا البلدين: فانهيار حكم تحالف الاحزاب اليسارية (الجبهة الشعبية) فى فرنسا عام ١٩٣٨ وبعد أقل من ثلاث سنوات على قيامه كان دليلاً على ضعف القوى الديمقراطية وتعاظم قوة الأحزاب الفاشية. وكذلك فالوضع فى بريطانيا لم يكن أفضل من ذلك، حيث كان فى صفوف حزب المحافظين من له ميول فاشية واضحة ويرى ضرورة التفاهم مع هتلر وتشكيل تحالف ضد الشيوعية. أما النقطة الثالثة وهى الأهم، فهى أن «ميونيخ» أثبتت أنه من المستحيل التعايش السلمى مع حركات التاريخ السوداء (الفاشية والنازية) حيث إن السلام مع تلك الحركات لا يؤدى إلا إلى تشجيعها على العدوان.

كانت هناك مدرستان الأولى تؤيد قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الملك حسين وهى على صلات جيدة مع حزب العمال فى إسرائيل، والمدرسة الأمنية التى تعارض قيام دولة فلسطينية، وكان يرعاها الأمير الحسن ولها صلات مع حزب الليكود فى إسرائيل



تلك القوى كرست نهج الاعتدال فى عملية السلام ولم تكرسه فى مشاغل أخرى مثل الحاكمية الرشيدة والرفاه الاقتصادى والمشاركة فى صنع القرارات»

ومن الواضح أن هذه النقاط الثلاث تنطبق، بشكل كامل، على ما أصبح يعرف باسم «العملية السلمية فى الشرق الأوسط». فعندما أقدم أنور السادات على انتهاج سياسة الصلح مع إسرائيل وقفت كل مؤسسة وزارة الخارجية المصرية ضده. فاستقال وزير الخارجية إسماعيل فهمى احتجاجاً على زيارة السادات للقدس، وبعد ذلك استقال وزير الخارجية، محمد إبراهيم كامل، احتجاجاً على توقيع معاهدة الصلح. والذى يقرأ ما كتبه الرجلان من مذكرات يرى بوضوح أنهما اعتبرا عملية الصلح مع إسرائيل، على أنها بالشكل الذى تمت به، عملية خداع للنفس. وكذلك كان الحال مع ياسر عرفات عندما أقدم على توقيع اتفاقية أوسلو التى اعترف فيها بحق إسرائيل بالوجود دون أن تعترف الأخيرة فى حق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير. ويكفى قراءة ما كتبه إدوارد سعيد عن ذلك الاتفاق لمعرفة مدى عملية خداع النفس التى مارستها قيادة منظمة التحرير عندما أقدمت على توقيع تلك الاتفاقية. يلاحظ المراقبون أيضا صلة بين كل تلك التطورات وبين الأوضاع الداخلية العربية. فليس صدفة أن الأول قام بزيارة القدس (١٥ نوفمبر ١٩٧٧) بعد أشهر من انتفاضة الخبز فى ١٨ و ١٩ يناير لعام ١٩٧٧. كما أنه ليس من الصدفة أن الملك فهد قام بأول تبن لمبادرة من أجل السلام مع إسرائيل بعد الهزة السياسية التى حدثت فى المملكة بعد أحداث الحرم الشريف فى مكة. وليس صدفة أن ياسر عرفات شرع فى فتح قناة أوسلو للتفاوض السرى مع إسرائيل بعد أن ظهرت قيادات فلسطينية جديدة فى الضفة والقطاع (حيدر عبد الشافى وفيصل الحسينى وحنان عشراوى) التى خشى أن تنافسه على تصدر القيادة.. كما أخذت قطاعات كبيرة من الفلسطينيين فى الضفة والقطاع تلتف حول حركة المقاومة الإسلامية (حماس) التى انطلقت عام ١٩٨٧.

ولكن الأهم من كل ذلك هو أن العملية السلمية برهنت، بشكل قاطع، على أن شهية الحركة الصهيونية للعدوان والتوسع تزداد مع ازدياد عمليات التصالح معها،



تماما كما برهنت «ميونيخ» على أن تهيئة النازية للعدوان والتوسع تزداد مع ازدياد التفاهم معها.

إذا أخذنا النشاط الاستيطاني في بناء المستعمرات اليهودية على الأراضي الفلسطينية كمؤشر على التوسع الصهيوني، فإننا نلاحظ أنه ما بين حرب ١٩٦٧ وزيارة السادات لإسرائيل (١٩٧٧)، كانت عمليات الاستيطان في الضفة الغربية تتم ببطء وتتمحور بشكل رئيسي حول الاستيطان لأهداف أمنية وعسكرية ودينية. وفي تلك السنوات بلغ متوسط عدد الزيادة في عدد المستوطنين اليهود السنوي أقل من أربعة آلاف في السنة، وبعد زيارة السادات لإسرائيل، حصل تطور تاريخي إذ أخذ النشاط الاستيطاني يخرج من الإطار الديني والأمني ويتحول إلى استيطان مدني يشمل شرائح مختلفة من المجتمع، كما بدأت الدولة تشرف على وضعه الإداري والخدماتي وبناء بنيته التحتية. وفي السنوات التي امتدت ما بين زيارة السادات للقدس وبين توقيع اتفاق أوسلو (١٩٩٣) بلغ متوسط الزيادة السنوية في عدد المستوطنين ما يزيد على ١٤ ألف مستوطن، أي أن فترة السلام مع مصر شهدت ازدياداً في المتوسط السنوي للاستيطان بأكثر من ثلاثة أضعاف المتوسط السنوي لفترة الحرب. كذلك حصلت نقلة نوعية أخرى في النشاط الاستيطاني بعد توقيع اتفاقية أوسلو، ففي خلال ستة أعوام من توقيع الاتفاقية تضاعف عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية.

أما من ناحية شهية العدوان الإسرائيلي في ارتكاب المجازر فيكفي أن نتذكر أن مجازر صبرا وشاتيلا، وقانا والحرم الإبراهيمي، وجنين وخان يونس وغزة كلها مجازر حدثت في عهد العملية السلمية.

وهكذا نجد أنه كما فهم هتلر اتفاقية «ميونيخ» على أنها ضوء أخضر لممارسة التوسع في أوروبا، فإن إسرائيل فهمت من توقيع اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية ثم من توقيع اتفاقية أوسلو على أنهما أضواء خضراء لممارسة التوسع الصهيوني في الأراضي الفلسطينية. بهذا المعنى يكون العرب المتمسكون بخيار السلام الاستراتيجي مع إسرائيل قد استوطنوا في «ميونيخ» منذ عام ١٩٧٧ وحتى يومنا الحاضر، وهو استيطان يستدعي الحصول على تأشيرة تجديد إقامة بين الفترة والأخرى. فكلما أقدمت إسرائيل على عملية توسع استيطاني جديد، أو قامت بتنفيذ عدوان جديد، أو ارتكاب مجزرة جديدة، كلما شعرت حكومات الاعتدال العربي بزيادة عزلتها عن شعوبها وتآكل شرعيتها ووجدت نفسها مضطرة لتقديم تنازل جديد لإسرائيل يضمن لها استمرار «الشرعية» الأمريكية، لمدة أطول.

وهنالك شبه آخر بين «ميونيخ» و«العملية السلمية»، ففي الأيام التي تلت التوقيع على اتفاقية ميونيخ كانت الجرائد الإنكليزية تصف ما حدث على أنه Appeasement أي «استرضاء» ولم يكن لهذه الكلمة أي مضمون سيئ، إذ كان معناها قريباً من معنى كلمة Compromise أي مساومة، ولكن بعد أن اتضح أن ما حصل في ميونيخ كان عبارة عن استسلام للعدوان، أصبح لتلك الكلمة مضمون سيئ إذ أصبحت تعني الاسترضاء على حساب المبادئ وهو تماما ما حصل مع كلمة «اعتدال» في اللغة العربية. فقبل العملية السلمية، كان لتلك الكلمة مضمون جيد يعني عدم التطرف، ولكن ذلك المضمون اختفى في السنوات الماضية إذ أخذت الكلمة ترمز للتبعية والاستسلام.

وعندما نلاحظ أن بريطانيا وفرنسا لم يستوطنا في «ميونيخ» إلا سنة واحدة



(من سبتمبر ١٩٣٨ إلى سبتمبر ١٩٣٩) بينما مضى على استيطان حكومات الاعتدال العربي في نفس المدينة ما يزيد على ثلاثين سنة، فإننا ندرك حجم المأساة العربية.

[٤]

في رأينا إذن أن «العملية السلمية» في الصراع العربي - الإسرائيلي، ما هي في واقع الأمر إلا عملية تقوم بها الأنظمة العربية للحصول على شرعية دولية تعوضها عن الشرعية الوطنية التي تبدو مهددة أحيانا. كما اتضح أن نهج «الاعتدال العربي» ما هو في واقع الأمر إلا «السياسة الخارجية» التي تحمي وتدعم سياسة الـ«لاتغيير» الداخلية.

وهذه حقائق معروفة للجميع، فلو وقفت على ناصية أي شارع في أي مدينة عربية، وسألت المارة عن «العملية السلمية» أو عن «نهج الاعتدال العربي» فإن الغالبية العظمى من الإجابات ستأتي معبرة عن ارتباط «الاعتدال» و«الاستبداد» ببعضهما البعض. أما الذين يعملون كمستشارين عند «أمراء السلام» في العالم العربي فهم الوحيدون الذين لهم آراء مختلفة. وإذا حصل، وتوقف بعض هؤلاء المستشارين ليحاول أن يتعرف على آراء الناس، فإنه يخسر وظيفته ويصبح بلا عمل، أو يحصل، بحكم علاقاته الدولية السابقة، على وظيفة في إحدى المؤسسات الدولية. والواقع أن الأمرين كليهما حصلا مع المؤلف الذي حاول بإخلاص أن يعمل من أجل قضية الديمقراطية ومن أجل قضية الإصلاح والحكم الرشيد فوجد نفسه خارج الأردن وقد حظي بعمل في في البنك الدولي.

وهنالك كلمة أخيرة تتعلق بثقافة مستشاري «أمراء السلام». فكما قلنا إن معظمهم تلقى التعليم العالي في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المعروف أن هنالك ثلاثة أنواع من الطلبة العرب الذين درسوا في تلك الجامعات في سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات. النوع الأول هو الذي عاد إلى وطنه وقد اقتنع أو تبنى النهج الأمريكي في الفكر والسلوك بشكل كامل، والنوع الثاني الذي عاد رافضاً لكل لذلك النهج بشكل مطلق، والنوع الثالث الذي عاد بوجهة نظر نقدية تتماهى مع ما تمثله إسهام التجربة الأمريكية بالحضارة الإنسانية، وتعادي النهج الأمريكي الذي يراه معبرا عن أيديولوجية الإمبراطورية الإمبريالية في الوقت الحاضر. ويبدو أن مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا، مثل معظم مستشاري «أمراء السلام» ينتمي إلى الفريق الأول، المقتنع بالمقاربة الأمريكية للصراع العربي - الإسرائيلي، ويراه صراعا بين فريقين يحتاج إلى «عقلاء» من الطرفين لإنهائه. وهو لا يتوقف لحظة واحدة ليحدد ما هي طبيعة الطرف الذي يعتقد أن التوصل إلى السلام معه عملية مقدسة.. فإسرائيل كما هو معروف دولة تستمد شرعيتها، بنظر الغالبية اليهودية فيها من الأيديولوجية الصهيونية، فما هي هذه «الصهيونية» برأي هذا الفريق «المتعقل»؟ هل هي حركة تحرر وطني؟ هل هي حركة استيطان استعماري؟ هل هي حركة إنسانية متسامحة؟ هل هي حركة تمييز تمارس يومياً عمليات التطهير العنصري؟

كيف يمكن أن يدعو المؤلف القارئ إلى العمل على تحقيق السلام مع حركة سياسية بغض النظر عن طبيعة وماهية وبنية تلك الحركة؟

وهنالك مثل آخر لتبني المؤلف لوجهة نظر الامبراطورية الأمريكية.. فالمؤلف يصف العمليات الفلسطينية الاستشهادية بأنها عمليات إرهابية. وليس في ذلك مشكلة، فكثير من أصحاب النوايا الحسنة يشاركونه في ذلك الرأي. إلا أنه لم يكتف أبدا بذلك. فعلى سبيل المثال، مرة بعد أخرى، يقول في معرض حديثه عن المبادرة السعودية للسلام، أنه كان يعارض بشدة منتقدي المبادرة الذين كانوا يصرون على تضمينها حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، لأنه يعتقد أن ذلك «من التفاصيل» التي تضعف من قوة المبادرة.

هل حق تقرير المصير لملايين من البشر، هو مجرد تفاصيل؟؟؟

وهنالك أمثلة أخرى... كثيرة ◊

---

(١) «التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط، رؤية عربية» كتاب إسماعيل فهمي و«السلام الضائع في كامب ديفيد» هو كتاب محمد إبراهيم كامل

(٢) انظر كتاب إدوارد سعيد «غزة - أريحا: سلام أمريكي» (١٩٩٤)



بين ستينية الصراع و ثلاثينية التسوية

محمد بيسلي العطيمي



١٠ سبتمبر ١٩٧٧ (جتيزبرج - بنسلفانيا - الولايات المتحدة الأمريكية / أثناء مباحثات كامب ديفيد) من اليمين إلى اليسار: عزرا وايزمان، اليعازر روبنشتاين، موشي ديان، بطرس غالي، أنور السادات، محمد كامل، جيمي كارتر، مناحيم بيجين، روزالين كارتر، حسن التهامي ثم أليزا بيجن

من الناحية القانونية، تغيرت مرجعيات التسوية أكثر من مرة، تبعا للحالة التى يكون عليها ميزان القوى

** على الرغم من مرور ثلاثين عاما على توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، بعد أكثر من ثلاثين عاما من الصراع بين الطرفين، فلم تنته العلاقات بين القاهرة وتل أبيب إلى تطبيع على نحو ما كانت تأمل إسرائيل؛ إذ فى حين كانت المعاهدة ضرورة للمصلحة القومية المصرية؛ بغية استعادة باقى الأرض المحتلة التى لم يكن السلاح وحده بقادر على استردادها، كان الالتزام القومى المصرى تجاه القضية الفلسطينية يقف فى معسكر مواجه للتصرفات العدائية الإسرائيلية حيال جيرانها، وخاصة الفلسطينيين.

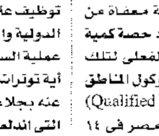
ربما كانت الفرصة سانحة لتطور العلاقات المصرية الإسرائيلية بشكل إيجابى خلال ثمانينيات القرن الماضى؛ حيث لم يكن مداد المعاهدة قد جف، وكانت ثمة آمال معقودة عليها من قبل الطرفين، كما كانت عضوية مصر معلقة بجامعة الدول العربية، ما جعل من المنطقى وجود رغبة مصرية فى إثبات رجاحة خيار السلام، غير أن ثمة أحداثا ذات دلالة، نأت بالجانبين عن توقع جنى ثمار سريعة من شجرة السلام، لعل أهمها كان الخلاف الذى أثارته إسرائيل حول طابا واجتياحها لبنان فى يونيه ١٩٨٢، ما أدى إلى استنفار مصرى على المستويين الدبلوماسى والشعبى؛ لرفض توسيع رقعة الصراع العربى الإسرائيلى، ولخوض معركة التحكيم حول طابا، الأمر الذى ما كاد يقارب تمامه حتى اندلعت انتفاضة الحجارة فى التاسع من ديسمبر ١٩٨٧، والتى جذبت تعاطفا شعبيا جارفا فى مصر وبقية العالم العربى.

لذلك كان بديهيا أن لا تفلح العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى إقامة تطبيع سواء على الصعيد الثقافى أو الاقتصادى، فثقافيا، ما زال التيار القومى هو السائد بين أوساط المثقفين المصريين بحكم أن نشأة الدولة فى العالم العربى ارتبطت بالتسويات الاستعمارية، ولم تكن انعكاسا لتنامى شعور قومى كما كان عليه الحال فى أوروبا إبان إبرام صلح وستفاليا عام ١٦٤٨، ونتيجة لذلك فمن الصعب الحديث عن ثقافة معاصرة فى مصر منفصلة عن الثقافة العربية[1] نظرا لأنه وببساطة شديدة لا توجد لغة مصرية، وإنما تشكل اللغة العربية وعاء الإنتاج الثقافى المصرى. وبناء عليه، يتبنى اتحاد الكتاب المصرى، وهو أكبر نقابة للأدباء المصريين، موقفا رافضا للتطبيع، بل وقام بإلغاء عضوية الكاتب المسرحى على سالم صاحب «مدرسة المشاغبين»، الذى قام بعدة زيارات لإسرائيل منذ عام ١٩٩٤، كان من تبعاتها عدم عرض أى عمل مسرحى له فى مصر منذ ذلك الحين.

وعلى الصعيد الاقتصادى، يعد التبادل التجارى بين مصر وإسرائيل محدودا، لا سيما فى ظل تواصل الاعتداءات الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى، والتى استتبعت انطلاق حملات المقاطعة للسلع الأمريكية والإسرائيلية، بتأثير من المثقفين ورجال الدين. ولم توفق عملية برشلونة التى انطلقت عام ١٩٩٥ فى صهر جبل الجليد بين الدول العربية جنوب المتوسط، وفى مقدمتها مصر، وبين إسرائيل. وعلى الرغم من تشجيع الطرف الأوروبى لإقامة تجمعات إقليمية فى إطار عملية برشلونة، فقد تبلورت استجابة جنوب المتوسط لذلك التشجيع فى اتفاقية أغادير فى ٢٥ فبراير ٢٠٠٤ بين مصر والأردن وتونس والمغرب، ومن ثم لم تستطع إسرائيل الاستفادة كثيرا من عملية برشلونة فى النفاذ إلى الأسواق العربية.

وقد استغلت الولايات المتحدة انتهاء نظام الحصص الذى كان معمولا به فى السوق الأمريكية بحلول عام ٢٠٠٥- والذى كان يمكن بموجبه للصادرات المصرية من المنسوجات والملابس الجاهزة النفاذ إلى السوق الأمريكية معفاة من التعريفة الجمركية فى حدود حصة كمية معينة، كانت تفوق الحجم الفعلى لتلك الصادرات - لتستبدله ببروتوكول المناطق الصناعية المؤهلة (Qualified Industrial Zones QIZ)، الذى وقعته مصر فى ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وكان الهدف منه منح ميزة تنافسية من خلال الإعفاء من التعريفة الجمركية وشروط الحصص الكمية لصادرات المنسوجات والملابس الجاهزة المصرية إلى الولايات المتحدة، شريطة أن تحتوى تلك الصادرات على مكونات إسرائيلية، لا تقل عن ١١,٧٪، تم خفضها خلال الربع الأول من العام الماضى إلى ١٠,٥٪.

ويمكن القول إن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل ظلت مرتبطة بمجريات الصراع العربى الإسرائيلى وانعكاساته على الشارع المصرى، ما حال دون تطور تلك العلاقات إلى علاقات طبيعية على مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية، حيث تظل القضية الفلسطينية بأبعادها الدينية والقومية عامل رفض للتطبيع مع إسرائيل بدون التوصل إلى تسوية شاملة للصراع فى الشرق الأوسط، الأمر الذى لعبت فيه مصر دورا أساسيا من خلال توظيف علاقتها بالولايات المتحدة والقوى الدولية والإقليمية المؤثرة من أجل إنجاح عملية السلام فى الشرق الأوسط، واحتواء أية توترات قد تنشأ فى المنطقة، فيما عبر عنه بجلاء الدور المصرى إبان حرب غزة التى اندلعت فى ٢٧ ديسمبر الماضى، والذى نجح بالتوازى مع الإدارة الأمريكية الجديدة فى التوصل إلى وقف إطلاق النار، ما يدحض ما يقال عن خروج مصر من معادلة القوة العربية، رغم خروجها رسميا من الصراع مع إسرائيل.



بوجه عام، فإن أية تسوية قادمة ستجد إشكالية فى تحديد المرجعية التى ستستند إليها

التساؤل الذى يفرض نفسه هو هل ترغب الأجيال القادمة بالفعل فى السلام؟ سيكولوجيا لا يبدو ذلك

وعلى الرغم من أن ثمة معسكرا رافضا لمفاوضات كامب ديفيد كان قد نشأ، فيما عرف بجبهة الصمود والتصدى، التى نجحت فى عقد قمة عربية ببغداد عام ١٩٧٨، قامت بتعليق عضوية مصر بجامعة الدول العربية، ونقل مقر الجامعة إلى تونس، إلا أن الدول الأعضاء بالجامعة لم تلبث أن سعت إلى معاودة فتح مسار التسوية السلمية مع إسرائيل من خلال مبادرة فهد التى أقرتها قمة فاس فى سبتمبر ١٩٨٢ على الرغم من الاجتياح الإسرائيلى للبنان قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر. وحاولت إسرائيل من جانبها استغلال ذلك المسعى من أجل نيل الاعتراف بها من محيطها العربى، والدخول فى علاقات دبلوماسية تنتهى بالتطبيع.

وبالإضافة إلى مصر، تمكن الأردن من عقد معاهدة وادى عربة مع إسرائيل عام ١٩٩٤، فى العام التالى لتوقيع معاهدة أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن ثم خرج الأردن من الصراع مع إسرائيل، ونشأت علاقات دبلوماسية بين الطرفين. كذلك، فقد قامت موريتانيا بإقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل فى أكتوبر ١٩٩٩، قامت بتجميدها كإحدى نتائج قمة غزة الطارئة بالدوحة فى ١٦ يناير الماضى.

وقد سعت إسرائيل إلى تطبيع علاقاتها بهاتين الدولتين من خلال المشروعات الاقتصادية المشتركة، فضلا عن العلاقة العضوية التى تربط الاقتصاد الفلسطينى بالاقتصاد الإسرائيلى، حيث تعتبر أراضى السلطة الوطنية الفلسطينية سوقا مفتوحا للمنتجات الإسرائيلية، ومنجما للعمالة الرخيصة لإدارة عجلة الاقتصاد الإسرائيلى. وكان الأردن قد سبق مصر فى توقيع معاهدة لإعفاء بعض الصادرات الأردنية إلى الولايات المتحدة من الجمارك، شريطة احتوائها على مدخلات إسرائيلية، كما تم إبرام اتفاق لتنظيم الاستفادة من المياه بين الأردن وإسرائيل، فضلا عن التعاون السياحى بين الطرفين فى منطقة العقبة - إيلات، وكذلك التعاون الأمنى. من جهة أخرى، تسمح الجسور المنشأة على نهر الأردن بالانتقال بين جانبى الحدود، لا سيما للفلسطينيين سواء من الضفة الغربية أو من داخل الخط الأخضر (عرب



٤٨). وقد نادى البعض بإعلان البحر الميت موقع تراث عالمى ثقافى ومحمية محيط حيوى فى الوقت ذاته[4] بإدارة مشتركة أردنية فلسطينية إسرائيلية. فيما يعرف بمحميات السلام، والتى يروج لها الاتحاد الأوروبى كآلية للحد من النزاعات بين الدول المتجاورة، على غرار المحمية العابرة للحدود التى أعلنت بين ولاية مونتانا الأمريكية ومقاطعة ألبرتا الكندية عام ١٩٣٢، وتحتفل سنويا بذكرى إعلانها تحت شعار «مصافحة عبر الحدود».

وفيما عدا الحالة الأردنية، فلم يكن ثمة تعاون اقتصادى فعال بين إسرائيل والدول العربية التى ترتبط بها بعلاقات دبلوماسية، حيث لم يقم على سبيل المثال بين موريتانيا وإسرائيل سوى بعض المشروعات الزراعية المشتركة، فضلا عن الخدمات الأمنية، والتى تعتبرها إسرائيل منطلقا للتأثير فى عدد من الدول الإفريقية.

بالتوازى مع ذلك، فقد نشأت علاقات تجارية رسمية (أى تبادل للمكاتب التجارية) بين إسرائيل وأربع دول عربية هى تونس والمغرب وقطر وعمان. وتشترك الأخيرة مع إسرائيل فى مشروع مركز أبحاث لتحلية مياه البحر، بتعاون مع جهات يابانية وأردنية وفلسطينية. وعلى الرغم من إغلاق المكاتب التجارية لهذه الدول الأربع فى إسرائيل إبان اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠)، إلا أن المشروع العمانى الإسرائيلى لم يتوقف خلال تلك الفترة، كما لم تقم إسرائيل خلالها بإغلاق مكتبها التجارى بالدوحة.

علاوة على ما سبق، فثمة توجهات إسرائيلية إلى إقامة علاقات مع عدد من الدول العربية، لعل من أهمها العراق الذى أصبح منذ حرب الخليج الثالثة ٢٠٠٣ ساحة مفتوحة لصالح العديد من القوى الدولية والإقليمية، يأتى فى مقدمتها الولايات المتحدة وإيران. وكانت أنباء قد ترددت عن مشاركة الموساد فى تدريب عناصر البشمرجة التابعة لحكومة إقليم كردستان العراق، فضلا عن التواجد الإسرائيلى فى بعض مشروعات إعادة الإعمار فى العراق.

وداخل شبه الجزيرة العربية، فقد اعتبر سماح اليمن بقيام اليهود من أصل يمنى بزيارة اليمن مؤشرا لاحتمال قيام عناصر منهم ببناء قناة اتصال بين تل أبيب وصنعاء. كذلك لا تخفى التوجهات الإسرائيلية بالتوصل إلى إطار رسمى لعلاقة مع السعودية، الأمر الذى حاول أرييل شارون التقاط طرف الخيط فيه لدى إطلاق المبادرة السعودية، التى تحولت إلى مبادرة عربية باعتماد قمة بيروت لها عام ٢٠٠٢. ثم اعتبر البعض إيفاد جامعة الدول العربية لوزيرى الخارجية المصرى والأردنى إلى إسرائيل فى يوليو ٢٠٠٧ لعرض المبادرة التى أكدت عليها قمة الرياض فى مارس من ذلك العام قناة غير مباشرة بين الرياض وتل أبيب بحكم رئاسة الأولى لدورة جامعة الدول العربية خلال تلك السنة، فضلا عما اعتبره البعض قناة اتصال بين إسرائيل والنظام الإقليمى العربى على الصعيد الرسمى، ممثلا فى جامعة الدول العربية.

ويعد مؤتمر حوار الحضارات والأديان، الذى دعت إليه السعودية، وعقد بمقر الأمم المتحدة بنيويورك خلال الفترة من ١١ إلى ١٣ نوفمبر الماضى، محطة لا يمكن إغفالها فى استخدام دبلوماسية المسار الثانى Track ٢ - Diplomacy فى التفاعلات العربية الإسرائيلية، إذ قرأ فيه الكثيرون محاولة لإقامة قناة بين إسرائيل وما كان يطلق عليه دول المساندة (فى مقابل دول المواجهة أو دول الطوق)، من خلال الالتفاف عبر حوار الحضارات - الذى اعتبره العرب بوابتهم للنفاذ إلى دوائر صنع القرار الغربية لدرء الشبهات عن الإسلام، لا سيما فيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ - حيث عملت إسرائيل على استغلال هذا المؤتمر إعلاميا إلى حد كبير، فقد صرح الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز بأنها المرة الأولى التى يواصل فيها عاهل سعودى الجلوس والاستماع لكلمة زعيم إسرائيلى. كما وصفت صحيفة «يديعوت أحرنوت» المؤتمر بأنه «لقاء نادر يجمع عبد الله وبيريز».

وقد أشاد الرئيس الإسرائيلى خلال كلمته بالمؤتمر بالدور السعودى فى المنطقة ومبادرة السلام العربية، التى كان العاهل السعودى عبد الله بن عبد العزيز قد طرحها، حينما كان وليا للعهد. غير أن بيريز أردف بضرورة إدخال تعديلات على المبادرة، الأمر الذى فصلته وزيرة خارجيته تسيبى ليفنى، بدعوتها إلى إغفال حق عودة اللاجئين، واعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل.

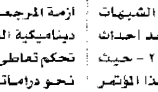
وعلى الرغم مما يمكن أن تلعبه الدبلوماسية بمساريها فى تسوية الصراع العربى الإسرائيلى، إلا أن استشراف ملامح أية تسوية مقبلة، استنادا إلى تتبع مراحل عملية السلام، يبرز عددا من الأزمات، التى ألقت بظلالها على عملية التسوية، وساهمت فى جعل الصراع واحدا من أطول الصراعات السياسية، لعل أهمها أزمة المرجعية التى تعد أبرز عوامل ديناميكية الصراع، إذ أن المرجعيات التى تحكم تعاطى الأطراف المعنية تغيرت على نحو دراماتيكى أكثر من مرة، سواء المرجعيات السيكولوجية والأيديولوجية أو المرجعيات القانونية.

ويعد تغير مرجعيات التسوية أحد انعكاسات تغير الأهداف المرجوة من التسوية. فلم تكن تلك الأهداف محددة specific، ولا خاضعة لمقاييس للنجاح measurable، وفى بعض الأحيان كانت دوجماطيقية رغم أن الاعتبارات السياسية كانت تقتضى أن تكون دالة function من متغيرات عدة، أهمها ميزان القوى، مع بقاء الثوابت محفوظة. كما أن عدم مراعاة معيار الوقت أدى إلى تغير الظروف، وبالتالى تغير شكل الدالة، ومن ثم استمرار حالة عدم التحديد للأهداف.

فالعرب الذين كانوا يصرون على التمسك بفلسطين التاريخية، ورفضوا توطين المهاجرين اليهود، وعارضوا قرار التقسيم، سرعان ما وجدوا أنفسهم حيال أمر واقع فرضته حرب ١٩٤٨، منح إسرائيل أكثر مما منحها قرار التقسيم. وإذ أصر العرب على رفض الاعتراف بذلك الأمر الواقع كوضع قانونى دائم، فإنهم قاموا - مصر على وجه التحديد - نتيجة لنكسة ١٩٦٧ بالاعتراف بإسرائيل لاسترداد سيناء. وحتى لا يتبدد الانتصار المصرى فى حرب المفاجأة فى أكتوبر ١٩٧٣، والتى لم يكن ميزان القوى العسكرى يسمح فيها باسترداد كامل الأراضى المصرية المحتلة عن طريق السلاح، الأمر الذى كان يدركه صانع القرار السياسى المصرى فى حينه، وقرر استكمال الحرب بالعمل الدبلوماسى بغية الوصول إلى تسوية، اعتبرت فرصة نادرة للعرب.

على الجانب الآخر، فإسرائيل التى بنت أحلامها على عودة اليهود إلى أرض المعاد، التى تزعم أن الله وعد بها خليله إبراهيم - عليه السلام - فى العهد القديم، وعلى التوسع المطرد، وعلى حدود تمتد إلى آخر مدى تصل إليه قواتها، اضطرت إلى التنازل عن شبه جزيرة سيناء بأكملها. وبعدما كانت تعتبر الفلسطينيين حفنة من البدو منضوين تحت لواء منظمة إرهابية، اضطرت بعد فشل سياسة تكسير العظام فى قمع الانتفاضة الأولى إلى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية والتعامل معها كشريك فى عملية السلام.

وبينما لم تضع إسرائيل لنفسها دستورا ولم ترسم لتوسعها حدودا، واعتمدت مبدأ بوتقة الانصهار فى استقبال المهاجرين اليهود وتوطينهم دون تحديد دقيق لماهية اليهودى، فقد وجدت نفسها محاصرة فى حدود ديموجرافية، فرضها التوجس من أن يصبح اليهود أقلية داخل دولة ذات حدود متسعة فى ظل الترويج الإسرائيلى لصورة ذهنية، تقوم على اعتبارها واحة الديمقراطية فى الشرق



لم يستطع الثنائى عباس - أولمرت القيام بإنجاز أية تسوية؛ نظرا لافتقادهما إلى تأييد شعبى حقيقى يقبل تقديم التنازلات

الحكومة الإسرائيلية الوحيدة التى تمكنت من التوصل إلى معاهدة سلام جريئة مع العرب كانت الليكود بقيادة مناحم بيجن

فليس ثمة من يملك قرارا بتقديم تنازلات بالنيابة عن الشعب الفلسطيني، متحملا في ذلك مسؤوليته أمام التاريخ

الأوسط. ويعتبر الهاجس الديموجرافي السبب الرئيس وراء الرفض الإسرائيلي الدائم لعودة اللاجئين الفلسطينيين، كما كان وراء عدم القبول بفكرة الدولة الواحدة العلمانية التي طرحها المفكر الراحل إدوارد سعيد، بل واضطر رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أرييل شارون إلى إعلان خطة الانسحاب الأحادي من غزة في ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣.

وكان رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، وتحت تأثير الهاجس الديموجرافي أيضا، قد طرح مبادرة عندما كان نائبا لرئيس الوزراء الإسرائيلي، تقوم على الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة ومن ٨٥٪ من أراضي الضفة الغربية، والأحياء العربية المحيطة بالقدس مثل أبوديس والسواحرة والرام وكفر عقب وضاحية البريد، وإزالة عشرات المستوطنات في الضفة وعلى المعابر في مقابل السيطرة الإسرائيلية على القدس والمستوطنات الكبرى، وأن تكون الدولة الفلسطينية منزوعة السلاح.

من الناحية القانونية، فقد تغيرت مرجعيات التسوية أكثر من مرة، لتكون ميراثا ضخما من القرارات والمبادرات، وغالبا ما كان تجدد المرجعية القانونية يمثل انخفاضا للسقف التفاوضي تبعا للحالة التي يكون عليها ميزان القوى؛ حيث إنه على الدوام، كان ثمة اختلال في ذلك الميزان تسمة للصراع وحاكم لتفاعلاته. بيد أن ذلك الاختلال كان سببا في اختبار لنظرية طغيان الضعيف Tyranny of Weak، أثبت نجاحها في حالات عدة، مثل حرب أكتوبر ١٩٧٣، والانتفاضة الحجارة، والمقاومة اللبنانية والتي نجم عنها الانسحاب الإسرائيلي من الجنوب اللبناني عام ٢٠٠٠، الأمر الذي كان يؤدي في كل من الحالات السابقة إلى إعادة هيكلة الموقف السياسي خارج أطر المرجعيات القانونية، في سبيل الوصول إلى تطبيق تلك المرجعيات.

وتمثل أزمة الإدراك ثغرة في تعاطي أطراف الصراع مع متغيراته المختلفة، بل تتعدى ذلك إلى ضبابية في التمييز بين الثوابت والمتغيرات. كما أن التقديرات الاستراتيجية التي يضعها كل طرف كانت في بعض الأحيان أسيرة لأزمة الإدراك، الأمر الذي كان يؤدي بطبيعة الحال إلى اشتباك خاطئ wrong engagement، فالتباين في الإدراك العربي إزاء التسوية مع إسرائيل في أواخر السبعينيات أدى إلى اضطرار العرب فيما بعد إلى القبول بسقف أدنى للتسوية في ظل ظروف مغايرة لتلك التي أوجدتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ وزيارة الرئيس السادات للقدس عام ١٩٧٧، حيث كانت حرب الخليج الثانية ٩٠-١٩٩١ قد غيرت طبيعة التفاعلات الإقليمية في المنطقة، بما أدى إلى حالة من التدويل لشؤونها، الأمر الذي ساعد عليه انهيار الاتحاد السوفيتي وبزوغ ظاهرة العولمة.

ويمكن القول إن إسرائيل هي المتسبب الرئيس في إيجاد أزمة المصداقية تجاه التسوية السلمية، من خلال تصعيد الصراع، وعدم احترام مبادئ القانون الدولي. فمحاولات إسرائيل المستمرة للالتفاف حول المرجعيات القانونية للتسوية وابتداع مرجعيات جديدة وخلط الأوراق أدت إلى إرجاء التسوية من مرحلة إلى أخرى، وبالتالي إطالة أمد الصراع، واستخدام أجيال جديدة وقودا لصراع، بدأه الآباء دونما مبرر يراه الأبناء مقبولا للتضحية بالسلام. ولعلنا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن جميع الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ انطلاق التسوية السلمية عام ١٩٧٧ ماطلت في الوصول إلى أية حلول واقعية، وماطلت أكثر في وضع تلك الحلول موضع التنفيذ، وخير دليل على ذلك الموقف الإسرائيلي من قضية طابا، والتي بت فيها التحكيم الدولي بعودتها إلى السيادة المصرية.

ربما يكون الاستثناء الوحيد ممثلا في رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحاق رابين، فعلى الرغم من أنه كان أيضا مفاوضا يتسم بالمماطلة، إلا أنه أدرك بحكم خبرته كعسكري وسياسي استحالة التعاطي مع الطرف العربي بقوة السلاح، وبالتالي فلا سبيل سوى التفاوض والتنازل للحصول على مقابل.

ويرتبط بأزمة المصداقية التي أوجدتها إسرائيل سعيها الدائم إلى تقسيط التسوية وعدم سداد التزاماتها تجاهها دفعة واحدة، والعمل على تغيير ظروف التسوية من خلال إيجاد وقائع جديدة على الأرض. وبالرجوع إلى الأساس الذي بنيت عليه التسوية في مؤتمر مدريد من تقسيم السلة التفاوضية إلى مسارات، فقد تم الانتهاء من المسار الأردني، والمماطلة في المسار الفلسطيني، وتأجيل المسار السوري، ومحاولات خلق مسار لبناني منفصل، لا سيما بعد انسحاب القوات السورية من لبنان عام ٢٠٠٥.

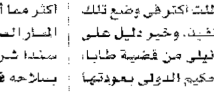
وفي هذا الصدد على وجه التحديد، ثمة اعتقاد بأن إسرائيل تكبدت خسائر أكثر مما أفادت من تأجيل التسوية على المسار السوري اللبناني؛ إذ أعطى ذلك سندا شرعيا لحزب الله للاحتفاظ بسلاحه في مواجهة إسرائيل، الأمر الذي كان من تداعياته الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، ما جعل الرأي العام العربي يذهب إلى أن إسرائيل لا تقدم تنازلات إلا إذا ووجهت بقوة السلاح، وعضد ذلك الاتجاه قرار شارون بالانسحاب الأحادي الجانب من قطاع غزة تحت وطأة انتفاضة الأقصى - بالإضافة إلى الهاجس الديموجرافي الذي ذكرناه آنفا.

علاوة على ذلك، فبقاء سورية خارج إطار التسوية السلمية تعتبره دمشق مبررا من منظور تفاوضي لممارسة الضغط على إسرائيل من خلال دعم حزب الله في لبنان، وحماس في قطاع غزة؛ بما يشتت الانتباه الإسرائيلي، في الوقت الذي تعمل فيه إيران على تطوير برنامجها النووي، الذي تراه إسرائيل تهديدا عرقيا لأمنها القومي.

على الصعيد الدولي، فمن الإنصاف أن نذكر أن إسرائيل برعت في التسلل إلى وسائل التأثير على صناعة القرار السياسي في الدول العظمى، منذ ارتباطها بالإمبراطورية البريطانية وحتى تحولها إلى الاستفادة من الولايات المتحدة. ونظرا لما يلعبه الإعلام من دور فاعل في صناعة الرأي العام، ومن ثم صياغة توجهات النخب السياسية، فقد حرصت إسرائيل على وجود جماعات ضغط موالية لها ذات اتصال وثيق بدوائر الإعلام، الأمر الذي يمكن تجلي آثاره من الربط الإسرائيلي بين الحرب الأمريكية على الإرهاب وعمليات المداهمات والاغتيالات والتوغل التي تقوم بها القوات الإسرائيلية في صفوف الفلسطينيين، بل إن الأداة الإعلامية الإسرائيلية ساهمت في نكوص إدارة بوش الابن عن التعاون الذي بدأته إدارة كلينتون مع عرفات، رغم القبول الدولي الذي حظي به الرجل خلال عقد التسعينيات في أعقاب توقيع اتفاق أوسلو، الذي لم يكتمل تطبيقه إلى اليوم.

ولا تقل أزمة التمثيل خطورة في عملية التسوية عن أزمات المرجعية والإدراك والمصداقية، لا سيما أنها ترتبط بفكرة الشرعية، وبالتالي الصلاحيات الممنوحة للممثلين السياسيين بصفة عامة، وللمفاوضين بصفة أخص.

وقد وقع العرب في خطأ تاريخي عندما استسلموا لفكرة إلحاق الضفة الغربية بشرق الأردن، ووضع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية؛ حيث ضاعت فرصة مواتية لإنشاء دولة فلسطين على باقي الأراضي العربية التي لم تحتلها إسرائيل عام ١٩٤٨، واضطلاعها بتمثيل الشعب الفلسطيني والدفاع عن قضيته. وتم الاكتفاء بتشكيل حكومة عموم فلسطين، التي مثلها أحمد حلمي عبد الباقي في جامعة الدول العربية. كما أن ذلك الخطأ التاريخي الذي وقع فيه العرب لم يحل



العرب الذين عارضوا قرار التقسيم، وجدوا أنفسهم حيال أمر واقع فرضته حرب ١٩٤٨، منح إسرائيل أكثر مما منحها قرار التقسيم

إسرائيل التي بنت أحلامها على عودة اليهود إلى أرض المعاد، اضطرت حيال أمر واقع فرضته حرب ٧٣ إلى التنازل عن سيناء بأكملها



دون الاعتداء على الأراضى الفلسطينية، فالغارة الإسرائيلية على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ لم يتم الرد عليها بشكل حاسم. كما أن عبد الله بن الحسين كان قد أعلن عام ١٩٥٠ ضم قطاع غزة إلى شرق الأردن، لتكتمل المملكة الأردنية الهاشمية، الأمر الذى أحدث فى حينه أزمة داخل أروقة جامعة الدول العربية.

وعندما أريد أن يكون للفلسطينيين ممثل شرعى، فقد قام العرب باختيار أحمد الشقيرى فى القمة العربية الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٤، وتم إعلان قيام منظمة التحرير الفلسطينية قيادة معينة لقوى الشعب الفلسطينى فى المؤتمر الفلسطينى الأول الذى عقد بالقدس خلال الفترة ٢٨ مايو - ٢ يونيه من نفس العام، دون أن يتم تشكيل سلطة وطنية فلسطينية، حتى ولو سلطة حكم ذاتى تحت السيادة المصرية أو الأردنية.

وبين الحين والآخر فقد كان ثمة انتقاد يوجه إلى المنظمة، يقوم على اعتبارها كيانا يمثل فلسطينيى الخارج الذين كانوا يعيشون فى مصر ودول الخليج، ويمارسون أعمالا مدنية لا علاقة لها بالسياسة ولا بالعمل العسكرى، ولا يعايشون الظروف التى يعيشها فلسطينيو الداخل. وقد تم استغلال ذلك الانتقاد فى مؤتمر مدريد للسلام الذى تم تدشينه فى أكتوبر ١٩٩١، حيث تم تمثيل الفلسطينيين بمجموعة من فلسطينيى الداخل، ضمت أسماء اشتهرت فيما بعد، مثل فيصل الحسينى وحيدر عبد الشافى وحنان عشراوى، تم إلحاقهم بالوفد الأردنى المشارك فى المؤتمر.

وبعد تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية إثر اتفاق أوسلو، وبتنظيم انتخابات يناير ١٩٩٦، التى جاءت بياسر عرفات على قمة السلطة، بدا أن ثمة تغيرا فى شرعية التمثيل من الشرعية النضالية Legitimacy of Struggle إلى الشرعية الانتخابية Legitimacy of Election، غير أن تلك الأخيرة عانت من أزمة تمثيل أخرى داخل صفوف السلطة ذاتها؛ نتيجة ضغوط الإصلاح المزعوم، التى مارستها إدارة بوش الابن على عرفات، وكان هدفها البارز تعيين رئيس وزراء للسلطة الفلسطينية، وتفويضه صلاحيات التفاوض مع إسرائيل، فى ظل أدلجة الإدارة الأمريكية السابقة للصراع العربى الإسرائيلى من منظور الحرب على الإرهاب، ونجاح آلة الدعاية الإسرائيلية فى توصيف عرفات للرأى العام الأمريكى على أنه إرهابى، لا يصلح شريكا فى عملية السلام.

الأمر تغير بعد رحيل عرفات؛ إذ بوصول محمود عباس إلى مقعد رئاسة السلطة، اختفت الأصوات المنادية بتطبيق النظام البرلمانى فى السلطة الفلسطينية، وتم التعاطى مع عباس دوليا كممثل شرعى للفلسطينيين، إلا أنه مع فوز حماس فى الانتخابات التشريعية التى تم تنظيمها فى يناير ٢٠٠٦، وقيامها بتشكيل الحكومة الفلسطينية، عاد الجدل من جديد حول الاعتداد بالشرعية الانتخابية المستندة إلى اتفاق أوسلو - الذى ترفض حماس الاعتراف به - أم بشرعية منظمة التحرير الفلسطينية المستندة إلى نضالها التاريخى - الذى سبق مرحلة التسوية السلمية التى انخرطت فيها فتح.

وزاد من حدة ذلك الجدل الفساد الذى استشرى داخل منظمة التحرير، وبخاصة فى صفوف حركة فتح أكبر فصائلها، الأمر الذى عزا معه كثير من المراقبين نتائج الانتخابات التشريعية الأخيرة إلى معاقبة الشارع الفلسطينى لفتح، وليس إيمانه ببرنامج حماس. فى حين ذهب آخرون إلى أن الشعب الفلسطينى انتخب أبا مازن خلفا لأبى عمار أملا فى استمرار مسيرة عرفات، ولما رزئ بخيبة أمل نتيجة تعثر التسوية السلمية واستشراء الفساد الذى طال بعض أبرز وجود فتح المقربين من عباس، قرر الشارع الإتيان ببديل نظيف اليد، وإن كان أقل خبرة فى المعترك السياسى.

إسرائيل لم تنج أيضا من أزمة التمثيل، فبينما كانت النخبة التى أسست الدولة يسارية بالأساس، بدأ اليمين يكتسب قطاعات من الشارع الإسرائيلى، إلى أن تمكن تكتل الليكود من الفوز على حزب العمل فى الانتخابات العامة التى تم تنظيمها فى مايو ١٩٧٧ على خلفية الفضيحة المالية، التى اضطرت رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك إسحاق رابين الذى خلف جولدا مائير إلى الاستقالة والدعوة إلى انتخابات مبكرة.

وهذا يقودنا إلى ملمح آخر من ملامح أزمة التمثيل السياسى فى إسرائيل، وهو غياب الثبات الحكومى Governmental Instability، إذ غالبا ما يتوجه الناخبون إلى انتخابات مبكرة. فيما يعد ضريبة متوقعة لوجود إسرائيل محاطة بدول معادية، وعدم جدية الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة - إن لم يكن عدم سعيها - فى إنجاز تسوية للصراع العربى الإسرائيلى، على النحو الذى يوفر لإسرائيل الأمن الذى تنشده وتضل طريقه.

كما أن النظام السياسى فى إسرائيل تعرض لصفقات غير معهودة فى النظم الديمقراطية، كما حدث خلال الثمانينيات من تناوب إسحاق شامير (الليكود) وشيمون بيريز (العمل) على مقعدى رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية بالتبادل. ومع تباين التوجهات السياسية للرجلين، كان لابد أن يلقى ذلك بظلاله على خطوط السياسة الخارجية الإسرائيلية، ومن ثم على فكرة التسوية.

من جهة أخرى، فثمة أزمة للتمثيل فى الحالة الإسرائيلية، تماثل النزاع بين الشرعية الانتخابية وشرعية منظمة التحرير فى الحالة الفلسطينية، وهى النزاع بين الشرعية الانتخابية وشرعية المؤسسة العسكرية. فالجيش فى إسرائيل هو الذى أسس الدولة، ولم تقم الدولة بتأسيس الجيش كما فى الدول التى نشأ نشأة تاريخية طبيعية، الأمر الذى استتبع نفوذا متعاظما للمؤسسة العسكرية فى الحياة السياسية الإسرائيلية، رغم بقائه رسميا بعيدا عن الظهور فى المشهد العام فى إطار الديمقراطية البرلمانية التى ينتهجها النظام السياسى الإسرائيلى. كما أن ذلك النفوذ يبدو مستندا إلى تأييد من الشارع الإسرائيلى، الذى يرى فى الجيش حاميه من المحيط العربى، الذى يتم تصويره فى إسرائيل متربصا باليهود مستعدا للفتك بهم.

وعلى سبيل المثال، فسياسى مخضرم مثل شيمون بيريز، الذى يعتبر أبا للبرنامج النووى الإسرائيلى، واجه على مدى حياته السياسية صعوبات فى الوصول إلى مقعد رئاسة الوزراء عن خلال انتخابات عامة. وعلى الرغم من قيامه بعملية عناقيد الغضب فى لبنان عام ١٩٩٦، والتى كان من مآسيها البشرية مذبحة قانا الأولى، إلا أنه مع ذلك فشل فى تأمين أغلبية تسمح له بتشكيل الحكومة. غير أن الغريب أن الناخب الإسرائيلى، الذى دائما ما اعتبر بيريز ابنا غير شرعى للمؤسسة العسكرية، نأى باختياراته تماما تلك المرة عن تلك المؤسسة، واختار الدبلوماسى السابق بنيامين نتنياهو زعيم حزب الليكود رئيسا للوزراء.

ويعتبر رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق أرييل شارون بسجله اليمينى المتشدد آخر رجال إسرائيل الأقوياء، وباختفائه من الحياة السياسية، برز تساؤل حول مصير القيادة فى إسرائيل بعد غياب الآباء المؤسسين والقيادات التاريخية. ولعل أولى النكسات التى عانتها إسرائيل جراء ذلك كانت التورط فى حرب غير مدروسة مع حزب الله فى يوليو ٢٠٠٦، فى محاولة من القيادة الجديدة للظهور بمظهر الصقور، إلا أن تحطيم العين الإسرائيلية أسفر عن استقالة رئيس الأركان دان حلوتس، والإطاحة برئيس حزب العمل ووزير الدفاع عامير بيريتس، واضطرار رئيس الوزراء إيهود أولمرت إلى توسيع الائتلاف الحكومى ليشمل حزب إسرائيل بيتنا اليمينى، وزعيمه المتطرف أفيجدور ليبرمان، الأمر الذى شكل عامل تردد رئيس فى مواقف الحكومة الإسرائيلية الحالية، حيث إن تكتس



إسرائيل هى المتسبب الرئيس فى إيجاد أزمة المصداقية تجاه التسوية السلمية بعدم احترامها مبادئ القانون الدولى

إصرار الإسرائيليين على توجيه أصواتهم لصالح اليمين يعكس شعورا إسرائيليا عاما بضرورة الاحتكام إلى القوة فى مواجهة العرب

الهاجس الديموجرافى وراء الرفض الإسرائيلى لعودة اللاجئين، كما كان وراء عدم القبول بفكرة الدولة الواحدة العلمانية التى طرحها إدوارد سعيد

اليمين (إسرائيل بيتنا) واليسار (العمل) والوسط (كاديما) فى حكومة إسرائيلية واحدة اعتبر مفوضا لأية خطوة واسعة قد تتخذها بشأن التسوية السلمية.

فضلا عن ذلك، فالاتهامات الفساد التى لوثت سمعة الساسة الإسرائيليين أوجدت حالة من التآمر داخل الكنيست والحكومة الإسرائيلية ذاتها، بل وداخل حزب كاديما، الحزب الأكبر فى الائتلاف الحاكم، على النحو الذى سمح لأسماء جديدة بالظهور بمظهر المنافس كوزيرة الخارجية تسيبى ليفنى. وانتهى الأمر إلى تقديم أولمرت استقالته فى ٢١ سبتمبر الماضى، ومن ثم أضحت الحكومة الإسرائيلية الحالية حكومة تسيير أعمال، وبالتالى أرجئت التسوية إلى أجندة الحكومة الجديدة.

وقد انعكست أزمة التمثيل السياسى، لا سيما على الجانب الفلسطينى، وتأثرت بمجمل التفاعلات الإقليمية خلال المرحلة الراهنة. فالقيادات الفلسطينية أسهمت فى جعل قضية بلادها مزادا للتجاذبات الإقليمية الدولية، من خلال انقسامها الداخلى واستقوائها بالمحيط الخارجى فى خصومتها السياسية، الأمر الذى تبدى من انقسام الأنظمة العربية إلى ما يعرف بمحور الاعتدال ومحور الممانعة، الأول تقوده القاهرة، والآخر توجهه طهران، الأمر الذى ينحى مفهوم العالم العربى لصالح مفهوم الشرق الأوسط، الذى طالما رفضه العرب إبان المد القومى.

ودائما وكما اعتاد العرب من حروبهم المتكررة مع إسرائيل، فإن عدم سقوط النظام يعد مبررا مقبولا للحديث عن الانتصار، الأمر الذى عبر عنه خالد مشعل رئيس المكتب السياسى لحماس بعيد حرب غزة، متناسيا كم الدمار الذى أصاب غزة.

ثمة دور لا ينكر للمجتمعات - خاصة فى الدول الديمقراطية، وسواء كانت تلك الديمقراطية مكتملة أو ناقصة - وهو ما يدفعنا إلى القول بقابلية بعض المتغيرات الدولية للتفسير من المنظور السوسيوبوليتيكى. وفى هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، قد تبدو إسرائيل قريبة الشبه من الاتحاد السوفيتى السابق، الذى انفجر من الداخل؛ نتيجة تستر القوة العسكرية السوفيتية على كيان مجتمعى هش، وتشوش العقيدة القتالية لدى العسكريين، الذين ألقى بهم فى حرب طاحنة، استمرت عقدا من الزمن دون هدف محدد أو مصلحة حقيقية.

وفى الحالة الإسرائيلية، تبدو الخريطة الاجتماعية فسيفسائية متعددة الأطياف السياسية والإثنية والدينية والمذهبية، على نحو يستحيل معه الإجماع الوطنى إلا فى ظل خطر أمنى، الأمر الذى يشى باستمرار سيطرة المؤسسة العسكرية على الحياة العامة فى إسرائيل؛ انطلاقا من كونها الجهة الوحيدة القادرة على إيجاد التوافق المجتمعى المفقود، إلا أن تلك المؤسسة بدورها تعرضت لحالة من التخدير فيما بعد النتيجة الضبابية التى تمخضت عنها حرب يوليو مع حزب الله، وغياب مصداقية الأهداف التى ترسمها تلك المؤسسة؛ بسبب النتيجة التى تمخضت عنها حرب غزة مع حماس.

من ناحية أخرى، فهوية إسرائيل أصبحت مثار جدل داخل الأوساط السياسية والأكاديمية الإسرائيلية. فدولة الجيش الديمقراطية العلمانية الحاضنة ليهود العالم دخلت فى تيه فكرى، صاحبه تيه مجتمعى، أدى إلى ما يطلق عليه «الخروج الثانى» فى تعبير عن هجرة اليهود من إسرائيل.

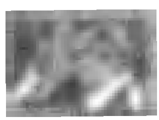
واستنادا إلى غياب القيادات التاريخية عن العمل السياسى الإسرائيلى، وكذلك غياب القيادة التاريخية للشعب الفلسطينى، ووجود أمر واقع قائم على كيانين منفصلين فى الضفة والقطاع؛ فلم يستطع الثنائى عباس - أولمرت القيام بإنجاز أية تسوية؛ نظرا لافتقادهما إلى تأييد شعبى حقيقى يقبل تقديم التنازلات. وإذا كان الأمر واضحا بالنسبة لأولمرت الذى قدم استقالته فى سبتمبر الماضى، وسيغادر مقر الحكومة الإسرائيليه وشيكا، فإن ملامح القيادة القادمة على الساحة الفلسطينية تبدو غائمة. فعلى الرغم من افتقاد عباس للكاريزما التى اكتسبها عرفات على مدى مشواره السياسى - رغم بعض أخطائه التقديرية التى كلفت الفلسطينيين الكثير - إلا أنه على ما يبدو باق فى مكانه، وسيتمكن من الفوز فى أية انتخابات رئاسية قادمة؛ حيث تبدو الساحة الفلسطينية خلوا من أية قيادات بالصف الثانى مرشحة لاستكمال التسوية السلمية بالاستناد إلى تأييد شعبى. فحتى حماس التى عول عليها الفلسطينيون لإنقاذ السلطة الوطنية من الفساد المستشرى مارست السلطة بنهج، عبر عنه الانقلاب الذى قامت به فى يونيه ٢٠٠٧. علاوة على ذلك، فبقية الفصائل الفلسطينية عدا فتح وحماس تبدو محدودة التأثير فى الشارع الفلسطينى، وبالتالى فلا يتوقع أن تفرخ قيادات قوية تحظى بالتوافق، رغم أن منها قيادات وطنية، لا يرقى إليها الشك.

بعض الأسماء يبدو أن ثمة توافقا فلسطينيا حولها، مثل مروان البرغوثى الذى يقبع خلف أسوار السجون الإسرائيلية، وثمة أنباء تتردد عن احتمال إطلاق سراحه. كما أن الدكتور مصطفى البرغوثى أصبح وجها معروفا، يحظى بالاحترام داخل أروقة النظام السياسى الفلسطينى، ويبدو ملما بقواعد اللعبة على الصعيدين الداخلى والدولى، إلا أنه مع ذلك لا يستند إلى قوة قطاع عريض من الشارع الفلسطينى.

ويغدو الحل للانقسام الداخلى الفلسطينى هو الاحتكام إلى صناديق الاقتراع للخروج من الحالة الضبابية التى نجمت عن تضارب الشرعيات، بإجراء الانتخابات التشريعية الفلسطينية مع الانتخابات الرئاسية خلال العام الجارى، حيث إنه فى ضوء اكتمال حلقتى العنف الداخلى (انقلاب حماس فى يونيه ٢٠٠٧) والخارجى (حرب غزة فى يناير ٢٠٠٩)، فمن المتوقع أن تكون اختيارات الشعب الفلسطينى أكثر وضوحا، على نحو يوجد تجانسا بين مختلف السلطات. فضلا عن ذلك، وإذا كان إصلاح السلطة الوطنية الفلسطينية مطلبا أمريكيا فى أواخر عهد عرفات، فإن إصلاح منظمة التحرير الفلسطينية يعد مطلبا فلسطينيا ملحا؛ فى سبيل إنهاء الازدواجية بين شرعية السلطة وشرعية المنظمة، وبما يمثل سائر القوى الفلسطينية، ويعبر عن موقف فلسطينى واحد إزاء التسوية.

ولكن التساؤل الذى يفرض نفسه هو هل ترغب الأجيال القادمة بالفعل فى السلام؟ وتتوزع الإجابة عن هذا التساؤل على أكثر من صعيد. فسيكولوجيا لا يبدو ثمة تقارب، بل على العكس، تمترس كل من الطرفين فى قلاع الأفكار اليمينية الدينية والقومية. وعلى الرغم مما يروج له الإعلام الغربى من رغبة الشعب الإسرائيلى فى التعايش بسلام مع جيرانه العرب، إلا أن إصرار الإسرائيليين على توجيه أصواتهم لصالح اليمين يعكس شعورا إسرائيليا عاما بضرورة الاحتكام إلى القوة فى مواجهة العرب، وعدم تقديم أية تنازلات من أجل إنجاح العملية السلمية. ولعل هذا يرتبط ارتباطا وثيقا بنشأة أجيال من الإسرائيليين داخل إسرائيل، ومن ثم اعتبارهم إياها وطنا، لا يجوز التفريط بجزء منه، رغم الشعور الدائم بالخطر الوشيك، والذى يدفع الكثير من الإسرائيليين إلى الاحتفاظ بجنسياتهم الأصلية، وربما اكتساب جنسيات جديدة، تحسبا للخروج الثانى الذى تناولناه آنفا.

فى المقابل، فالفلسطينيون منقسمون إلى فريقين: فلسطينيو الداخل، وهؤلاء شعروا بالفعل بالإنهاك جراء ما ذاقوه من صنوف العسف من خلال الحصار والتجويع وما صبته عليهم الآلة العسكرية الإسرائيلية من حمم، فضلا عما نشب بينهم من صراع دام على السلطة. أما فلسطينيو الخارج، فأغلبهم تمكن من شق طريقه فى البلدان التى استقروا بها، ومن ثم لا تمثل لهم العودة إلى ديارهم سوى



الجيش فى إسرائيل هو الذى أسس الدولة، ولم تقم الدولة بتأسيس الجيش كما فى الدول التى تنشأ نشأة تاريخية طبيعية

باختفاء شارون من الحياة السياسية، برز تساؤل حول مصير القيادة فى إسرائيل بعد غياب الآباء المؤسسين والقيادات التاريخية

قيمة رمزية، ليس إلا. واستنادا إلى ذلك، فليس ثمة من يملك قرارا بتقديم تنازلات بالنيابة عن الشعب الفلسطيني، متحملا في ذلك مسؤوليته امام التاريخ.

ويبرز هنا التباين بين رؤيتين لمستقبل تسوية الصراع العربي الإسرائيلي: إحداهما تقوم على تجميد عملية السلام، وهو ما كان قد تناوله ريتشارد هاس مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs في سبتمبر ١٩٩٦؛ استنادا إلى عجز أطراف الصراع العربي الإسرائيلي عن تقديم تنازلات حقيقية. وقد التقت أصوات عربية مع ذلك الرأي، خاصة تلك الرافضة لعملية التسوية السلمية والمنادية باستمرار النضال المسلح ضد إسرائيل.

ويبدو أن إدارة بوش الابن قد فضلت ذلك الخيار، تفاديا للانزلاق إلى محاولات غير موفقة للتسوية على نحو ما تمثل في مفاوضات كامب ديفيد ٢٠٠٠، التي رعتها إدارة كلينتون، غير أن أحداث ١١ سبتمبر استرعت انتباه الأمريكان إلى المنطقة أكثر من ذي قبل؛ الأمر الذي دفع الإدارة الأمريكية السابقة إلى طرح خريطة الطريق، متضمنة رؤيتها لحل الدولتين؛ في محاولة لإبقاء شيء من الحياة في العلاقات مع الأطراف العربية بالتوازي مع غزو العراق عام ٢٠٠٣؛ إلا أنه نظرا لما أبدته تلك الإدارة من عدم جدية في هذا الصدد، فقد دعت توصيات مجموعة دراسة العراق Iraq Study Group، والتي عرفت بلجنة بيكر - هاملتون، الإدارة الأمريكية إلى ضرورة معالجة الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره أساس أزمة الشرق الأوسط.

ومع اندلاع حرب غزة، فقد بدا جليا أن إسرائيل ما زالت تقدم لغة القوة على لغة الحوار، وبدا أن الآثار السيكولوجية للحرب لا تنبئ بقبول المفاوض الإسرائيلي تقديم تنازل، كما تتجاوز قدرة المفاوض الفلسطيني على تقديم مثل ذلك التنازل، الأمر الذي تختلف معه الرؤية الأخرى لمستقبل التسوية، والتي تعتبر أن الصراع قد وصل إلى درجة من النضج، مثلتها حرب غزة، بما يجعل أطراف الصراع أكثر رغبة في تسويته.

ومع الاعتقاد السائد بأن وجود حكومة يمينية في إسرائيل سيؤدي إلى تعثر عملية السلام، الأمر الذي خبرته تلك العملية إبان عهد نتنياهو (١٩٩٦-١٩٩٩)، فقد تبدو الرؤية من زاوية أخرى مختلفة تماما؛ إذ أن الخبرة التاريخية أثبتت أن الحكومة الإسرائيلية الوحيدة التي تمكنت من التوصل إلى معاهدة سلام جريئة مع العرب كانت حكومة الليكود بقيادة مناحم بيجن؛ وذلك نظرا لما لدى اليمين الإسرائيلي من رصيد من التشدد لدى الإسرائيليين، بما يستبعد اتهامه بالتخاذل في حال توصله إلى مقاربة للسلام، على العكس من الحكومات التي ليس لديها مثل هذا الرصيد كحكومة أولمرت، التي اضطرت إلى خوض مغامرتين في لبنان ضد حزب الله وفي غزة ضد حماس من أجل ترميم نظرية الردع والظهور بمظهر الصقور، كما أسلفنا.

واستراتيجيا، فقد يبدو مستبعدا تورط إسرائيل في معارك فرعية لمدد طويلة خلال المرحلة المقبلة؛ بالنظر إلى استعدادها لمواجهة ما مع إيران، ما يدفع إسرائيل إلى التمسك بالتهدئة مع الفلسطينيين في حال التوصل إليها، الأمر الذي بالإضافة إلى كونه يساعد على الحد من تصعيد الصراع العربي الإسرائيلي من جهة، فإنه من جهة أخرى قد يدفع إسرائيل إلى اجتراح مقاربة لإبرام تسوية مع سورية؛ بغية إفساح الطريق بين تل أبيب وطهران.

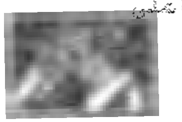
وبوجه عام، فإن أية تسوية قادمة ستجد إشكالية في تحديد المرجعية التي ستستند إليها، إلا أن أيا من المرجعيات التي سيتم اعتمادها لن تتضمن خريطة الطريق التي ولدت مشوهة الملامح، وإن كان حل الدولتين قد لاقى ما يشبه التوافق حوله. وقد يكون وجود إدارة ديمقراطية في البيت الأبيض مؤشرا إلى إمكانية العودة إلى مرجعية مدريد، التي وضعت في أواخر عهد بوش الأب، وبنيت عليها مبادئ التسوية خلال التسعينيات، والتي تتضمن قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ومبدأ الأرض مقابل السلام. كذلك، فقد يكون ثمة حديث عن المضي على نهج أوسلو، واستكمال مراحل تطبيقها، إلا أنه من المتوقع أن تحاول إدارة أوباما الإتيان بجديد يرسم خطا بين مقاربتها ومقاربة إدارة كلينتون، الأمر الذي يلقي على عاتق العمل الدبلوماسي مهمة التحرك للحفاظ على سقف المطالب الذي تؤمنه أركان مرجعية مدريد الثلاثة.

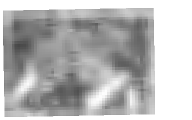
وعلى الرغم من التوافق السياسي حولها، إلا أن ثمة أصواتا ترى أن فكرة الدولتين تبدو اليوم غير قابلة للتطبيق؛ استنادا إلى كونها نشأت لخلق كيان يقوم بدور مستودع للتضخم الديموجرافي الفلسطيني، يفتقد إلى الأركان التقليدية لقيام الدولة في القانون الدولي. فالدولة الفلسطينية المنتظرة مفتقدة إلى الاستداد الجغرافي؛ نظرا لتخللها بالمستوطنات الخاضعة للسيادة الإسرائيلية، كما أن السلطة ذات السيادة التي من المفترض أن تقوم ببسط سلطانها على تلك الدولة لا تستطيع من الناحية العملية ممارسة تلك السيادة؛ نظرا لعدم امتلاكها لمقومات الدفاع، وبالتالي اعتمادها على الحبل السري الذي يربطها بالدولة القائمة من الناحية الواقعية، والتي تحتل الأراضي التي من المفترض أن تقام الدولة الفلسطينية عليها.

ومن ثم تستلهم تلك الأصوات، في المناداة بخيار الدولة الواحدة الديمقراطية لجميع أبنائها، التجربة التاريخية على غرار التسوية التاريخية للتمييز العنصري بجنوب إفريقيا. ويمثل هذا الحل تسوية سوسيوبوليتيكية للصراع، كانت أطروحات تسويته في الغالب تدق ناقوس الخطر بالنسبة للاجئين الفلسطينيين، وحقهم في العودة. كما أن هذا الطرح يمثل ضمانا لاندماج الإسرائيليين في المنطقة من خلال تمتعهم بحق المواطنة في دولة تتمتع بعلاقات طبيعية مع جيرانها.

ربما يكون من مزايا حرب غزة أنها قفزت بالتسوية في الشرق الأوسط إلى مقدمة أولويات الإدارة الأمريكية، الأمر الذي اتضح من زيارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما خلال اليوم الثاني لممارسته مهام منصبه إلى مقر الخارجية الأمريكية، وتعيين جورج ميتشيل مبعوثا خاصا للشرق الأوسط. كما أكد أوباما في حديثه لقناة العربية في ٢٦ يناير الماضي على أنه لن ينتظر إلى نهاية ولايته للتعامل مع السلام الفلسطيني الإسرائيلي، بل سيبدأ على الفور.

إن ستين عاما من الصراع كفيلة بجعل الشعوب تعيد النظر في أسبابه، وتبحث جديا عن أسباب للالتقاء والتفاهم، تسهم في بناء السلام، والانطلاق إلى آفاق التنمية. غير أن استمرار الصراع في الوقت ذاته يولد حالة من الاستنفار المستمر؛ تدفع إلى رسم أبعاد سوسيولوجية بل وسيكولوجية للصراع، وبالتالي إيجاد فرصة ذهبية للمتطرفين من جميع الأطراف لتوجيهه على النحو الذي قد لا يكون في مصلحة أي منهم. إن إدراك أن القوة لن تكون الوسيلة الناجعة لحسم الصراع سيكون أول مفاتيح التعاطي معه من أبعاد جديدة واكتشاف آفاق للتسوية بعيدا عن لغة السلاح. ●





الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، جعل الرأي العام العربي يذهب إلى أن إسرائيل لا تقدم تنازلات إلا إذا ووجهت بقوة السلاح

إيفاد جامعة الدول العربية لوفد إلى إسرائيل في يوليو ٢٠٠٧ اعتبر قناة اتصال بين إسرائيل والنظام الإقليمي العربي على الصعيد الرسمي

---

(١) هذا لا يتنافى مع اعتقاد الثقافة في مصر إلى تراث متراكم من العصور التي سبقت الفتح الإسلامي واستقرار العرب في مصر، وذلك نتيجة ظهور مصر (كحالة خاصة في العالم العربي) كدولة ذات سيادة منذ قيام مينا (نارمر) بتوحيد القطرين.

(٢) تتبع مواقع التراث العالمي الثقافي والطبيعي الاتفاقية الدولية لصون التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة التربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو) عام ١٩٧٢، في حين تتبع محميات المحيط الحيوي برنامج الإنسان والمحيط الحيوي (الماب) (Man and Biosphere (MAB)، والتي كانت اليونسكو قد افتتحته عام ١٩٧١.



مهمتى فى إسرائيل!

سعد مرتضى



سعد مرتضى مع شارون على طاولة عشاء

** كيف استقبلوك فى إسرائيل؟ كيف تعاملت معهم وكيف عاملوك؟ أسئلة كثيرة من هذا النوع كان أصدقائى ومعارفى فى مصر، ومن العالم العربى، يوجهونها إلىّ، ويضيف البعض.. لا بد أن المهمة كانت شاقة.. فالمعروف عن اليهود أنهم متشددون وفيهم خشونة...

وكما قلت فى البداية كانت هذه الأسئلة تنم عن التعطش لمعرفة الكثير عن هذه الدولة وهذا الشعب الذى باعدت بيننا وبينه الحروب المتواصلة فى السنوات الماضية. كما تدل على الرغبة الملحة فى معرفة ما إذا كان هؤلاء الذين سالمناهم - رغم كل العقبات والصعاب - يبادلوننا مشاعرنا، ورغبتنا فى السلام.

والإجابة على ذلك تستلزم شيئا من التفصيل قد لا يكون هنا مجاله. ولكن الذى لا شك فيه أن المجتمع أو الشعب اليهودى بأسره يود أن يعيش فى سلام مع الدول العربية المحيطة به.. إنها ليست فقط رغبة، بل هذه أمنيته التى يأمل أن تتحقق ولو بعد سنين طويلة.. وهل يوجد شعب لا يريد السلام.. ألا يريد العرب بدورهم أن يعيشوا فى سلام؟ ولكن ثمن السلام هو الذى نختلف عليه.. فالعرب يريدون استعادة حقوقهم فى فلسطين ويتمسك شعب إسرائيل، ليس فقط بما يؤمن به من تاريخ ودين وحقه فى «أرض إسرائيل» بل وأيضا بنتائج الانتصارات العسكرية التى حققها.. العرب يريدون استرداد كل الأرض والممتلكات المفقودة، وإخراج قوات «العدو الصهيونى» من أرضهم.. من خلال أعمال المقاومة والفدائيين الذين يسمونهم فى إسرائيل إرهابيين.. ومن خلال المفاوضات غير المباشرة تحت مظلة دولية.. وعن طريق المؤتمرات الدولية التى تحضرها الدول الكبرى.. ولكنهم فى إسرائيل يريدون الاحتفاظ بكل، أو ببعض، المكاسب مقابل السلام.. والسلام الدافئ الذى يتضمن تطبيعا كاملاً للعلاقات، وإلا فإن قواتهم المسلحة قادرة على فرض السلام «البارد».. مع بعض التضحيات!!

أعود بعد ذلك إلى المجتمع الإسرائيلى، وكانت أول فرصة لى للالتقاء مع أعداد كبيرة من الإسرائيليين خلال حفل أقامته جمعية «آل سام» التى تكافح انتشار المخدرات فى المجتمع، وتلقيت دعوة من السيدة سالى لويس حرم السفير الأمريكى صمويل لويس، وأقيم الحفل فى القاعة الكبرى للاحتفالات فى فندق هيلتون تل أبيب، وبلغ عدد الحاضرين أكثر من خمسمائة شخص.. وكان قد مضى أسبوع واحد على وصولى إلى إسرائيل.

ولم أكد أقترب من مدخل القاعة حتى تدافع الكثيرون نحوى بعد أن تعرفوا علىّ من الصور التى نشرتها الصحف والتليفزيون. ومن رجال الأمن الإسرائيلى المحيطين بى، كلهم يمد يده ويريد مصافحتى.. وتجاذبنى عدد آخر ليعبر عن سروره وترحيبه بسفير السلام.. وقدم البعض نفسه على أنه من مواليد القاهرة.. لقد عاشوا فى مصر قبل الهجرة إلى إسرائيل وكانت مصر طفولتهم وصباهم وحياتهم السعيدة الأولى قبل أن يتفجر الصراع العربى الإسرائيلى وخاصة بعد سنة ١٩٦٧.

لقد فاق هذا الترحيب ما كنت أتصور، وتأثر بعض هؤلاء اليهود المصرى المولد، وأذكر أن رجلاً متقدم السن منهم تشبث بذراعى إذ غلب عليه الانفعال حتى جذبته ابنته برفق بعيداً عنى.. كنت بالنسبة لهم حلما تحقق!

ودخلت إلى القاعة واتخذت مكانى على مائدة طويلة ضمت السفير الأمريكى وزوجته، وجلست عن يمينى السيدة «آراما خنيس» رئيسة الجمعية فى ذلك الوقت، وجلس معنا بعض زملائى فى السفارة المصرية وآخرون من أفراد المجتمع الإسرائيلى.. ولم أكد أجلس حتى أحاط بى عدد كبير من المدعوين وقفوا خلفى، كلهم يريد أن تؤخذ له ولأسرته أو أصدقائه صورة معى (ولا شك أنها كانت فرصة مربحة للمصور الذى كان يحمل كاميرا «بولارويد»)، ويتقدم كل منهم بصورته.. حتى أوقعها على سبيل

للاستزادة:

مهمتى فى إسرائيل

سعد مرتضى

القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٨ - ٢٣٤ صفحة

لقد أمضيت سنوات طويلة فى خدمة السلك الدبلوماسى المصرى قبل سفرى إلى إسرائيل، ولم أر خلالها مثل هذا الترحيب وتلك الحفاوة بأى شخص آخر..

التذكارا ولا أذكر عدد الصور التى وقعتها ولكن حرم السفير الأمريكى قالت إننى لا بد وقعت ما يقرب من مائة صورة فى تلك الأمسية!

كانت الحفاوة والترحيب غير عاديين، وخلال الحفل أشار مقدم البرامج إلى وجودى، وصفق الحاضرون إعرابا عن فرحتهم بالسلام مع مصر، وطلب منى إلقاء كلمة قصيرة فعبرت عن شكرى وتقديرى لهذه الحفاوة البالغة التى اعتبرتها دليلاً على ترحيبهم بالسلام بين مصر وإسرائيل، وقلت إننى أعتبر شخصى تجسيداً لهذا السلام.

لقد أمضيت سنوات طويلة فى خدمة السلك الدبلوماسى المصرى قبل سفرى إلى إسرائيل، ولم أر خلالها مثل هذا الترحيب وتلك الحفاوة بأى شخص آخر.. ولم يقتصر ذلك على تلك الحفلة بل إننى كلما دخلت مطعماً يتعرف الحاضرون علىّ ويعرض صاحبه أحياناً أن أكون ضيفه وأعتذر شاكراً، وأذكر أننى دخلت مطعم فندق هيلتون تل أبيب فى صحبة وفد من الصحفيين المصريين للعشاء، وصفق الحاضرون عند رؤيتى، مما أدهش الصحفيين وجعلوا يتساءلون عن سبب ذلك الاهتمام وتلك الحفاوة.. وربما كان فيما تقدم إجابة شافية لمن سألنى كيف استقبلنى شعب إسرائيل، ولقد تكررت مظاهر الترحيب، وكنت أشعر بهذا «المركز المتميز» طيلة فترة عملى فى إسرائيل.

وكان ذلك الاهتمام بسفير مصر يبدو حتى فى الشارع، عندما تتوقف سيارتى عند أضواء المرور، فيحدق أصحاب السيارات المجاورة لى ويحيوننى، وترفع بعض الأمهات أطفالهن ليشاهدوا سفير مصر، وكأن هؤلاء الأطفال يدركون أهمية ذلك.. ولكنها الفرحة الشعبية العامة فى إسرائيل بالسلام مع مصر.. لقد أصبحت إسرائيل أخيراً «مقبولة» من أكبر دولة عربية مجاورة.

كذلك حرص الكثيرون على التعرف بى كلما أتيحت لهم الفرصة.. ودعيت إلى منازل كثيرة وكنت ألبى الدعوات كلما أمكن، حتى أتعرف من خلال لقاءاتى على هذا المجتمع الذى يريد أن يبدد الصورة السابقة عنه فى أذهان المصريين من أنه «العدو الصهيونى».. ولقد حرص كثيرون على دعوتى إلى مصانعهم أو المتاجر الكبرى والمستشفيات ودور الصحف.. وتعرفت خلال هذه اللقاءات على عدد كبير من الإسرائيليين.

وكان طبيعياً أن تنشأ صداقات بينى وبين بعض الأفراد أو العائلات فى إسرائيل، بعيداً عن مجال العمل الرسمى، ومع ذلك كانت بعض الأحاديث تتعرض لنواح سياسية أحياناً، لأن الشعب هناك، مثل سائر الشعوب الواعية، يهتم بكل ما يدور حوله.. كنت أرى بعض شباب هذه الأسر يميل إلى التطرف، ويؤيد أحزاباً مثل «هتحيا» التى تعارض التخلى عن سيناء والمستوطنات حتى بعد السلام.. إن تطرفهم الدينى أو السياسى يدفعهم أحياناً للاعتقاد بأن سيناء ليست مصرية.. وأن إسرائيل استولت عليها فهى لها «بحق الفتح»! ولم تكن كثير من الأسر تشارك أبناءها تطرفهم بل كانت سعيدة بالسلام وترى فى إعادة سيناء لمصر ثمناً معقولاً، وتتمنى لو تم السلام مع الدول العربية الأخرى ولو بثمن مماثل!!



كنت أشعر بهذا «المركز المتميز» طيلة فترة عملى فى إسرائيل

مع اليهود فى أعيادهم

كنت لا أزال مقيماً فى فندق هيلتون تل أبيب عندما حان عيد الفصح فى شهر إبريل سنة ١٩٨٠، وفى المساء شاهدت زحاماً غير عادى، والرجال والنساء يرفلون فى أفخر ملابسهم، ويحرصون على الاحتفال بعيد من أهم أعيادهم، ويحضر الكثيرون ممن يقيمون خارج إسرائيل لزيارة أهلهم وأقاربهم فى هذا العيد الذى يحيى ذكرى «العبور Poss Over»، عندما عبر موسى بقومه من مصر إلى سيناء. ويحتفل اليهود فى هذا العيد بتحررهم من «العبودية التى فرضها فرعون مصر على بنى إسرائيل»، كما تقول صلواتهم فى كتاب «الهاجاداه»، وبعد أربعين عاماً فى شبه الجزيرة المصرية، وصلوا إلى أرض الميعاد. لكن موسى لم ير هذه الأرض أبداً، لأن الله لم يكن راضيا عنه تماماً.

فى هذا العيد دعانى المستر شيمون بيريز، رئيس وزراء إسرائيل الحالى وكان فى ذلك الوقت زعيماً لحزب العمل المعارض، لحضور الحفل فى مسكنه، وهو شقة تتضمن وسائل الراحة مع البعد عن أى ترف. واجتمعت أسرته كبارا وصغارا حول مائدة طويلة وضع عليها طعام خاص بالغ التقشف ومذاقه لا يشجع على الإقبال عليه بشهية، حتى يذكرهم بأيام المعاناة التى مروا بها قبل الخروج من مصر. (ويأكلون خبزاً خاصاً غير متخمر يسمى «الماتزا»...).

وتلا رب البيت جزءاً من كتاب «الهاجاداه» الذى يروى قصة الآلام التى عاناها اليهود على أيدى «المصريين»، ثم طلب إلى أحد أفراد الأسرة أن يقرأ جزءاً آخر وهكذا حتى يشترك الجميع فى القراءة، وينشدون بين القراءة والأخرى فقرات تكرر تلاوتها.. وكرب بيت مجامل اعتذر لى المستر بيريز عما فى تلك الصلوات من إساءة للمصريين وقلت له إننى لا أمثل مصر الفرعنة، ولكننى أمثل مصر الحديثة! ولاحظت أن جميع الحاضرين من الذكور يضعون على رءوسهم غطاء الرأس اليهودى المعروف باسم «الكيبا»، كما تقضى التقاليد اليهودية فى كل المناسبات الدينية.. وفى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف رسماً كاريكاتورياً يمثل المستر بيريز وعلى رأسه الكيبا.. ويمثلنى إلى جواره وعلى رأسى «الهرم» على شكل «كيبا»!!

وفى عيد رأس السنة العبرية، أقام رئيس الدولة إسحاق نافون الحفل السنوى المعتاد، ودعا إليه رؤساء البعثات الدبلوماسية، وألقى عميد السلك الدبلوماسى، وكان سفير دومنيكا، كلمة باسم زملائه، تحية لرئيس الدولة وللشعب الإسرائيلى فى هذه المناسبة، وأجابه رئيس الدولة بكلمة شكر وأشار خلالها إلى أن هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها سفير مصرى هذا الحفل.

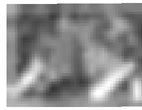
ثم مر رئيس الدولة أمام السفراء لمصافحتهم وتوقف عند بعضهم ليدلى بكلمة تنم عن تقديره، وتوقف أمامى وكلفنى أن أبلغ الرئيس السادات تحياته.

كان ممثلو الإعلام الإسرائيلى ينقلون هذا الحفل إلى الجمهور وطلبوا أن أوجه كلمة تهنئة لشعب إسرائيل بمناسبة العام العبرى الجديد سنة ٥٧٤٢ (والمفروض أن هذا هو عدد السنين التى مضت منذ خلق الله آدم)[١]، وهو عيد دينى يحتفلون فيه بالصلوات فى المعابد وينفخون فيه فى «الشوفار» وهو نفير من قرون الكباش.

ويرتبط يوم كيبور (عيد الغفران) فى ذهنى بذكرى حرب أكتوبر.. وفى أول عيد للغفران قضيته فى إسرائيل شاهدت الكثيرين يصومون عن الأكل والشرب لمدة ٢٤ ساعة، من مغرب اليوم السابق حتى غروب شمس يوم كيبور. وعرفت أن التعاليم اليهودية تعتبر الليل سابقاً للنهار، ويحسبون الشهور وفقاً للنتيجة القمرية. ويتوجه اليهود إلى المعابد سعياً على الأقدام، ويضع الرجال على مناكبهم «الطاليت» وهو عبارة عن شال أبيض عليه خطوط سوداء. ويمتنع على الجميع فى إسرائيل، (بمن فى ذلك غير اليهود) استخدام السيارة، وإلا تعرض المخالف للقذف بالحجارة، باستثناء سيارات الخدمة العامة مثل الشرطة والإسعاف والحريق.

وأذكر أننى فى السنة الثانية لوجودى فى إسرائيل، وفى عيد الغفران، اضطررت للتوجه إلى السفارة التى تبعد كثيراً عن دار السكن، فما كان من حراس الأمن الإسرائيليين إلا أن وضعوا مصباحاً أزرق مثل مصابيح سيارات الشرطة، فوق سيارتى، وهكذا تمكنت من الوصول إلى السفارة وأداء عملى فى يوم الغفران.

ويحتفلون فى شهر ديسمبر بعيد النور أو «الهانوكا» إحياء لذكرى انتصار «جوداس مكابيوس» على أنطاكيوس الرابع «السورى» وإعادة بناء المعبد فى القدس سنة ١٦٥ قبل الميلاد، ويستمر العيد ثمانية أيام، يشعلون خلالها «المينورا» وهى شمعدان ذو ثمانية فروع، رمزاً لمعجزة تروى اشتعال مصباح زيت صغير لمدة ثمانية أيام.. وقد اختارت إسرائيل شعار «المينورا» الذى يوضع على كل أوراقها الرسمية.. كما يحتفلون بعيد «البوريم»



الذي يرمز لذكرى خلاص اليهود من المذابح على يد الآشوريين في إيران ويتلون فيه كتاب «استر» التي خدعت زعيم الفرس وخلصت شعبها.. كما يرتدون ملابس تنكرية.

أما عيد «السوكوت» أو عيد الأسواق، الذي يرمز للاحتفال بجني المحاصيل الزراعية فيتوجهون بالشكر لله على ذلك، وتقيم كل أسرة خيمة من الخوص، يضيئها البعض ليلا بمصابيح، ويفرح الصغار بهذا العيد ويقضون أوقاتا طويلة في خيمتهم، ملوحين بالسعف الذي يذكرهم بالخيام التي أقاموها في سيناء بعد خروجهم من مصر وقبل وصولهم إلى «أرض إسرائيل».. وفي نهاية الأيام السبعة للعيد، يحتفلون «بفرحة التوراة» رمزا للانتهاء من قراءة التوراة.

ولليهود من شمال إفريقيا عيد خاص يسمى «الميمونا» نسبة إلى الفيلسوف اليهودي المغربي المعروف «ابن ميمون» وقد دعيت في السنة الأولى لوجودي في إسرائيل إلى هذا العيد الذي يحتفلون به في القدس (وفي أماكن أخرى) حيث تجتمع حشود من يهود شمال إفريقيا في حديقة واسعة يقيمون فيها الخيام، ويطهون المأكولات على طريقة أهل المغرب، ويستمعون إلى موسيقاهم فرحين بهذا العيد وفي هذا الحفل حضر رئيس الوزراء السابق المستر بيجين مجاملة ليهود المغرب إذ كان يهتم بالحصول على أصوات السفارد في الانتخابات المقبلة وقتها، وجلس رئيس الوزراء الأسبق على المنصة العالية المعدة له وأجلسني إلى يمينه، وبين هتافات الجماهير له وللسلام طلب مني المستر بيجين أن أوجه لهم كلمة باللغة الفرنسية، فارتجلت كلمة لتهنئتهم بعيد الميمونا، وتعالت هتافاتهم بحياة مصر والسلام والرئيس السادات، ثم قدموا لرئيس الوزراء جلبابا وطربوشا مغربيا إعرابا عن تقديرهم وتأييدهم له.

تل الربيع

كنت أتردد يوميا طوال مدة عملي في إسرائيل بين مكاتب السفارة الواقعة في شارع «بازل» في وسط مدينة تل أبيب، وبين ضاحية كفارشمرياهو حيث تقع الدار التي أسكنها. ولم يكن تعداد سكان تل أبيب يزيدون عن سبعمائة ألف، ولكن شوارعها النظيفة كانت تنبض بالحياة والحركة والنشاط.. فالمقاهي والمطاعم على جوانب الشوارع تزخر بالرواد من الإسرائيليين والسائحين الأجانب، وفي هذه المدينة الصغيرة توجد المطاعم التي تقدم المأكولات من مختلف بلاد العالم: مطاعم فرنسية وإيطالية.. وأخرى روسية أو مجرية.. إضافة إلى المطاعم الصينية. وكنت أتردد بصفة خاصة على المطعم الصيني القريب من منزلي، وكثيرا ما كان صديقي موريس تبين، وهو من رجال الأعمال الذين عاشوا صباهم في مصر واحتفظ بالجنسية البريطانية، يدعوني للغداء معه في أحد المطاعم الصينية أو الفرنسية.. ومن بين الأطباق اليهودية التي لم أستسغ طعمها «الجفلته فيش» وهي سمك أعد بطريقة يهود شرق أوروبا.

والمحلات التجارية كانت مليئة بالسلع المحلية والمستوردة، إذ لم تكن إسرائيل في ذلك الوقت تفرض قيودا على الاستيراد لكنها كانت ترفع الجمارك على السلع المستوردة بنسبة تجعل المستهلك يفضل ما يقابلها من سلع محلية إن وجدت.

والمكتبات كثيرة في المدينة ومن أشهرها مكتبة «ستيماتسكى» ذات الفروع العديدة في تل أبيب وغيرها من مدن إسرائيل، التي تضم كل أنواع الكتب بكل اللغات المتداولة. ويقبل الشعب الإسرائيلي كثيرا على الاطلاع والقراءة، كل يختار الفروع المحببة إلى نفسه أو التي تفيده في عمله. أما المعارض الفنية (الجاليري) للرسوم والتماثيل المنحوتة والتحف القديمة فكثيرة ولها مستويات فنية مختلفة، والكثير منها ذو مستوى فني عال يتمشى مع أسعارها. ويقبل الناس على الاستماع إلى الموسيقى سواء كانت الأغاني الحديثة أو الألحان الكلاسيكية الخالدة.. وفي قلب تل أبيب يوجد مركز ثقافي كبير يضم قاعات كبيرة تعزف فيها فرقة الفيلارسونيك بقيادة شخصيات إسرائيلية أو عالمية معروفة مثل نيكاسزوكرمان وزوبن مهتا وتعرض الأفلام الهامة أو تقام المعارض الفنية المتنوعة. وقد شاهدت أحد الأفلام التي أخرجها بولانسكي، المخرج البولندي الأصل والذي يعيش في فرنسا، وذلك في حفل خاص حضره بنفسه وحضرته معه الممثلة الأولى، ودعي إليه مسئولون من إسرائيل من بينهم دكتور إلياهو بن إليسار (سفير إسرائيل الأول في مصر) كما دعيت لحضور هذا الحفل، وتحدث بولانسكي عن الأيام التي كان اليهودي يلقى الإهانات في بولندا لأنه يهودي، وأبدى سعادته لوجوده الآن في إسرائيل.

أما المسرح، وصناعة السينما في إسرائيل، فلم يصلا بعد - في رأيي - إلى التقدم والتفوق الذي حققته الموسيقى.. وتوجد أكثر من مدرسة لرقص الباليه الكلاسيك والمودرن، وقد حققت هذه الجهود الفردية مستويات فنية متفوقة، وزرت بعضها وأعجبت بما يبذلونه من جهد تقدره الجماهير.

والناس يسيرون في شوارع تل أبيب دون اهتمام كبير بأناقة مظهرهم، فالزي الأوروبي رداء الجميع، ويرتدي كل فرد ما يريحه ويناسبه. في الصيف يرتدون القميص والبنطلون الطويل أو القصير، والسيدات أيضا يرتدين ملابس الصيف التي تكشف عن الكثير، مما يتباين بشدة مع ملبس السيدات في الدول العربية المجاورة. ولا يلتفت أحد هناك إلى تلك المناظر فقد ألفتها عيونهم ولم تعد تجد فيها ما يلفت النظر أو يدير الرءوس.

مشيت مرات قليلة في شارع «ويزنجوف» وهو مركز النشاط التجاري في وسط المدينة. كما مررت كثيرا في شارع «هايركون» - المسمى باسم النهر الصغير الذي يخترق تل أبيب - والشارع الأخير يمتد بحذاء شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وشاهدت الشباب يسيرون عليه صيفاً بملابس الاستحمام أحيانا.. ولكن الشتاء بارد نسبيا ويرتدون الملابس المناسبة لهذا الفصل ويدفئون المنازل مستخدمين أجهزة التدفئة بالطاقة الشمسية بكثرة تسترعي النظر، ولا يقتصر هذا على تل أبيب وحدها. بل تنتشر كذلك في كل مدينة أو قرية في إسرائيل، اقتصادا في الطاقة.. إن منظر هذه الأجهزة فوق كل المساكن تقريبا مما تتميز به إسرائيل!

لقد تحرروا في إسرائيل - صيفا - من الجاكتة ورابطة العنق، حتى وزارة الخارجية الإسرائيلية وزعت منشورا على السفارات الأجنبية يعفي الدبلوماسيين من ارتداء رباط العنق صيفا عند مقابلة الرسميين في الوزارة. وأعتقد أن شخصين فقط في إسرائيل لم يخلعوا رباط العنق في عز الصيف.. إنهما رئيس الوزراء السابق المستر بيجين ووزير الداخلية الأسبق (ووزير الأديان الآن) الدكتور يوسف بورج.

وفي الشهور الأولى عقب وصولي إلى إسرائيل، لم يكن من اليسير أن أتجول على قدمي في شوارع المدينة دون أن يلفت ذلك أنظار الكثيرين، وخاصة بسبب حراس الأمن الذين كانوا يرافقونني في كل مكان.. والمواطن الإسرائيلي يعبر عن مشاعره في بساطة وتلقائية، فكان بعضهم يتقدم نحوي مادا يده لمصافحتي قائلا إنه مواطن إسرائيلي «بسيط» يريد أن يحيي سفير مصر إعرابا عن سروره وتقديره للسلام وللرئيس السادات، وكان البعض يطلب توقيعي لأنه من هواة جمع التوقيعات.

ولقد أصدرت إحدى الهيئات في إسرائيل مظروفا وضعت عليه صورة سفيري مصر وإسرائيل على شكل طابع بريد وذلك بمناسبة مضي عام على تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين. وكان الكثيرون يحرصون على الحصول على توقيع السفيرين على ذلك المظروف.

ولاحظ الكثيرون أن وسائل الإعلام في إسرائيل تنشر عني الكثير، بل إن بعضهم ذهب إلى حد القول بأن سفير مصر الجديد أصبح محل الاهتمام الصحفي أكثر من السفير الأمريكي.. وكان هذا في نظرهم منتهى الإطراء لأن السفير الأمريكي في إسرائيل أهم من أي سفير آخر، بل ومن أهم الشخصيات بصفة عامة، بسبب المركز الممتاز الذي تحتله أمريكا في إسرائيل.

وقد أثار ذلك حساسية عدد من الإسرائيليين الذين ساءهم أن يحصل سفير مصر على هذا الاستقبال والترحيب، في الوقت الذي لا يلقى فيه سفيرهم في القاهرة معاملة مماثلة. كان الدكتور بن إليسار يتمكن من مقابلة الرسميين فقط.أما المجتمع القاهري فقد قاطع السفير تقريبا واعتذر عن قبول دعواته، بسبب مواقف حكومة الليكود، فضلا عن شخصيته الحزبية المؤمنة بمبادئ جابوتنسكى[3] المتطرفة.

وطالب بعض المغالين في إسرائيل

أما المجتمع القاهري
فقد قاطع السفير الإسرائيلي تقريبا واعتذر
عن قبول دعواته

حرص كثيرون على دعوتي إلى منازلهم أو مصانعهم أو المتاجر الكبرى والمستشفيات ودور الصحف..

بوجوب معاملة السفير المصري بالمثل، لكن الوضع لم يتغير لا في القاهرة ولا في تل أبيب!

الاشتراكية الاختيارية في الكيبوتس

تنفرد إسرائيل بين دول العالم بتطبيق النظرية الاشتراكية على نحو خاص، لا يفرض سيطرة البروليتاريا على المجتمع، إنما يترك الانضمام إلى هذه المجتمعات للاقتناع والاختيار الحر. ولقد زرت خلال عملي في إسرائيل عددا من «الكيبوتس»، مثل «لاهوت هبا شان» و«أشدوت ياكوف» وغيرهما.. ورغم تفهمي لما تستهدفه هذه النظرية من تحقيق العدالة أو المثل العليا، ورغم نجاح «الكيبوتس» في الإنتاج وقيامه بدور يفوق حجمه، فإنني لم أقتنع بأن هذه النظرية يمكن تطبيقها عمليا على نطاق واسع، بدليل أن هذا النظام لم ينتشر في إسرائيل..

لقد وجدت أن الحياة في الكيبوتس ليست طبيعية وإنما هي نمط علمي مرسوم، وقد لا يكون في ذلك وحده ما يدعو للنقد، ولكن المشاهد أن هذا النمط لا يتمشى مع طبيعة الإنسان أو طموحه الذي هو في تقديري أساس كل نجاح عملي..

وتعتز إسرائيل بهذا النمط من المجتمعات التي تضم نحو ١٠٠ ألف إسرائيلي (أقل من ٣٪ من مجموع السكان)، ويعيشون في نحو ٢٣٠ قرية جماعية في مختلف أنحاء إسرائيل. ويقوم الكيبوتس على أساس اقتناع فئة محددة بهذه الأفكار الاشتراكية، فهم يسكنون معًا ويتعلمون معًا ويزرعون حقولهم أو يزاولون العمل في مصانعهم بطريقة جماعية، فلا يملك أحد شيئًا ولا يتقاضى أحد أجرًا.. وفيم الأجر، والكيبوتس يكفل لمن يعيش فيه كل احتياجاته المادية من سكن وملبس ومأكل وتعليم وترفيه ورياضة وعلاج!

وتشتمل بعض الكيبوتس على بحيرات صناعية لتربية الأسماك، وحظائر للمواشي والدواجن ومصانع للألبان، ورغم قلة عدد السكان في الكيبوتس، فإن منتجاتهم الزراعية والصناعية تشكل نسبة عالية من صادرات إسرائيل..

والحياة الجماعية في الكيبوتس تتمثل في الأكل في مطعم واحد كبير يتناول الجميع فيه كل وجباتهم، ويقيمون في غرف متلاصقة، ويعهد بالأطفال الصغار طوال النهار إلى مشرفة ترعاهم أو إلى مدرسة تعلمهم، قبل أن يعودوا إلى مساكنهم لقضاء الليل مع والديهم.

وللكيبوتس مشرفون ينتخبون من بينهم (سكرتير وأمين صندوق ومشرف على الإنتاج..) ويشكلون لجانًا خاصة لبحث مشاكلهم، ويجتمعون بصفة دورية لاتخاذ قرارات فيما يهمهم من شئون، على صعيد المشاكل اليومية، أو تنظيم العمل.

ويتمتع الكيبوتس بنفوذ كبير في إسرائيل في أوساط عديدة، فيحظى الكيبوتس في الكنيست برعاية حزب العمل، ويؤيد حزب المابام نوعًا آخر من الكيبوتس أكثر التزامًا بالنظرية الماركسية. ومن ناحية أخرى، يعطي عدد قليل من الكيبوتس اهتمامًا خاصًا بالنواحي الدينية، وتؤيده الأحزاب الدينية. كذلك للكيبوتس نفوذ في أوساط الهستدروت (اتحاد عمال إسرائيل) وتلتحق نسبة كبيرة منهم بالجيش، جنودًا وضباطًا، بسبب نشأتهم الخشنة التي تجعل منهم جنودًا غلاظ القلب..

ورغم كل المزايا والضمانات التي يحققها الكيبوتس لسكانه، فإن عدد سكان الكيبوتس في إسرائيل لم يزد كثيرًا منذ إقامة دولة إسرائيل، ومعظم سكانه من الشباب الذين تجذبهم المثل العليا. ولكن بعد التخرج من الجامعة، التي يتحمل الكيبوتس نفقات تعليمه فيها، فإنه يميل إلى العمل بعيدًا عن الكيبوتس.. ويعود بعضهم أحيانًا إلى الكيبوتس.. وهناك من الكبار من يختار الإقامة في الكيبوتس عن قناعة، ويقيم المتزوجون منهم في أماكن توفر لهم أسباب الراحة، وشعار الكيبوتس «من لا يعمل لا يبقى فيه».. وهذا هو «ثمن» الضمانات الاجتماعية التي يحققها الكيبوتس لأعضائه.

عندما عقدت اتفاقات السلام بين مصر وإسرائيل رقص الناس فرحـا في المدن الإسرائيلية

وأميرة السلام

عندما عقدت اتفاقات السلام بين مصر وإسرائيل رقص الناس فرحًا في المدن الإسرائيلية، ورأوا في ذلك نهاية للحروب وبداية لعهد جديد يسمح بقيام الصداقة.

وفي مصر كذلك، عندما رحبت غالبية الشعب بالسلام مع إسرائيل، كان الاعتقاد السائد أن ذلك سوف يؤدي إلى السلام الشامل والعادل الذي يعيد كل الأراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧.

ولقد اعتقد البعض في إسرائيل أن السلام الوليد سوف يتخذ كل مظاهر «الود» مع مصر، وأن أطرافًا عربية أخرى سوف تنضم إلى مسيرة السلام. وتعبيرًا عن هذه المشاعر، قام المستر «سلومو كوهين»، وهو مهاجر من أصل مصري بتأليف «جمعية الصداقة المصرية الإسرائيلية».. وشكلت السيدة «ليتانا زاميرو» المولودة في حلوان (قرب القاهرة) جمعية أخرى أطلقت عليها «جمعية التفاهم المصري الإسرائيلي»، وفكر المستر «سعديا يوسف»، وهو أيضًا ممن ولدوا في مصر، في إنشاء «اتحاد يهود شباب مصر».. ولم ينضم مصري واحد إلى هذه الجماعات.

ومع ذلك كانت اجتماعات هذه الجمعيات تتوالى، وتوجه الدعوات إلى أعضاء السفارة المصرية لحضور حفلاتها. وكنا نلمس أمل هؤلاء الأشخاص ورغبتهم الشديدة في أن ينضم عدد من المصريين إلى تلك الجمعيات في ظل السلام، ولكن السياسة الإسرائيلية في الأراضي المحتلة كانت عقبة تحطمت عليها كل أماني التفاهم أو الصداقة.

وفي ظل هذه المشاعر والأماني، تلقيت دعوة من رئيس بلدية حيفا، المستر أريل جور، الذي أعد لي استقبالًا خاصًا وزيارة لمعالم المدينة (التي يوجد فيها المعبد البهائي الشهير ذو القبة الذهبية المتميزة) ومناحلها البحرية.. وحدثني المستر جور بشيء من الاعتداد عن زيارة الرئيس السادات لحيفا، وأنه اقترح في ذلك الوقت على السادات فكرة التآخي أو التوأمة بين الإسكندرية وحيفا، وأضاف أن الرئيس الراحل وافقه على هذا الاقتراح.. وطلب رئيس البلدية مني أن أعيد طرح الفكرة حتى يتم تنفيذها.

وفي جو العلاقات بين البلدين، الذي كانت المواقف الإسرائيلية في محادثات الحكم الذاتي تعكره، لم يكن هناك أي تجاوب مصري، واقتصر الأمر على توجيه الدعوة إلى عدد من رؤساء البلديات الإسرائيلية لزيارة مصر، وبعد عودتهم وجهوا بدورهم الدعوة إلى عدد من المحافظين في مصر لزيارة إسرائيل.. ولكن الفرصة لم تسنح لإتمام تلك الزيارة!

وفي إطار الإقبال الإسرائيلي، غير المتبادل من الجانب المصري، على إبراز ما تحقق من سلام، أقيمت في حيفا مسابقة لانتخاب «أميرة السلام»، وحضرت الفتاة الفائزة إلى السفارة المصرية في تل أبيب، يرافقها بعض منظمي المسابقة، وكانت جائزة الفوز تذكرة سفر بالطائرة من تل أبيب إلى القاهرة مع العودة، قدمتها السفارة. واهتمت بعض الصحف الإسرائيلية بنشر أنباء «الأميرة».. وتكررت المسابقة في العام التالي وسافرت فتاة أخرى إلى مصر أيضًا.. ولم تنشر صحف القاهرة شيئًا عن المسابقة ولا عن أميرة السلام، باستثناء مجلة أكتوبر التي أشارت إلى ما حدث بإيجاز..

وهكذا توالى الإحباط في مشاعر الجماهير على الجانبين، فالإسرائيليون مصممون على السلام والصداقة والتآخي، والمصريون لا يستطيعون تقبل ذلك في الوقت الذي تستمر فيه حكومة الليكود على متابعة سياستها في الأراضي العربية المحتلة.. ❁

هوامش

(١) إذا كان المعروف علميًا أن ملايين السنين قد مرت منذ وجد الإنسان على الأرض فقد استفسرت عن كيفية التوفيق بين العلم والدين في هذا الأمر، وجاءتني الإجابة بأن السنة في الماضي ربما كانت بألف سنة (أو يزيد) من السنوات التي نعيشها الآن.

(٢) فلاديمير جابوتنسكي زعيم صهيوني متطرف معجب به بيجين كثيرًا، وخرج على قيادة بن جوريون.

الأســمــاء والأشــيــاء الـثـوابـت والمتغيرات تحريف الكلم عن مواضعه

ولـيـــــد ســـــيـف

** ستون عاما.. وهل يحيى الإنسان ذكرى آلام مازال السابق منها لم يلد اللاحق، واللاحق منها يحيل على السابق؟ وهل تحجب المظالم الراهنة المظالم المتقادمة التي هي جذر الراهن وأصله؟

ستون عاما.. والماضي هو الآن. وإذ يبحث الشاهد والشهيد في عمق وجدانه النازف عن كلمات تروي حزنه وغضبه وملحمته، لا يجد الآن بعد ستين عاما أصدق وأحسن من كلمات المعجم الأول.. معجم السنوات الأولى العجاف.. النكبة.. نعم بكل محمولها الدلالي والوجداني والتاريخي الذي شكل وعينا المبكر ورشح في أحلامنا وأغانينا وقصائدنا، وحتى في لغونا وشتائمنا وفوران غضبنا الجامح.. نعم النكبة والوطن السليب وحلم العودة والتحرير، وكل ما أعقب ذلك على مدى ستين سنة، تفاصيل وفروع. ستون عاما.. وليس أفظع من اغتصاب الأرض إلا محاولات اغتصاب التاريخ والرواية.. ولا أشد من التهجير القسري من الوطن، إلا محاولات تهجير الوطن من الذاكرة.. وليس أخطر من الصراع على الأرض إلا الصراع على المعاني.

الأســمــاء والأشــيــاء

فبالمعاني والمفاهيم يتمثل العالم في وعينا.. والتفاعل الاجتماعي والإنساني ليس ممكنا بغير منظومات المعاني والمفاهيم المشتركة التي نعرف بها الأشياء والوقائع، ونؤول بها المواقف، ونبني بها روايتنا عما جرى ويجري. فالعالم الموضوعي الخارجي لا ينعكس في وعينا بصورة آلية مباشرة. وبغير وساطة المعاني والرموز الثقافية التي تبتدعها الذات الاجتماعية لتمثيل الموضوع وتعقله. فلو كان الأمر كذلك لما اختلف البشر في فهم الواقع وتأويله وطرق الاستجابة لمؤثراته، ولما تطورت المعارف وتغيرت صورة العالم والأشياء والظواهر في وعينا مع تطور معارفنا ومفاهيمنا وتعريفاتنا. ولما تطور المعجم اللغوي ومحتواه الدلالي الذي يسهم في تشكيل رؤيتنا للعالم والأشياء. ولكن الحاصل أننا في مواقف التفاعل الاجتماعي والإنساني حول الوقائع والأشياء والأغراض نستدعي من مخزون المعاني المشتركة في وعينا ما نسقطه على الموضوع لتأويله وتعريفه وفهمه، وبناء على ذلك تتحدد استجابتنا العملية له في الفضاء الاجتماعي الإنساني. وإذ نصدر عن نظم المعاني والتعريفات المشتركة في مرجعنا الثقافي العام، فإننا نخلق الإحساس الضروري بأننا ننتمي إلى الهوية الثقافية نفسها والنظام الاجتماعي ذاته. وهو شرط ضروري للاجتماع البشري. على أننا في الوقت نفسه نختلف في أغراضنا ومصالحنا ومقاصدنا جماعات أو أفرادا داخل المجتمع الواحد. كما أننا نتفاوت في ذخائرنا المعرفية على الرغم من المساحة المشتركة من المعاني والمفاهيم. ومن ثم فإن تأويلاتنا وتعريفاتنا للأشياء والوقائع يمكن أن تتضارب بتضارب الأغراض والمصالح والمقاصد. إذ يسعى كل طرف من أطراف التفاعل إلى استدعاء المعاني التي تخدم أغراضه لتعريف الوقائع والأشياء وتأويلها، ويفاوض بصورة مضمرة أو معلنة لفرض تعريفاته وتأويلاته. وفي الظروف العادية لا يكون الخلاف هنا حول المعاني والقيم المشتركة على المستوى النظري المجرد. فلا خلاف على القيمة الإيجابية للشجاعة والكرم والوفاء مثلا، ولا على القيمة السلبية للجبن والبخل والخيانة.

ولكن الخلاف هو في إنزال هذا المعنى أو ذاك على واقعة بعينها وتعريفها به. فما يعرفه أحد الأطراف بالشجاعة، يعرفه آخر بالتهور، وما يعرفه طرف بالكرم، ربما يعرفه آخر بالإسراف.. وهكذا، وبذلك يتمكن الفاعلون الاجتماعيون من تحقيق هدفين متعارضين معا في آن:

- الحفاظ على الحس المشترك بالانتماء إلى نفس النظام الاجتماعي كما يتمثل في نظم المعاني والمفاهيم والقيم المشتركة التي يصدرون عنها، من جهة،

- وخدمة تنازعهم على المصالح والأغراض من خلال توظيف معان مختلفة من المرجع المشترك نفسه لفرض تعريفات مختلفة للوقائع، من جهة أخرى.

ولكن التنازع على التعريفات والتأويلات لا يجري بصورة متكافئة. هنا تتدخل علاقات القوة بكل تجلياتها المادية والمعرفية والروحية والسياسية، ليتمكن الطرف الأقوى من فرض تعريفاته وتأويلاته وتوصيفاته على عقول الآخرين. وبذا يتمكن من السيطرة على العقول والأفئدة، وتشكيل نظرتها للعالم وإدارة سلوكها واستجاباتها بناء على ذلك. هكذا يتشكل خطاب القوة Discourse ورواية القوى Narrative.

المعاني والخطابات بهذا المفهوم ليست مجرد تمثيل للواقع، بل هي الواقع نفسه كما يتمثل في عالم الوعي والتصورات، وتغيب المسافة بين ثنائية الأسماء والأشياء، أو الدوال والمدلولات، لتصير الأسماء هي الأشياء بقدر ما تتعرف الثانية بالأولى. وبذلك يكون الصراع على المعاني والخطاب هو الصراع على العقول والمدركات، وهو في آخر المطاف الصراع على امتلاك الواقع وتشكيله.

ولكن خطاب القوة والسيطرة يخلق شرط الإمكان لتشكل خطابات المقاومة، في لحظات تاريخية مفصلية، تتمكن فيها الأطراف المقهورة من التحرر من إكراهات الخطاب السائد وكشف آليات التحكم والسيطرة التي يمارسها. وبقدر ما ينطبق هذا على القوى الاجتماعية في داخل المجتمع الواحد، فإنه ينطبق على العلاقة بين الثقافات والمجتمعات،

الصراع على المعاني والخطـــاب هـــو الصـــراع على العقول والمدركات، وهو في آخر المطاف الصـــراع عـلى امتـــلاك الواقـــع وتشـــكيله

بترتيب خاص مع مركز الجزيرة للدراسات - الدوحة

وبخاصة فى هذا العصر: عصر العولمة والمعلومات والاتصالات والاعتمادية المتبادلة والنظام الدولى وهيمنة الإمبراطورية الأمريكية الشاملة.

تحريف الكلم عن مواضعه

ستون عاما.. ولم يتحقق حلم التحرير والعودة، ولم تتحقق بعد حزمة الأحلام العربية الأخرى التى تحيط به وتتشابك وتتشارط معه: الوحدة والتحرير والنهضة والعدالة والديمقراطية بوجهيها الاجتماعى والسياسى. ولكن الأخطر من عدم تحقق الأحلام فى الواقع هو المحاولات المنظمة لمصادرة الأحلام نفسها، وإعادة تعريفها لتحتل «الأوهام» غير القابلة للتحقق أصلا بحكم طبيعتها الجوهرية. بل الذهاب أبعد من ذلك إلى إسقاط المسوغات الأخلاقية والتاريخية لتلك الأحلام/الأوهام، فهى - حسب هذا الخطاب- ليست مرفوضة فقط بمعيار الضرورة التى تجعلها غير قابلة للتحقيق، ولكنها مرفوضة بالمعايير المبدئية والعقلية. وإن لم يكن هذا كافيا، جرى تحميلها مسئولية النكبات والخيبات والانكسارات والانحطاط والعجز عن اللحاق بركب الحضارة العالمية. فبدلا من أن تكون تلك الأحلام مشاريع استجابة حضارية للتحديات التى تستهدف وجود الأمة وهويتها تصبح بهذا المنطق أساس المشكلة وأصل النكبات.

هكذا إذن بعد أن يطمئن العدو إلى تمكنه فى الأرض، وتغلبه فى معركة السلاح، ينقل الصراع إلى ساحات المعانى والمفاهيم، ليستكمل غزو الأرض واغتصاب الوطن بغزو العقول واغتصاب الأحلام وفرض خطابه ومعانيه وروايته. وهذه المرة يتطوع النظام العربى نفسه - بعضه أو كله - وتيارات سياسية عربية تصف نفسها بالليبرالية، لتنهض بالمهمة. ذلك لأن نظام المعانى التحررية لا يواجه الرواية الصهيونية إلا بقدر ما يحرج النظام العربى ويتحدى تيارات الإذعان والخضوع التى تتقنع بدعاوى الاعتدال والواقعية والعقلانية، فضلا عن الليبرالية.

ألا ترى كيف صرنا نتردد فى استعمال صفة «العدو الإسرائيلى» خشية أن يحيل ذلك إلى لغة الشعارات الثورية القديمة والإعلام الانفعالى؟ إن لم يكن الاغتصاب والاحتلال والتشريد والإذلال والقتل والبطش أسبابا كافية لتعريف مقترفيها بالعدو، فما معنى العدو إذن؟ ألا ترى كيف استتبع ذلك أن نتردد فى استعمال مفاهيم المقاومة والجهاد ومعانى التحرر والتحرير والشهادة والاستشهاد لأنها تلتبس مع الإرهاب والتطرف، وتطيح بفرص السلام المقدس، وتردنا إلى ماضى التجارب «القومجية» الفاشلة أو إلى حاضر التيارات «الإسلاموية» المتطرفة؟!

ألا ترى كيف يتجنب الكثيرون استعمال مصطلح «الوطن العربى» و«الأمة العربية» ويفضلون بدلا منها مصطلح «الشرق الأوسط» و«شعوب المنطقة»؟! ألا ترى أيضا كيف يتجاهل الكثيرون رواية اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ ويفضلون أن تبدأ الرواية بحرب حزيران عام ١٩٦٧ مع التركيز على المسئولية العربية عن قرار الحرب وأوزارها؟!

ألا ترى كيف تحولت القضية الفلسطينية من قضية عربية يقف فيها العرب جميعا طرفا فى الصراع، إلى قضية تخص الفلسطينيين، وإن كان للعرب دور فيها فيختزل فى «مساندة الشعب الفلسطينى» فى أحسن الأحوال مع التحذير بأن تعطيل الحلول السياسية يمكن أن يهدد أمن المنطقة، وتهديد أمن المنطقة فى هذا السياق لا يشير إلى الخطر الإسرائيلى، بقدر ما يشير إلى ردود الفعل الشعبية العربية التى يمكن أن تغذى حركات التطرف والعنف.



الثابت الإسرائيلي والمتغير الفلسطيني!

الصراع على المعاني ليس ظاهرة جديدة في الفضاء السياسي العربي، ولكنه استعلن بصورة شرسة منذ معاهدة كامب ديفيد. وقبل ذلك، تقدم مفهوم «الاحتلال» لا ليضاف إلى مفهوم الاغتصاب والإحلال، ولكن ليصبح بديلا عنه: ومعه حل الحديث عن الأراضي المحتلة مكان الحديث عن الوطن السليب. كيف يصبح الاحتلال بديلا عن «الاغتصاب»: اغتصاب وطن بكامله؟ ألا يحيل الاحتلال في سياقنا العربي الفلسطيني إلى جزء من الوطن وإلى قوة محتلة لا يطرح السؤال حول شرعية وجودها في حدود دولتها: وإن طرح حول شرعية احتلالها لأراض خارج حدودها؟ حتى إذا استقر هذا المعنى للاحتلال في الوعي الجمعي مكان اغتصاب الوطن برمته، بدأ العمل على تغييب معنى «الاحتلال» نفسه على ما فيه من اللبس والتلبيس وإسقاط السابق باللاحق، ليحل مكانه الحديث عن «النزاع العربي الإسرائيلي» ثم «النزاع الفلسطيني الإسرائيلي». وإذ بالصراع صراع حول حقوق متنازع عليها. بين شعبين حدث اتفاقا أنهما يتجاوران في الإقليم نفسه. فلا ثمة وطن مغتصب ولا استعمار صهيوني إحلالي استيطاني فرض بفعل القوة القاهرة، وكأن إسرائيل معطى ثابت قديم قدم الأرض. وما وقع عام ١٩٤٨ هو -كما تنص الرواية الصهيونية- استقلال الشعب الإسرائيلي من الاستعمار البريطاني الطارئ المؤقت على نحو ما استقلت دول أخرى كمصر والهند وسوريا والجزائر بعد حين. ثم كان على الشعب الإسرائيلي الذي أحرز استقلاله بعد صراع مرير مع الاستعمار(!) أن يتعامل مع تطلعات جماعات قومية أخرى اتفق أنها تعيش معه في الأرض نفسها. وتصر على أنها تمثل هوية وطنية مستقلة وتتطلع إلى الاستقلال بهويتها في دولة خاصة بها على جزء من الوطن الإسرائيلي، تدعي أنه حقها.

وإذن فهو صراع حول حقوق متداخلة متنازع عليها بين طرفين قد يجور أحدهما على الآخر. ويتبادلان العنف والعنف المضاد فيستويان في المعيار الأخلاقي. هل قلت يستويان في المعيار الأخلاقي؟ لا ليس هذا واقع الحال وفقا للقوى الدولية الغاشمة المتواطئة التي تعتبر العنف الإسرائيلي دفاعا عن أمن إسرائيل في مواجهة عنف الجماعات الإرهابية المتطرفة من الجانب الفلسطيني. وهذه نتيجة منطقية لمقدمات التحريف المنظم للرواية التاريخية.

فإذا كان ما وقع عام ١٩٤٨ هو استقلال الشعب الإسرائيلي من القوة الاستعمارية الطارئة على وطنه(!): ولا ثمة اغتصاب للوطن الفلسطيني؛ ولا ثمة إحلال لجماعات أجنبية طارئة مكان شعبه، ولا ثمة تشريد وتهجير قسري وإلغاء لشعب كامل يسمي نفسه الشعب الفلسطيني؛ ولا حتى احتلال تال، وإنما هي حقوق متنازع عليها بين دولة شرعية مستقرة ثابتة وجماعات مغايرة تعيش على نفس الأرض وتصر على أنها تمثل شعبا مستقلا يستحق دولة مستقلة، إذا كانت هذه هي مقدمات الرواية التاريخية، فلا بد أن تكون النتيجة المنطقية اعتبار العنف الفلسطيني إرهابا وتطرفا وعدوانا وتهديدا لأمن إسرائيل. يسوغ لها الدفاع والرد بعنف مشروع. فالتنازع على حقوق ملتبسة لا يقتضي الالتجاء إلى السلاح وممارسة العنف بدلا عن العمل السياسي والتفاوض السلمي.

وإذن فإن أصل الرواية ليس اغتصاب الوطن الفلسطيني واقتلاع الشعب الفلسطيني منه وإحلال الإسرائيليين فيه، وإنما هو تنامي التطلعات الفلسطينية الوطنية نحو الاستقلال والدولة على أراض متنازع عليها بين الثابت الإسرائيلي المفروغ منه، والمتغير الفلسطيني المختلف عليه. وفي سياق هذه الرواية لا بد أن ينسب البدء في دورة العنف إلى الجانب الفلسطيني؛ ويكون العنف الإسرائيلي هو الرد المشروع. إلى هذا الحد يبلغ تحريف الرواية التاريخية ومعها نظام المعاني. فلا يكفي ظلما أن توضع الضحية والجلاد على صعيد أخلاقي واحد تحت عنوان «الحقوق المتنازع عنها» ودورة العنف المتبادل بين طرفي النزاع؛ حتى يبرأ الجلاد من المسئولية الأخلاقية؛ وتدان الضحية لأنها لا تعرف كيف تموت بصمت لا يزعج الجزارين والشهود الصامتين. وفي أحسن الظروف والمواقف الموصوفة بالتوازن بل بالتعاطف مع التطلعات الفلسطينية، تصير مهمة الحكماء المعتدلين في الجانبين وفي المحيط الدولي والإقليمي الترويج لثقافة السلام والتعايش والتسامح وقبول الآخر ونبذ الكراهية لبناء عالم أجمل وأنبل للأجيال القادمة. وكأنّ أصل الصراع وحله يكمنان في النظم الثقافية: بين رفض الآخر وقبوله، بين ثقافة التنابذ والتفاصل والإقصاء والكراهية والعنف وثقافة التبادل والتكامل والتعاون والتعارف والحب والسلام. ويجري في هذا السياق تغييب قيم العدل والحق. ومن الطبيعي في هذا الفضاء إلغاء معنى «المقاومة» مع التغييب المنظم لأشراطها: اغتصاب الوطن واحتلاله وتشريد شعبه.



الفلسطينيون «أيضا» لهم حقوق؟

تحقق المشروع الصهيوني عام ١٩٤٨ وانتصرت إسرائيل على الجيوش العربية في ذلك الحين؛ ثم في حزيران ١٩٦٧. ومع ذلك، كان الخطاب الدولي والإسرائيلي نفسه يتوجهان ضمنا إلى إقناع العرب والفلسطينيين، على الرغم من هزائمهم، بأن يتقبلوا أخيرا إسرائيل باعتبارها أمرا واقعا وحقيقة قائمة لا قبل لهم بإلغائها. فإن لم يتقبلوا ذلك مبدئيا فإن عليهم أن يتقبلوه بحكم موازين القوى التي لا يمكن أن تعتدل لصالح موقفهم. الجلاد، على قوته وشراسته وتفوقه، يحتاج إلى اعتراف الضحية به. حتى إذا تقبل النظام العربي هزيمته المؤبدة، وعجزه النهائي عن تحقيق شعارات التحرير، وأعلن من ثمّ أن السلام هو خياره الإستراتيجي الوحيد، بما يتضمنه ذلك من قبول إسرائيل باعتبارها حقيقة قائمة تجبّ معايير العدل والحق، انقلبت المعاني مجددا: فصار المطلب الآن إقرار إسرائيل بوجود شعب فلسطيني له حقوق في تقرير المصير والاستقلال والدولة إلى جانب الثابت الإسرائيلي الذي خرج نهائيا من حيز السؤال عن شرعيته. فإذا كان ذلك، فلا معنى لاستدعاء رواية اغتصاب الوطن الفلسطيني والطرد والإحلال.

هكذا في زمن العجز والإذعان والخضوع والخنوع، تعيد النهايات والمآلات البائسة كتابة البدايات لتنسجم معها، بدلا من أن تؤسس البدايات للغايات والنهايات والمآلات. حسب نهايات زمن العجز، فإن جذر المشكلة يبدأ ببروز هوية وطنية فلسطينية تطالب بأن يكون لها بعض ما لإسرائيل من الحقوق. وعلى الثابت الإسرائيلي أن يتعامل مع هذا الطارئ الطارق الذي لا يكف عن الإزعاج والإلحاح وتهديد الأمن واللجوء إلى العنف: شأنه في ذلك شأن أي أقلية قومية تطالب بحق تقرير المصير. وهنا يصبح مطلب الدولة الفلسطينية على جزء صغير من الوطن السليب: بديلا عن الوطن. وفي أحسن الأحوال يصيح أحد الحكماء من ذوي الضمائر النزيهة: «الفلسطينيون أيضا لهم حقوق» مع التركيز على كلمة «أيضا» التي تضمر أن الحق الإسرائيلي أمر مفروغ منه، وإنما السؤال حول حق فلسطيني هو في ذاته محل اختلاف من حيث تعريفه وحدوده، ويخضع من ثمّ لتغييرات وتأويلات متباينة متضاربة، وتحاصره التحفظات والاعتبارات الأمنية والاشتراطات السياسية وفقا للمرجع الإسرائيلي الثابت. فإن كان كذلك فإن تعريفه النهائي مؤجل حتى تقضي به المفاوضات بين الطرفين المتنازعين.

وهنا يجري السكوت عن حقيقة أن المفاوضات السياسية تحكمها وتكيف نتائجها موازين القوى على الأرض. ولكي يموه الجانب الأضعف في العملية السياسية على هذه الحقيقة يبتدع مصطلح «الاشتباك السياسي» ليوهم المتشككين، وربما ليوهم نفسه، بأن جهوده التفاوضية شكل من أشكال النضال لا يقل شراسة عن الكفاح المسلح، وأنه سيكون طريقه لانتزاع الحقوق

ألا ترى كيف صرنا نتردد
في استعمال صفة «العدو الإسرائيلي»
خشية أن يحيل ذلك إلى لغة الشعارات
الثورية القديمة
والإعلام الانفعالي

انتزاعا من الخصم العنيد، حتى لو كان الخصم في واقع الحال يتمتع بهيمنة كاملة بكل المعايير العسكرية والسياسية والاقتصادية، ومن خلفه قوى دولية طاغية لا تدعمه فقط، بل هي وصيه وشريكه وطرف معه. كيف يكون التفاوض هنا اشتباكا سياسيا لانتزاع الحقوق من براثن عدو هو الذي يحدد مواصفات الشريك اللائق في العملية التفاوضية السياسية فيمنح الصفة لمن يشاء وفق معاييره، ويسقطها عمن يشاء، في الوقت الذي يشاء؟! فإن أسقطها كان له أن يحاصر رأس الطرف الأضعف في عقر مقره، ويلزمه المكوث في غرفة واحدة فيه تحت سطوة السلاح والجرافات العسكرية، ولا يسمح له بأن يغادر مكانه إلا إلى قبره، الذي يرجح أنه هو الذي أرسله إليه بصمت مريب؟!

كيف يمكن أن يكون التفاوض سبيلا إلى انتزاع الحقوق أو شراكة بين طرفين، حين يكون أحدهما غالبا والآخر مغلوبا، ويكون أحدهما حاكما والآخر محكوما: حين يكون في وسع أحدهما أن يفرض على الآخر قراره وإرادته دون رادع، فيوسع المستوطنات أو يزيدها متى شاء، ويقتحم المدن والقرى والمخيمات أو يقصفها متى شاء، وينصب الحواجز بالمئات ويتحكم بحركة الناس بين المدن والقرى كيف شاء، بل إنه ليس في وسع القادة الفلسطينيين التنقل داخل أرضهم إلا بأذون خاصة منه؟

حتمية تاريخية جديدة!

كيف يمكن في ظل هذه الموازين المختلة أن ينتزع الضعيف ما قنع بقبوله من حقوق منقوصة أصلا في اشتباك سياسي موهوم؟ ألا يكفي أن الجانب الفلسطيني قد رضي بالجزء الأقل الذي احتلته إسرائيل عام ١٩٦٧، ورضي بالاحتكام إلى قرارات الشرعية الدولية المتواطئة: حتى يصبح هذا الجزء محل تنازع، لا يجوز تعريف الحق الفلسطيني به مسبقا إلى أن تقضي به المفاوضات مع الطرف المتغلب؟ فإذا أصر الفلسطينيون، أو بعضهم، على تعريف مسبق لا يتجاوز حدود القرارات الدولية: تُهم بالتطرف والتشدد، وسقطت عنه صفة الشريك المقبول، وحُمل مسئولية إحباط العملية السياسية؟.

ومن جديد يجري تذكيرنا بطبيعة المفاوضات السياسية وجوهرها القائم على تقديم تنازلات مؤلمة من الطرفين، للتوصل إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف: وأية تنازلات مؤلمة يفترض أن يقدمها الطرف الإسرائيلي المهيمن؟.

أما تنازلات العدوّ المفترضة فهي من حساب الأراضي التي احتلها عام ١٩٦٧، الأراضي التي قنع الطرف الآخر باختزال حقوقه التاريخية فيها، وأما التنازلات المطلوبة من الجانب الفلسطيني فمن حساب تلك الأراضي وتلك الحقوق المختزلة أصلا ومعها حق العودة. فأي تكافؤ وأي شراكة في السلام وأي تنازلات متبادلة مؤلمة:

فإن صاح صائحنا: «وأين العدل، وأين روايتنا التاريخية؟» قام من بيننا من استدخل المعاني المستحدثة التي أنتجها القوى المتغلب، فذكرنا بالحكمة المترجمة «كفى بكم شعارات عاطفية وأحلاماً كاذبة» ولا تعودوا إلى تفويت الفرص التاريخية التي برعتم بها منذ قام المشروع الصهيوني، حتى ألزمتكم الظروف المتغيرة أن تطالبوا أخيرا بأقل مما عرض عليكم أولا: وقياسا بتجارب الماضي، فإنكم إن رفضتم اليوم ما تتنازل لكم عنه إسرائيل: حتى لو بدا لكم مجحفا، فسيكون عليكم في المستقبل أن تقنعوا بما هو دونه: حتمية تاريخية من نوع آخر، ونواميس كونية حاكمة لا قبل لنا بتغيير مسارها. فلا مفر من الإذعان لها باعتبارها الأمر الواقع. ونقيضها الأحلام الكاذبة، والأوهام المدمرة والأيديولوجيات المضللة وشعارات الماضي التي لم تنتج إلا الهزائم والانكسارات والخراب. أما هذا الأمر الواقع فيبدو في هذا المنطق وكأنه معطى خارجي موضوعي ثابت، ثبات قوانين الطبيعة، تنعدم معه المسئوليات الإنسانية والخيارات الأخلاقية. الأمر الواقع بهذا المعنى ليس نتاج الفعل الإنساني وعلاقات القوة المتغيرة التي تنتج جلادا وضحية يمكن أن تستسلم ويمكن أن تقاوم، وتنتج الخيانة والتواطؤ وخطابات الإذعان كما تنتج في مقابلها خطابات المواجهة والمقاومة والنهوض.

العجز العربي قدر مقدور وأبدي كما التفوق الغربي والإسرائيلي، وإن كان لا بد من التماس العوامل والأسباب، فدع عنك الحديث عن الغرب والاستعمار والامبريالية، فهذه مشاجب نعلق عليها خيباتنا، ومعاذير نبرر بها أزماتنا، والتمسها في الذات المجبولة على التخلف والانحطاط، وأمعن في جلدها كما تشاء.

لا بأس إذن، سنمضي مع هذا المنطق، ونعتبر الغرب والاستعمار والامبريالية رواية متخيلة اختلقتها الخطابات القومية الفاشلة والاشتراكية الشمولية والإسلامية الرجعية لتسوق برامجها التي ثبت إخفاقها، وسنعتبر إخفاقها دليلا قاطعا على بؤس روايتها عن الاستعمار والامبريالية ودورهما في إخضاع العرب وإحباط مشاريع النهضة العربية وخلق المشروع الصهيوني وإسرائيل. وسنعزو كل تلك التهم الموجهة إلى الغرب ودوره إلى نظرية المؤامرة التي تنتجها ثقافة العجز والخمول، فلا ثمة قوى استعمارية احتلت أوطاننا بقوة الدبابة والطائرة الحربية والبارجة، ولا عملت على تقطيع أوصاله ونهب ثرواته وربطه بالمركز الغربي وتعطيل شروط نهوضه الذاتية. وإن لم يكن مفر من الإقرار بذلك فإن نجاح الغرب الاستعماري الإمبريالي في مشاريعه ضدنا كان نتيجة طبيعية لتفوقه الحضاري، وانحطاطنا الحضاري والثقافي. وإذن فإن تغلبه جائز يستحقه، إذ هو نتاج حضارته العقلانية العلمية الديمقراطية التي تمنح هيمنته براءة أخلاقية، وفي المقابل فإن هزائمنا أمامه عقوبة نستحقها، إذ هي نتاج ثقافتنا الغيبية العاطفية اللفظية البلاغية غير العقلانية، ونتاج عجزنا عن تبني الأسباب التي تفوق بها الغرب وعن احتذاء أنموذجه دون تحفظات.

القوة والغلبة دليل على الصواب والحق، والضعف والهزيمة دليل الباطل، وعلى ذلك فبدلا من إنتاج خطابات العداء للغرب تحت شعارات معاداة الاستعمار والامبريالية، يجدر بنا أن نروج للقيم الحضارية الغربية باعتبارها القيم الكونية المنتجة للتقدم والتحضر والتطور. ثنائية الصراع، حسب هذه الرواية، ليست بين المستعمِر بكسر الميم، والمستعمَر بفتح الميم . فهذه ثنائية عفا عليها الزمن وسقطت مع سقوط خطابات الثورة العالمية والاشتراكية الدولية والحركات القومية وانتصار القيم الليبرالية الرأسمالية انتصارا مؤبدا يثبت أنها نهاية التاريخ. وعوضا عن ذلك فإن ثنائية الصراع ينبغي أن تكون بين واقعية عقلانية ليبرالية يمثلها الغرب المتغلب وقيم التخلف الذاتي والانحطاط وتجارب الماضي الفاشلة: القومية الفاشية والاشتراكية الشمولية والثورية الرومانسية مع ما صاحبها من شعارات غير واقعية كالوحدة والعدالة الاجتماعية والنهضة المستقلة والتحرير.

سياسة تفويت الفرص!

ومن الطبيعي في سياق هذه الرواية الليبرالية الجديدة، أن تسقط عقيدة الصراع مع إسرائيل والمشروع الصهيوني ومعها الرواية التاريخية للاغتصاب والإحلال والتشريد. إذ لا يمكن تغييب الرواية التاريخية عن الاستعمار والإمبريالية، مع إثبات الرواية التاريخية عن اغتصاب الوطن الفلسطيني والطبيعة الاستعمارية الإحلالية الاستيطانية للمشروع الصهيوني، الذي ينتظم تاريخيا في المشروع الاستعماري الامبريالي الغربي. لا يمكن الدفاع عن سياسات الولايات المتحدة وتحسين صورتها والترويج لسياسات الانحياز او الإذعان لها بأي دعوى، مع المحافظة في الوقت نفسه على عقيدة العداء والصراع مع إسرائيل، وإن تعاظم تجبرها وبطشها بدعم مطلق من الولايات المتحدة. فإن لم تترك لك الجرائم الإسرائيلية المتجددة مجالا للصمت والتغافل، فوضعتك في موقف حرج، فإن لك مخرجا في أن توزع اتهامك بين الاتجاهات المتشددة في إسرائيل والاتجاهات



> **ألا ترى كيف استتبع ذلك**
> **أن نتردد في استعمال مفاهيم**
> **المقاومة والجهاد ومعاني التحرر والتحرير والشهادة**
> **والاستشهاد لأنها تلتبس**
> **مع الإرهاب والتطرف**

المتطرفة العنيفة في الجانب الفلسطيني. ولا بأس أن تتحدث قليلا عن أخطاء سياسات اليمين المحافظ في الولايات المتحدة، على أن تذكر في الوقت نفسه بظاهرة الإرهاب العربية الإسلامية التي ينبغي أن يلتقي العالم على مواجهتها. ثم استعمل ظاهرة الإرهاب المدانة للتلبيس على مفاهيم المقاومة والجهاد وتلويثها، واعمل على تنفيس مشاعر العداء المتنامية ضد إسرائيل وجرائمها بالتركيز على الخطر الإيراني المقدم على كل خطر. فهي لا تهدد إسرائيل إلا بقدر ما تهدد العرب، أو أنها تتوسل العداء لإسرائيل والولايات المتحدة ذريعة للتغطية على هدفها الحقيقي: التمدد في المجال العربي وتهديد أمنه القومي. وعلى الرغم من أن «الدين» بوصفك ليبراليا ملتزما لا يمثل في الظروف الأخرى مرجعا لمواقفك السياسية، فمن المفيد هنا أن تستدعي الخلاف التاريخي الطائفي بين السنة والشيعة، وأن توظف نفسك ولو مؤقتا للدفاع عن أهل السنة والجماعة والتخويف من المد الشيعي الإيراني. فإن أدى ذلك بالضرورة إلى أن تلتقي مع إسرائيل والولايات المتحدة في مركب واحد / محور واحد ضد الخطر الإيراني، فهو أمر تمليه التقاطعات السياسية ومعطيات الواقع وفقه الأولويات السياسية والأمنية. وبالإحالة، يمكنك الآن أن تجد مسوغا آخر للطعن في مصداقية المقاومة والجهاد في فلسطين، باعتبارها جزءا من المحور الإيراني الذي يضم سوريا وحزب الله والمقاومة الإسلامية في فلسطين التي يمكن أن تصورها الآن بأنها تطبق أجندة إيرانية معادية للعرب أكثر من عدائها لإسرائيل. فالاغتصاب والاحتلال والتشريد والحصار والتجويع والتركيع والقتل والتجريف والتدمير والقصف ليست أسبابا كافية للمقاومة، وإنما المقاومة أداة وورقة في يد إيران وبرنامجها المعادي للعرب في آخر المطاف. فإذا وصلت الرواية الليبرالية الجديدة إلى هذا الحد، فما الذي يتبقى من عقيدة الصراع مع إسرائيل ومقاومة الاحتلال ورواية الاغتصاب والإحلال والاحتلال.

عودا إذن إلى الأمر الواقع: إسرائيل أمر واقع ونهائي لا مجال لتغييره، ولا مفر من قبوله ولا جدوى من مواجهته، ولا حل إلا بالتفاوض السياسي، وإن شئت فقل «الاشتباك السياسي»، ضمن معطيات الواقع ومحدداته، مهما يكن ميزان القوى مائلا ضدك ولمصلحة خصمك. ولا تقل من خلق هذا الواقع، ولا تتحدث عن إمكانية تغيير ظروفه وشروطه. فهذا وهم ينبغي تجاوزه: لم يكن ممكنا في الماضي، وليس ممكنا الآن، ولن يكون ممكنا في المستقبل. فارض إذن بما يمكن أن يقسمه لك هذا الواقع مهما بدا لك ضئيلا قياسا بادعاءات الماضي، ولا تعد إلى تفويت الفرص الذي أملى عليك اليوم أن ترضى بأقل مما أتيح لك في الأمس. لا تقل في عام ١٩٤٨ اغتصب وطنك وأخرجت منه طريدا شريدا، ولكن اذكر بدلا من ذلك أنك فوّت الفرصة التي أتاحها لك قرار التقسيم في ذلك الحين بأن تقاسم إسرائيل وطنك فتكون لك دولة كما لها.

لا تقل إن اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل قد جنت على الموقف العربي والفلسطيني حين أخرجت أهم دولة عربية من مركز الصراع، وفتحت الباب على الاستفراد بكل قطر عربي كان جزءا من دائرة الصراع، فضلا عن الجانب الفلسطيني، واذكر بدلا من ذلك أنك هنا أيضا قد فوت فرصة أخرى لتحصيل ما لم تعد قادرا على تحصيله الآن. تفويت الفرص: هذه هي العبارة السحرية التي تصرف التهمة عن الجلاد وتردها إلى الضحية. فما آل إليه حال الضحية لا يتحمل مسؤوليته إلا الضحية نفسها التي أبت أن تقر بالأمر الواقع وتكيف مطالبها وفق شروطه التي يصنعها الخصم وحده منفردا، واعتصمت بدلا من ذلك بالأحلام والأوهام عن الحق والعدل والمقاومة والثورة والجهاد والتحرير والتغيير والوحدة والنهضة ومواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني، ووصمت أصحاب السياسات الواقعية العقلانية بصفات التخوين والعمالة والخضوع والإذعان والاستسلام.

ولا تسل هنا: كيف يمكن الجزم حسب رواية تفويت الفرص بأن إسرائيل كانت مستعدة دائما منذ قيامها للامتثال لقرارات الشرعية الدولية لولا تفويت العرب لتلك الفرص التاريخية؟ ولا تذكر بكل تلك القرارات الدولية التي تجاهلتها إسرائيل فضلا عن تهربها من استحقاقات أوسلو وتجاهلها أخيرا للمبادرة العربية؟ فلعل هذه قد وصلت متأخرة فجاز لإسرائيل أن تنبذها وراء ظهرها.

حسب هذه الرواية التي تتوسل الحكمة بأثر رجعي، فإن على الشعب الذي يُغتصب وطنه ويطرد منه إلى المنافي أن يذعن لإملاءات هذا الواقع ويرضى بما قسم له مهما كان مجحفا، ويفك ارتباطه بوطنه وذاكرته التاريخية وجذوره، دون مقاومة. لأنه كان عليه أن يستشرف المستقبل، ليرى أحلامه المنكسرة بعد ستين سنة، وليعلم مسبقا أن واقع الاغتصاب الجديد سوف يبقى هو الواقع ذاته بعد ستين سنة، وربما إلى الأبد. فإذا كان كذلك، فلمَ يطيل معاناته وعذاباته ويورط الآخرين معه؟ فليكن منذ اللحظة الأولى ما سوف يكون بعد عقود متطاولة من المآسي والمنافي والقتل والتشريد والتجويع والتركيع.

التحرير ممكن إلا.. في فلسطين!

وإن كان ثمة أوطان أخرى في العالم قد تعرضت للاحتلال ثم كافحت وغيرت شروط الواقع حتى نجحت أخيرا في تحرير أراضيها فإنها لا تصلح مثالا يتأسى به الفلسطيني.. فالتحرير ممكن في كل التجارب التاريخية إلا في تجربة الفلسطيني، وإن كان جزءا من أمة عربية تَعُدُّ مئات الملايين. كانت القضية الفلسطينية قضيتها المركزية بقدر ما هي قضية الفلسطيني، وكانت تنظر إلى المشروع الصهيوني باعتباره جزءا من مشروع الهيمنة الاستعمارية الامبريالية على مجمل الوطن العربي. وفي المقابل ترى أن مشروع التحرير ينتظم في مشروع التحرر والنهوض العربيين. ثم ترى أن لهذا المشروع المزدوج الذي يتشارط فيه هدف التحرير مع هدف التحرر والنهوض، عمقا إسلاميا يمتد إلى أكثر من مليار مسلم، ثم عمقا إنسانيا في جبهة تحررية عالمية تتسع لأكثر من نصف العالم.

كان على العربي وهو يستقبل النكبة عام ١٩٤٨ أن يتجاهل كل هذه الاعتبارات فيذعن لواقع الاغتصاب ويرضى بما قسم له «الواقع المؤبد»، ويعلم مسبقا أن التحرير ممكن في كل تجارب الاحتلال والاغتصاب إلا اغتصابا تقترفه الصهيونية، فهذه خارج حسابات التاريخ.

ولا تقاس بأي مثال آخر. بل يُنهى الفلسطيني حتى عن التأسي بعدوه الذي مر بفلسطين قبل آلاف السنين كالكلام العابر. ثم خلق من أساطيره القديمة مشروعا دمج نفسه بالمشروع الاستعماري الغربي مكنه أخيرا من اختلاق شعب ووطن، على حساب شعب ووطن. أما في الحالة العربية الفلسطينية فتكفي تسع عشرة سنة هي الفاصل بين الاغتصاب الأول عام ١٩٤٨ والاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ لكي نطالَب بنسيان الضائع الأول. إن كنا نرجو أن نسترجع الضائع الثاني، ونُدعى إلى إعادة تعريف القضية الفلسطينية وموضوع الصراع والأراضي المحتلة، ثم تكفي عشرون أو ثلاثون سنة أخرى كي نطالب من جديد بأن نسقط من معجمنا مفاهيم المقاومة والجهاد والتحرير وخيار السلاح والحق والعدل، ونقنع بدلا منها بخيار السلام الإستراتيجي الأوحد تحت مظلة الراعي الأمريكي الذي يمثل الخصم والحكم معا، ويمتلك تسعاً وتسعين بالمائة من أوراق اللعبة، ويحتكر مع الحليف الإستراتيجي الإسرائيلي تعريف المشكلة وأبعادها وحدودها وشروط حلها بوصفها قضية حقوق متنازعا عليها يقتضي حلها تنازلات مؤلمة متبادلة من الطرفين، أحدهما يتنازل عن شيء مما لغيره، والآخر يتنازل عن الكثير مما بقي له. فإن لم يفعل وقع من جديد في خطيئة تفويت الفرص التاريخية: حتى لو كانت الفرصة المتاحة تسقط حق العودة وتحتال على موضوع القدس الشرقية بصيغ مضللة، وتقطع أوصال الدولة المنشودة العتيدة وأراضيها بالمستوطنات



بعد أن يطمئن العدو إلى تمكنه في الأرض، وتغلبه في معركة السلاح، ينقل الصراع إلى ساحات المعاني والمفاهيم

الإستراتيجية، وتتقضم من حدودها وسيادتها.

وفى هذا السياق، نُستدرج إلى تقديم مفهوم : الدولة، على مفهوم : الوطن، ويختزل الحلم الفلسطينى فى حق الفلسطينى فى أن يعبر عن هويته الوطنية فى دولة ما، لا فى تحرير وطنه واسترجاع حقوقه فى إطار وطنه العربى. وهذه نتيجة منطقية لفك الارتباط بين القضية الفلسطينية وعمقها العربى، بين هدف التحرير وهدف التحرر والنهوض العربيين؛ وهو نتيجة منطقية لتكريس واقع التجزئة القطرية العربية والاستفراد بكل قطر على حدة، وإزاحة القضية الفلسطينية عن مركزها القومى، حتى اختزل الدور العربى من كونه فى مجموعه طرفا فى الصراع مع المشروع الصهيونى الذى ينتظم فى المشروع الامبريالى الشامل ضد الأمة العربية، إلى أن يكون فى أحسن الأحوال مساندا للشعب الفلسطينى ومؤيدا لحقوقه، وربما ارتضى أحيانا أن يكون وسيطا محايدا بين طرفى الصراع والتنازع: إسرائيل والفلسطينيين - وربما انحط أحيانا إلى مستوى الضغط على الجانب الفلسطينى لقبول العروض الأمريكية الإسرائيلية، واتهام المقاومة، والمشاركة فى الحصار؛ وذلك كله ينسجم مع الموقف الأمريكى الذى يذكر الشعب الفلسطينى فى كل آن أن انسياقه وراء تيارات التشدد والتطرف والعنف التى تصف نفسها بالمقاومة، لا يفضى إلا لتطاول معاناته وتعطيل مشروع دولته؛ فالدولة هى الغاية حتى لو كان ثمنها التنازل عن جل الوطن والحقوق التاريخية وحرمان ستة ملايين لاجىء فلسطينى من حقهم فى العودة.

دعوة صريحة إلى الاستسلام .

البديل عن ذلك حقوق أقل، فى فرصة أخرى، فى زمن آخر، إن كانت ثمة فرصة أخرى. ودع عنك القول: هذا هو الإذعان والخضوع والاستسلام فى جوهره. فتلك أحكام أخلاقية لا تسمن ولا تغنى من جوع؛ ولا مكان لها فى فضاء السياسة العقلانية الواقعية، وهى تنتمى إلى معجم الشعارات الثورية التى لم تجلب علينا إلا الكوارث. وإن شئت أن تلح على معنى «الاستسلام»، فليكن: الاستسلام، نعم، ومن قال إن «الاستسلام» موقف مرفوض مرذول؟ هكذا يذكرنا أحد الكتاب الصحفيين فى إحدى كبريات الصحف العربية بعنوان ينقل معركة المعانى والخطابات والروايات إلى مداها الأخير: فهو لا يدعونا إلى إسقاط هذا المعنى من معجم التوصيفات السياسى، وإنما يدعونا إلى إعادة تعريفه وشحنه بدلالات جديدة، ثم تبنيه والاحتفاء به بوصفه السبيل إلى تحرير العقل السياسى العربى من آخر الأوهام الثورية البائسة.



كان ثمة حرب خضناها وخسرناها، وقد آن للمهزوم أن يقر بهزيمته النهائية ويكف عن المحاولات العبثية لإطالة حرب لا أمل له فى كسبها ولن يأتيه منها إلا المزيد من الخراب والهزائم. أما إعلان «الاستسلام»، فهو السبيل الوحيد إلى استدبار الماضى والانصراف إلى البناء والتنمية والتعمير والتقدم.

ثم يستدعى التجربة اليابانية فى الحرب العالمية الثانية، وكيف كان استسلام اليابان مقدمة ضرورية للتفرغ لانجاز المعجزة اليابانية التى نشهدها الآن : هكذا والله! ويتجاهل الكاتب قصدا على الأرجح أننا لا نتهم ذكاءه- كل الفروق التاريخية الموضوعية بين الحالة اليابانية والحالة العربية الفلسطينية. يتجاهل أن الصراع بيننا وبين المشروع الاستعمارى الصهيونى ليس صراعا بين قوى إمبراطورية على التوسع والنفوذ فى المجال الكونى، وإنما هو صراع بين المستعمر (بكسر الميم) والمستعمر (بفتح الميم)، بين قوى الاغتصاب والاقتلاع والاحتلال والتشريد والعدوان والإلحاق، والأمة التى تكافح أو ينبغى لها أن تكافح، من أجل التحرر والتحرير. وهب أننا أخذنا بالنصيحة وأعلنا الاستسلام، فمن هو الطرف المتغلب الذى ينبغى أن نوقع معه وثيقة الاستسلام: الغرب كله؟ الإمبراطورية الأمريكية؟ إسرائيل؟! ومن هو الطرف العربى الذى سيوقعها عن الأمة العربية والشعب الفلسطينى؟ الجامعة العربية مثلا، أم يكفى الشعب الفلسطينى لهذه المهمة العظيمة؟ وهب أننا فعلنا ذلك على نحو ما، فهل نتوقع بعد ذلك أن تنفتح لنا أبواب النهضة والتقدم والديمقراطية لنصير فى أعوام معدودة ما صارت إليه اليابان؟ ومن نحن الذين سنبلغ هذا المبلغ من الرقى والتقدم التقنى والقوة الاقتصادية العالمية المنافسة؟ فاليابان دولة واحدة ونحن دول؟ أم أن كل قطر من أقطارنا سيكون «يابانا» برأسه، من الصومال إلى السودان إلى مصر إلى الأردن إلى موريتانيا... وإذن لا يتسع العالم لإمبراطورياتنا الاقتصادية العظمى.

كل هذه الفروق والاعتبارات لا تردع كاتبنا الفذ من عقد المقارنة بين التجربة اليابانية والحالة العربية! فليس بيننا وبين إنجاز نهضتنا المنشودة إلا الاستسلام. هكذا تحدث حكيمنا الليبرالى الواقعى العقلانى.

وإن قيل إن اقتراح حكيمنا ذاك، غلو استثنائى، لا يقاس به، فإن المنطق الذى بنى عليه يمثل مكونا عاما فى الرواية الليبرالية الجديدة، برز إلى السطح بعد اتفاقيات كامب ديفيد المصرية الإسرائيلية فى سياق الخطاب السجالى الذى تصدى للدفاع عن الاتفاقيات والترويج لها، فى إطار حملة ايديولوجية شاملة ضد الفكر القومى برمته، والفكر اليسارى، ثم الفكر الإسلامى فى رزمة واحدة، مع تسويق تيار ليبرالى منحاز للغرب والولايات المتحدة ومدافع عن الواقع القطرى باسم الروح الوطنية، وعن اقتصاد السوق عوض الاشتراكية. فمن بين الدعاوى الرئيسية التى ساقها وما زال يسوقها ذلك التيار الليبرالى: أن المشاريع الفاشلة ومعاداة الغرب وحالة الصراع والحرب مع إسرائيل هى المسئولة عن تعطيل عملية التنمية والتقدم والرفاه الاجتماعى على المستوى القطرى، وفى المقابل فإن السلام مع إسرائيل فى إطار الانفتاح على الغرب والولايات المتحدة كفيل بأن يحرر الطاقات والموارد ويصرفها فى عملية البناء الداخلى والتقدم والرفاه والديمقراطية. وكفى الله المؤمنين القتال.

وطالما أن العملية السلمية لم تشمل المنطقة العربية فى مجملها، ولم تحل أصل الصراع: القضية الفلسطينية، فإن هذا المنطق يتجاهل مفهوم الأمن القومى والإقليمى، ويختزله فى الأمن القطرى، ويجعل الولايات المتحدة ضامنه الأول؛ مهما تفجرت بؤر الصراع والتوتر من حول النطاق القطرى. وعلى أى حال، قد كان ما قيل، أعنى السلام بين مصر وإسرائيل منذ زهاء ثلاثين سنة كافية لاختبار ذلك المنطق، ولم يرجع علينا أصحابه بتقويم المآلات ليقيموا علينا الحجة القاطعة. فأين التقدم والرفاه والديمقراطية؟! وأين أمن المنطقة وكل ما وقع ويقع فيها يهدد بتفجيرها؟! ولم يحق لأمريكا أن تعتبر العالم كله مجال أمنها القومى الذى يستدعى تدخلها فى أى قطر فيه، بينما يصر بعضنا على التقوقع القطرى إلا أن تكون المشاركة فى المشاريع الأمنية الإقليمية مطلبا أمريكيا وجزءا من محور تباركه الولايات المتحدة ويتوافق مع أمن إسرائيل.

نعم، ربما كان السبب فى عجز عملية السلام عن تحقيق وعودها فى التقدم والرفاه والديمقراطية وإنجاز تجربة يابانية أخرى، أنها لم «ترق» إلى مستوى الاستسلام حسب كاتبنا الصحفى اللوذعى! أو أن الشعوب الساذجة لم ترق بعد إلى مستوى قادتها - صانعى السلام - لتقبل على السلام وتنخرط فيه دون تحفظ.

المعجم الليبرالى العربى الجديد؟

الخطاب الليبرالى الجديد، يبنى مسوغاته على أخطاء التيارات الأخرى وعورات التجارب القومية واليسارية السابقة، شأنه فى ذلك شأن الأيديولوجيات الأخرى فى الفضاء السياسى العربى. فكل منها يقيم حجته بالسلب لا بالإيجاب؛ بما أخفق الآخرون فى إنجازه لا

> **الصـراع عـلـى المعانى ليس ظاهرة جديدة فى الفضاء السـياسى العـربى، ولكنـه اشتعل بصـورة شرسـة منـذ معاهدة كامب ديفيد**

بما نجح هو في إنجازه. وإذ يدين التجارب العملية الفاشلة فإنه يحتج بذلك على المبادئ نفسها.

فشل مشاريع الوحدة مثلا لا يستدعي نقد التجارب العملية وتحليل أسباب الفشل وإعادة النظر في الإستراتيجيات والأساليب، مع سلامة المبدأ وضرورة الغاية، وإنما يجب أن يعزى إلى جوهر المبدأ وصميم الغاية والفكر الذي يحيط بهما. والبديل هو تكريس التجزئة القطرية التي بدأت تدخل الآن في مرحلة جديدة عنوانها: تجزئة المجزأ أيضا. والهزائم العسكرية ليست وقائع ظرفية تاريخية يمكن تحليل عواملها الموضوعية الداخلية والخارجية سعيا وراء تغيير الشروط والظروف، وإنما هي دليل نهائي على ماهية ثقافية عربية ساكنة ثابتة تعيد إنتاج الانحطاط والعجز والهزيمة فيما يشبه الحتمية التاريخية التي لا فكاك منها. والبديل هو الخضوع والإذعان والاستسلام والتنازل عن الحقوق تحت مسميات السلام.

وانهيار التجارب الاشتراكية صك براءة للرأسمالية المتوحشة التي يمكن القول الآن إنها تمثل نهاية التاريخ. وانتشار ظواهر التطرف والإرهاب لا يستدعي تحليل العوامل البنيوية والسياسية التي أسهمت في خلقها، فإن ذلك يحيل من جديد إلى مظالم الإمبراطورية ووكيلها الإسرائيلي فضلا عن إخفاقات النظام العربي، والأجدر أن تنسب إلى مصادر ثقافية عربية إسلامية. وربما إلى جوهر الإسلام نفسه وصولا إلى تعميم التهمة على كل التيارات والاتجاهات الإسلامية وعلى مفاهيم المقاومة والجهاد مطلقا. وكل ذلك يتناغم مع التساؤل الأمريكي الشهير: «لماذا يكرهوننا»، ومع الإجابة الذكية الفورية «حسدا من أنفسهم لما تنعم به من الازدهار والحريات وأساليب الحياة المتقدمة». أما لماذا لم تنصرف هذه الكراهية إلى اليابان مثلا، وهي التي لا تفتقر إلى الازدهار والتقدم والحريات وأساليب الحياة المتقدمة، فسؤال يتم تجاهله.

تبقى الثنائيات المتفاصلة أساسا لفكر سياسي عربي ذي طبيعة اختزالية، وكل طرف من تلك الثنائية يستمد مسوغاته من أخطاء الطرف الآخر وثغراته وإخفاقاته. نعم، ينبغي أن نراجع تجارب الماضي وخطاباته مراجعة نقدية جريئة. فنقر أنه بدعوى أولويات المشاريع القومية (الوحدة واستكمال مشاريع الاستقلال والتحرر من التبعية ومواجهة المشروع الصهيوني والتحرير)، تم تغييب الحريات والديمقراطية والمشاركة السياسية، وتكريس الدولة البوليسية والنظم الشمولية وقتل روح المبادرة. فكانت المحصلة، أننا أخفقنا في تحقيق الأهداف القومية وخسرنا حرياتنا المدنية في الوقت نفسه. ولم يدرك الكثيرون منا آن هذا من ذاك، وأن الحريات المدنية والمشاركة السياسية ليست بديلا عن تلك المشاريع القومية، بل هي شرط لها. ثم جاء الخطاب الليبرالي الجديد، ليقتات على تلك الأخطاء، وليعكس المعادلة، فيجعل مطلب الازدهار الاقتصادي والتفرغ للتنمية والديمقراطية والحريات المدنية مسوغا للتخلي عن المشروعات القومية وعن إدارة الصراع مع المشروع الصهيوني والقوى الامبريالية التي ينتظم فيها، والجنوح إلى السلام مهما يكن ثمنه. فماذا كانت المحصلة؟ من جديد: تم إسقاط الأهداف القومية الكبرى ولم تتحقق وعود الازدهار والديمقراطية والحريات المدنية.

والأنكى من ذلك، أن ذلك التيار الليبرالي الأمريكي الهوى والوجهة الذي نصب نفسه داعيا للحريات المدنية والديمقراطية، باعتبارها العصا السحرية الكفيلة بحل مشاكل المنطقة قد انتهى في الكثير من الأحيان حليفا للسلطة مدافعا عنها محرضا لها ضد تيارات المعارضة، حين بدا أنها الأقدر على المنافسة في العملية الديمقراطية إذا ما أتيح لها ذلك في ظل انتخابات نزيهة. وظاهر الحال أن هذا التيار، وفقا للسياسة الأمريكية: يريد عملية ديمقراطية تفضي إلى وصول القوى الليبرالية المقبولة أمريكيا إلى السلطة، أما إذا كانت النتائج المتوقعة بخلاف ذلك فالأفضل تجميد العملية وعدم الإلحاح عليها. والحال، أن هذا التيار الليبرالي المتطرف على الرغم من كل ادعاءاته الديمقراطية يفضل نظاما علمانيا عسكريا على نمط الأتاتوركية يفرض برنامجه، على عملية ديمقراطية حقيقية يمكن أن تأتي بتيارات المعارضة التي ما زالت متمسكة بمعاني المقاومة والتحرر والتحرير والوحدة والأمن القومي والعدالة الاجتماعية والنهضة والقرار المستقل.

حقيقة الأمر، أن حملة هذا التيار على النظم البوليسية والديكتاتورية السابقة التي خنقت الحريات: لا يستهدف الديكتاتورية نفسها بقدر ما يستهدف الخطاب القومي ومفرداته السياسية التي اقترنت بتلك النظم، بحيث يبدو أن هناك تلازما شرطيا بين طبيعة ذلك الخطاب القومي وطبيعة تلك النظم، وأن أحدهما يحيل إلى الآخر بالضرورة. ومن هنا لابد من إضافة صفة «الفاشي» إلى عبارة «الفكر القومي» بصورة متلازمة، أو تحريف «كلمة قومي» «وقومية» إلى «قومجي» و«قومجية» بقصد التبخيس والازدراء، فضلا عن تحريف كلمة «إسلامي» إلى «إسلاموي» للغرض نفسه. أما اغتيال الحريات والتضييق على المعارضة في ظل أنظمة مقبولة أمريكيا: فيجري السكوت عنها، فالمشكلة الجوهرية ليست في الديكتاتورية وقمع الحريات، ولكن في البرنامج السياسي والمحتوى الأيديولوجي للنظام، وإلا فلماذا يختار هذا التيار أن ينضم إلى القوى المحلية والإقليمية والدولية في حملتها المنظمة ضد نتائج العملية الديمقراطية النزيهة -بشهادة الجميع- التي جاءت بحماس إلى الحكومة في فلسطين؟

ولماذا يذكرنا بطغيان نظام صدام حسين، ويصمت عن الدمار الذي أحدثه الغزو الأمريكي للعراق وأدى إلى مقتل ما يزيد على المليون وتهجير زهاء أربعة ملايين، ورد العراق إلى ما قبل الدولة الحديثة (ليبرالية كانت أم غير ليبرالية) لتصير دولة قائمة على الأنصبة الطائفية والعرقية، فضلا عن إخراجها من المنظومة العربية في واقع الحال؟! لماذا يدين هذا التيار المقاومة اللبنانية مذكرا بهويتها الشيعية وارتباطها بإيران ويؤيد في المقابل القوى السياسية العراقية الحاكمة المتضامنة مع الغزو الأمريكي. متجاهلا هذه المرة هويتها الشيعية وعلاقتها التاريخية بإيران؟ لماذا لا يذكر الرابط الإيراني حين يتقاطع مع مواقف الولايات المتحدة ويذكره فقط حين يتصادم معها؟ لماذا لا يبذل جهدا في التمييز بين الإرهاب الذي يستهدف المدنيين في العراق وغيره، وبين شرعية المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي، ولو من حيث المبدأ؟ ولماذا يتجنب ابتداء وصف الوجود الأمريكي في العراق بالغزو والاحتلال غير الشرعي، ويفضل الكلام عن «قوات التحالف»، متجاهلا أن قرار الحرب تم خارج الأمم المتحدة وأنه واجه رفضا عالميا، وأن ذرائعه قد ثبت بطلانها، فضلا عن فضائح التضليل المتعمد بشأنها؟ ولماذا يدين هذا التيار التدخل الإيراني في العراق ويتغافل عن حقيقة أن الاحتلال الأمريكي هو الذي أتاح لإيران وحلفائها العراقيين فرصة التمكن هناك؟ وكيف يمكن الجمع بين المطلبين الأمريكيين: دعم القوى الحاكمة في العراق ومواجهة حليفها الإيراني في الوقت نفسه؟.

في الديمقراطية:

الشرق شرق والغرب غرب!

من الواضح أن معيار الفرز والاصطفافات والتحيزات ليس مبادئ الليبرالية والحريات المدنية، بقدر ما هو العامل الأمريكي. والعامل الأمريكي هو بالضرورة العامل الصهيوني الإسرائيلي! وكفى تمويها في معركة المعاني! وأعظم تمويه هنا هو انتساب هذا التيار الأمريكي الهوى والبرنامج إلى «الليبرالية»، بل اختطافه لهذا المصطلح ومعناه. ففي واقع الحال والممارسة يقترب هذا التيار من طروحات «المحافظين الجدد» في الولايات المتحدة أكثر من اقترابه من التيارات الليبرالية الأمريكية نفسها التي تشن حملات نقدية شرسة



ألا ترى أيضا كيف يتجاهل الكثيرون رواية اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ ويفضلون أن تبدأ الرواية بحرب حزيران عام ١٩٦٧

ضد السياسات الأمريكية المحافظة لا نجد بعضها عند الليبراليين العرب الجدد.

نعم، آن الوقت لكي نحرر التسميات والمصطلحات والمعاني من الالتباسات التي تعمل على تلويثها، ومن القوى والتجارب التي اختطفتها ثم شحنتها بدلالات سلبية محرفة صرفتها عن معانيها الأولى. فمعركة المعاني مع التيار الليبرالي الجديد الذي حاولنا تفكيك خطابه ومقاصده، يجب ألا تذهب بنا إلى التعميم على الليبرالية بإطلاق أو على الليبراليين بعامة ولا إلى رفض مبادئ الليبرالية النظيفة المتحررة من الإملاءات والأجندات الأمريكية ومعاييرها المزدوجة. بل إن الرد الأمثل على الابتزازات الأمريكية بدعوى الحريات الليبرالية يتمثل في تبني قيم الديمقراطية والمشاركة السياسية وتطوير مؤسسات المجتمع المدني والاحتكام إلى صندوق الاقتراع والتناوب السلمي على السلطة، في إطار عملية ديمقراطية نزيهة وحراك سياسي مستقل، دون إقصاء مسبق لأي تيار سياسي يعمل بالطرق السلمية.

والحال أن الإلحاح الأمريكي على مسألة الديمقراطية والحريات المدنية بعد عقود من دعم الولايات المتحدة لنظم عسكرية ديكتاتورية شديدة البطش في أماكن مختلفة من العالم، وتدبيرها الانقلابات العسكرية على حكومات مدنية وصلت بالانتخابات الحرة، هذا الإلحاح لم يأت نتيجة لصحوة ضمير، ولا التزاما برسالة أخلاقية. ولكن لرفع الحرج الذي تسببه لها أنظمة حليفة غير ديمقراطية، ولأنها توهمت أنه بعد انحسار تيارات اليسار المعادي للولايات المتحدة، مع انهيار المركز السوفيتي، فإن العملية الديمقراطية يمكن أن تأتي بالتيارات الليبرالية الصديقة. والأهم من ذلك أن المطلب الديمقراطي جاء على خلفية التساؤل الشهير حول أسباب موجة التطرف والإرهاب والكراهية من الولايات المتحدة، فكانت إحدى الإجابات المقترحة: غياب الديمقراطية الذي يدفع الشعوب إلى معاداة حكوماتها، ليمتد العداء إلى راعيها الأمريكي. وبذلك تصرف الولايات المتحدة التهمة عن دور سياساتها الخارجية في إطلاق موجة الكراهية والتطرف، وتصرفها، بدلا من ذلك، إلى أسباب محلية داخلية. وهكذا تقلب الحقيقة تماما، وهي أن العداء لأمريكا بسبب سياستها الخارجية، هو أحد أهم أسباب عداء الشعوب لأنظمتها المحلية المتهمة بالتواطؤ مع الولايات المتحدة والخضوع لإملاءاتها وليس العكس.

أما النظام العربي نفسه، فينطوي على مفارقة كبرى في هذا السياق. إذ يبقى ممتثلا للإملاءات الأمريكية معظم الوقت، باسم المصالح المشتركة والسياسات الواقعية العملية، حتى إذا طالبه الراعي الأمريكي بمزيد من الحريات المدنية وحقوق الإنسان والديمقراطية (بغض النظر عن المقاصد والغايات)، وجد الشجاعة الغائبة أخيرا للاعتراض على التدخل الأمريكي والدفاع عن السيادة والقرار المستقل. وربما تذكر هنا فقط أن الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب، لأنهما قد يلتقيان على كل شيء ماعدا الديمقراطية «الدخيلة» التي تتعارض مع خصوصياته الثقافية وهويته الحضارية: لا خطر على هويتنا الثقافية ووجودنا الحضاري من الهيمنة الغربية الأمريكية إلا في مجال واحد: الديمقراطية والحريات. والواقع أن هذه المفارقة تنسجم تماما مع الطبيعة الأيديولوجية للنظام العربي الرسمي الذي يمسك العصا من الوسط. فيحتفظ بقدر معلوم من العلمانية الغربية يكفي لقمع المعارضة الإسلامية باسم التقدم والاستنارة ومواجهة الرجعية والظلامية، وبقدر معلوم من الإسلام يكفي لقمع المعارضة العلمانية باسم الدفاع عن الهوية الحضارية والخصوصيات الثقافية والدينية. ثم لا يكون هذا ولا ذاك!

وهذا يفسر، من جهة أخرى، لماذا تجد بعض القوى الليبرالية نفسها أحيانا في صراع مع النظام، وربما عمدت إلى الاستقواء بالقوى الخارجية أحيانا، ثم تجد نفسها حليفا له ومدافعا عنه في وجه المعارضة لسياسات الولايات المتحدة، سواء أكانت إسلامية أم قومية أم يسارية. معايير مزدوجة تطبع الأقانيم الثلاثة: الولايات المتحدة، ووكيلها المحلي الرسمي، والليبراليين المتطرفين الجدد دعاة الانفتاح على الطريقة الأمريكية.



تحرير المعاني

وبقدر ما يملي علينا صراع المعاني أن نُحرّر معنى الحريات الليبرالية والديمقراطية ممن اختطفوها وحرفوا مقاصدها، فقد آن الأوان أيضا لأن نسترد المعاني القومية والإسلامية والتحررية ممن اختطفوها منا، وقدموا من خلال أخطائهم وممارساتهم المتطرفة المسوغات التي يحتج بها المروجون لثقافة الاستسلام والإذعان والخضوع للبرامج الأمريكية الصهيونية في المنطقة. آن الأوان لنُحرّر تلك المعاني والمبادئ من عبء التجارب الفاشلة الماضية. وفي الوقت نفسه، آن الوقت لنتحرر من شرك الثنائيات الأيديولوجية المتفاصلة التي تتبادل الإقصاء. وأن نستعيد المبادرة في معركة المعاني:

– فندين «الإرهاب» بالإسلام في مواجهة من يتوسلون ظاهرة الإرهاب لاتهام الإسلام نفسه.

– وإذ ندين «الإرهاب»، فإننا نقاوم الرواية الأمريكية التي ترد ظاهرة «الإرهاب» إلى مصادر ثقافية تربوية عربية إسلامية، لتخفي دور العوامل البنيوية التي أسهمت إسهاما جوهريا في إطلاق الظاهرة، وخلقت الظروف المادية والنفسية المناسبة لنموها، وفي مقدمتها المظالم التي ارتكبتها وترتكبها الإمبراطورية الأمريكية ودعمها المطلق للسياسات الإسرائيلية وتجاهل الحقوق العربية والفلسطينية وتخاذل النظام العربي وخيباته. ولا ننكر هنا أن ثمة منابع فكرية أسهمت في إنتاج ظاهرة التطرف ومن ثم الإرهاب، وأنه ينبغي معالجتها على الصعد الثقافية والتربوية والدينية، ولكن حصر الأسباب في هذه المنابع تضليل وتلبيس.

– كما أن علينا أن نقاوم التعريف الأمريكي الضيق للإرهاب الذي يجعله اختصاصا عربيا إسلاميا ويحصره في التنظيمات والجماعات العنفية. فإن أي تعريف للإرهاب يتجاهل إرهاب الدولة والإرهاب الإسرائيلي وإرهاب السياسات الخارجية الأمريكية، يفتقر إلى المصداقية والقبول.

– كذلك ينبغي ألا نخضع للابتزازات التي تلوح لنا بتهمة «الإرهاب»، لنسقط من معجمنا معاني المقاومة والجهاد، أو نستعملها بصوت خفيض خجول، مع استدراكات اعتذارية دفاعية تبريرية خشية التباسها مع «الإرهاب» والتطرف. ألا ترى كيف عملت الرواية الليبرالية الأمريكية على تلويث معنى الجهاد بخلطه قصدا مع «الإرهاب»، حتى صار بعض كتابها يستعملون مصطلح «الجهاديين» و«الجماعات الجهادية» وصفا للحركات «الإرهابية»؟! علينا من جديد تحرير المصطلح ممن اختطفوه منا. ليبقى الجهاد ضد الاحتلال والغزو ذروة سنام الإسلام. ولتبقى المقاومة المشروعة أنبل صور النشاط الإنساني. إن إسقاط معاني المقاومة والجهاد يضمر تغييب الشروط والأسباب والسياقات التي تملي استدعاءها وإنزالها على الواقع. فالمقاومة لا تتعرف بذاتها، وإنما تتعرف بنقائضها وأضدادها: الاحتلال والغزو والإذعان والاستسلام. ولذا فإن تغييب معاني المقاومة يضمر تغييب واقع الاحتلال والاغتصاب والغزو من فضاء التصورات والمعاني والخطابات، لتحل مكانه توصيفات أخرى مضللة كالتنازع على الحقوق.

أما التأكيد على معاني «الاحتلال» و«الغزو» فهو تأكيد على معنى «المقاومة» المشروعة في المقابل، والتأكيد على معنى المقاومة يستدعي التأكيد على نقيضه وشرطه: الاحتلال والغزو، مثلما يذكر بنقيضه الآخر في الجبهة الداخلية: الإذعان والخضوع والاستسلام.

وبالمثل، فإن علينا أن نرد الاعتبار للمعاني المبدئية التي تعرضت وتتعرض لهجوم شنيع من خلال الربط المتعسف بينها وبين التجارب الماضية الفاشلة ربطا شرطيا. فكما أن علينا أن نسترد الإسلام من

انظر كيف يحتفل
الإسرائيليون بما وقع عام ١٩٤٨
على أنه استقلال الشعب الإسرائيلي من القوة
الاستعمارية البريطانية
الطارئة على وطنه (؟!)

تيارات التطرف والإرهاب التي اختطفته، فإن علينا أن نسترد معاني الوحدة والعروبة والعدالة الاجتماعية والتحرر من التبعية وتحرير الأرض من تجارب النظم البونيسية القمعية التي رفعت تلك الشعارات ثم أخفقت في إنجاز وعودها وانتهت بنا إلى الكوارث المشهورة. فالبديل عن الطغاة ليس الغزاة، بل إن الطغاة في التاريخ كانوا دائما شرط الغزاة. وكيف ندين أشكال المعارضة الداخلية العنيفة المتطرفة ضد الأنظمة المتسلطة ثم نرضى بالتدخل العسكري الأجنبي لتحريرنا منها بقوة الغزو والسلاح؟

إن البديل المجدي للتطرف باسم الدين، هو الفهم الوسطي المعتدل له. والبديل عن التجارب الفاشلة للوحدة، ليس إسقاط المعنى والمبدأ وتكريس واقع التجزئة القطرية، إنما هو تطوير إستراتيجيات واقعية حكيمة لخدمة المبدأ وتحقيق الغاية. وإن البديل عن جملة الإخفاقات في مواجهة المشروع الصهيوني ليس الإذعان له والتنازل النهائي عن الحقوق، ولكنه مراجعة أسباب الإخفاقات واستثمار القدرات والإمكانيات العربية الكامنة وتصويب الاختلالات السياسية والمادية والثقافية والاجتماعية التي أفضت إلى هزيمة النظام العربي أمام العدو، وإلى هزيمة الشعوب العربية أمام النظام العربي. وإن البديل عن انهيار التجارب الاشتراكية ليس الرأسمالية المتوحشة بأشكالها الجديدة المتطورة ولا استئثار القلة بثروات العالم وسحق الغالبية الضعيفة الفقيرة، وإنما البديل نظام عالمي ومحلي متوازن يحقق مبدأ العدالة الاجتماعية والإنسانية والتضامن والتكافل دون أن يجني على الحريات أو يصادر الحقوق وروح المبادرة.

وفي هذا السياق من معركة المعاني، ينبغي ألا تدفعنا الرواية الأمريكية إلى الخجل من استعمال مصطلحات الاستعمار والامبريالية والاستغلال الرأسمالي في وصف الواقع السياسي الاقتصادي الدولي، خشية أن تحيل هذه إلى الشيوعية الدولية المنحسرة والتجارب الاشتراكية الفاشلة في الدول النامية وشعارات الثورة العالمية في عقد الستينيات. فالاستعمار والامبريالية لم يكونا اختراعا سوفيتيا عملت الآلة الدعائية على الترويج لهما في سياق الحرب الباردة، حتى إذا انهار الاتحاد السوفيتي، انهارت معه تلك المعاني والأوهام. حقيقة الأمر أن الامبريالية الرأسمالية كانت قبل الاتحاد السوفيتي، وأثناء وجوده، وزادت تغولا وشراسة بأشكال جديدة بعد انهياره. فهل يجب أن ننتظر حتى تنفجر أزمات النظام الرأسمالي الامبريالي بمستوى كارثي كي نعيد الاعتبار لمعاني العدالة الاجتماعية في مقابل الاستغلال الرأسمالي والهيمنة الامبريالية؟!

بعد ستين سنة من النكبة المستمرة، لم تتغير حقائق الصراع مهما اجتهد الخطاب الامبريالي الأمريكي الهوى في تحريف الرواية وتشويه المعاني.. إسرائيل مشروع استعماري إحلالي استيطاني ودولة وظيفية تنتظم في البرنامج الاستعماري الامبريالي الشامل ضد الأمة العربية ومشروع نهضتها وتوقها للتحرر من التبعية وتحرير الثروات والوحدة واستئناف دورها الحضاري في الفضاء الإنساني. وإذا كانت الاستجابة على قدر التحدي، فإن القضية الفلسطينية في المقابل تبقى القضية المركزية للعرب ولا تنفصل عن عمقها العربي، وهي بذلك تنتظم في مشروع النهوض العربي بكل جوانبه المادية والثقافية والروحية والسياسية التي تتضمن شرط التحول الديمقراطي الصحيح غير المرتهن للأجندات الأجنبية والذي يجمع تعريفه بين البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية. فلا يقصي الحريات المدنية والسياسية انطلاقا من مفهوم ضيق للديمقراطية الاجتماعية، ولا يتجاهل الحقوق الاجتماعية بدعوى المبادئ الليبرالية.

نزعم أن هذا التصور ليس مجرد خيار أيديولوجي، بقدر ما هو تمثيل لحقائق الواقع التاريخي، ولذا كان من الطبيعي أن ينتظم صراع المعاني حول القضية الفلسطينية في الإطار الأوسع لصراع المعاني حول الوضع العربي بعامة.



الرواية الفلسطينية هي بالضرورة عقدة رئيسة في الرواية العربية الشاملة. والخيارات في صوغ مفرداتها وتعريف معانيها هي الخيارات التي يتبناها هذا الطرف أو ذاك في توصيف الواقع العربي وتشكيل مساره. فالمعجم السياسي الذي يتضمن معنى المقاومة والتحرير هو نفسه الذي يتضمن معاني الأمة العربية والوطن العربي والوحدة والتحرر والنهوض والديمقراطية الحقيقية والتكامل والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية والأمن القومي، ورفض سياسات الإذعان والاستسلام والهيمنة الامبريالية والتبعية والاستغلال والفساد والديكتاتورية.

والمعجم المقابل لا يسقط معاني المقاومة والتحرير إلا ليسقط معها كل المفردات الأخرى السابقة، ليحل مكانها منظومة من المعاني تشمل القطرية الضيقة بدعوى الهوية الوطنية، والشرق الأوسط، والسلام الذي لا يتأسس على العدل ويضمر الإذعان للأمر الواقع، والانفتاح الذي يبطن التبعية والرأسمالية المتوحشة غير المنضبطة بمحددات العدالة ومنع الاستغلال وحماية الطبقات الفقيرة والرعاية الاجتماعية... الخ.

هل يعني دفاعنا عن نظام المعاني التحررية، أننا ندعو إلى دق طبول الحرب، والانغلاق على الذات أو العمل بمقولة «الكل أو لا شيء» كما يحب أصحاب المعجم الآخر أن يصوروا منظومة المعاني التي نتمسك بها؟

إعادة الاعتبار للثوابت الفلسطينية

نعلم أن الطريق ما زال طويلا، وأن موازين القوى لا تعمل الآن لصالحنا وأن النظام العربي لا يملك القدرة ولا الإرادة السياسية ولا القرار المستقل، وأنه جزء من المشكلة أكثر منه جزءا من الحل. ولكننا نعلم أيضا أن هذا الواقع ليس نهاية التاريخ وليس قدرا محتوما ومؤبدا لكي نؤسس عليه خياراتنا النهائية بدعوى العقلانية والواقعية. وإن قيل إن السياسة هي «فن الممكن» فإن هذا لا يعني أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، بل إن جوهر المشكلة أننا لم نستثمر إمكانياتنا الكامنة لخلق واقع جديد حتى تحت سقف النظام العربي القائم. الواقع الراهن ليس نتاجا للإمكانيات، بقدر ما هو نتاج لتعطيلها. فإن قيل: «هل يعني هذا أن نرفض مبادرات السلام والتسوية السياسية حتى تستكمل مشروع النهضة والتقدم وتعتدل موازين القوى» قلنا: امضوا على بركة الله، لن نهرب من الحاضر إلى المستقبل، ولن ندعو إلى تعطيل فرص التسوية المرحلية أو تخريبها، ولكننا نطالب بالإجابة عن سؤالين:

- ما هي حدود التنازلات التي ترضون بتقديمها للقوة المتغلبة من أجل تسوية سياسية مقبولة في الظرف التاريخي الراهن؟ هل يشمل ذلك التنازل عن القدس وحق العودة لستة ملايين لاجئ مثلا؟!

- وإن أصرت إسرائيل وحليفها الأمريكي على تلك التنازلات وعلى تعطيل قرارات الشرعية الدولية، فأحبطت بذلك عملية السلام، فما هي خطتكم البديلة، أو خياركم البديل، وقد أعلنتم من قبل أن السلام هو الخيار الإستراتيجي الوحيد، وعملتم على إقناعنا بأنه لا قبل لنا بتغيير شروط الواقع القائم؟

هذه ليست أسئلة تعجيزية سجالية. أوليس هناك مبادرة عربية للسلام ارتضت بالأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ مقابل اعتراف عربي كامل بإسرائيل مع ما يستتبع ذلك من استحقاقات التطبيع؟ أين ذهبت تلك المبادرة ومن هو الطرف الذي تجاهلها وفوت ما تمثله من «فرصة تاريخية للحل»؟ وما الذي يمكن أن نقدمه من تنازلات أكثر من تلك المبادرة المنسية؟

وأين ذهبت قبلها اتفاقيات أوسلو وتداعياتها؟ الحقيقة التي لا يريد تيار «الاعتدال العربي» مواجهتها أن التيارات «القومجية» و«الإسلاموية» واليسارية ليست مسئولة عن تعطيل الخيار الإستراتيجي الوحيد وإنما هي «إسرائيل» تحديدا، وأن تفويت الفرص، منذ رضي العرب والفلسطينيون بمبدأ

ولكن الأخطر من عدم تحقق الأحلام في الواقع هو المحاولات المنظمة لمصادرة الأحلام نفسها، وإعادة تعريفها لتعني «الأوهام» غير القابلة للتحقق أصلا

التسوية السياسية فى إطار قرارات الشرعية الدولية: هو صناعة إسرائيلية أمريكية بامتياز.

بعد ستين سنة من النكبة: فإن التعنت الإسرائيلى وغطرسة القوة، وإخفاق تيار «الاعتدال» العربى، حسب التعريف الأمريكى، فى إنجاز وعوده فى السلام العادل والتكامل والازدهار والرفاهية والتقدم فى ظل السلام، يكفينا ذلك كله مهمة السجال مع نظام المعانى الذى عمل التيار الليبرالى المتطرف على إنتاجه والترويج له، ويلزمنا بالقدر نفسه أن نعيد الاعتبار لنظام المعانى التحررى النهضوى بكل مفرداته، بتعريفات جديدة تحرره من عبء التجارب الفاشلة والأخطاء الماضية، وبصوت قوى واضح لا تشوبه النبرة الاعتذارية الدفاعية تحت وطأة الابتزازات المعنوية التى يمارسها الطرف الآخر. وهب أن جهود التسوية أثمرت حلا مرحليا ما للقضية الفلسطينية، يقنع به الفلسطينيون تحت وطأة الظروف القاهرة: فهل يعنى ذلك أن الأمة العربية قد أنجزت مشروع تحررها ونهضتها وحققت أهدافها الكبرى ليكون مسوغا للتخلى عن معجم المعانى التحررية؟ بل لنفترض جدلا أنه لم يكن ثمة قضية فلسطينية أصلا، أو ليس للأمة العربية قضية كبرى وأهداف إستراتيجية تاريخية نهضوية تنموية تصطدم بعوامل التخلف الذاتى والبنى الاجتماعية التقليدية مثلما تصطدم بظروف التبعية والإلحاق والتجزئة القطرية وقوى الهيمنة الامبريالية؟! من جديد: نستذكر أن المشروع الصهيونى ينتظم فى المشروع الغربى الاستعمارى الامبريالى الذى يستهدف الأمة العربية بجملتها، وأن أهداف التحرر والنهضة والتكتل العربى والديمقراطية ليست مجرد شروط مطلوبة لمواجهة المشروع الصهيونى، فإذا وجدت القضية الفلسطينية حلا فلن تنتهى دواعى تلك الأهداف والغايات القومية الإسلامية، ومعها نظام المعانى التحررية المرتبطة بها. بل نزعم أن التوصل إلى حل سياسى للقضية الفلسطينية فى ظل المحددات القائمة: يدعو التيارات النهضوية العربية الإسلامية إلى مزيد من النشاط المنظم للدفاع عن تلك المعانى وتوظيفها من أجل التغيير، ولمواجهة الاختراق الإسرائيلى للوطن العربى فى إطار استحقاقات السلام، وللتمسك بالرواية العربية الفلسطينية التاريخية عن اغتصاب الوطن الفلسطينى والمشروع الصهيونى، ولحماية الذاكرة التاريخية الفلسطينية ومكوناتها الرمزية. فالوطن الفلسطينى يبقى الوطن الفلسطينى حتى لو أملت الظروف المرحلية القاهرة ألا تتطابق حدود الدولة المحتملة مع حدود الوطن التاريخى. وما حدث عام ١٩٤٨ ليس «استقلال إسرائيل» وإنما هو اغتصاب الوطن الفلسطينى وتشريد شعبه.

وإذا لم يكن فى وسع يهود العالم أن يغفروا لهتلر والنازية جرائم المحرقة: فلن يكون فى وسع الشعب الفلسطينى والأمة العربية أن يغفروا لإسرائيل جرائم الاغتصاب والإحلال والاحتلال والتشريد والبطش والتجويع، حتى لو تم التوصل الى تسوية سياسية ما. وهذه المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج هى الوطن العربى الذى يتعرف بهويته الحضارية العربية الإسلامية. وليس ما تريد لها التعريفات الجيوسياسية الملغومة أن تكون: الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لإسقاط هويتها القومية العربية الإسلامية إلى الأبد، وإعادة تعريفها بما يتيح لإسرائيل الاندماج بها من موقع مركزى متحكم.

على أن إحياء نظم المعانى التحررية النهضوية يقتضى من تيارات المعارضة المختلفة أن تتحرر من عبء صراعاتها الأيديولوجية الماضية وأن تلتقى على أمر جامع وكلمة سواء. إذ إن الدفاع عن نظم المعانى التحررية ومدافعة نظام المعانى النقيض يشكلان مساحة مشتركة للتلاقى والتعاون. أما الخلافات الأيديولوجية فإن التوافق على العملية الديمقراطية الحرة والاحتكام إلى خيارات الشعب، كفيل بإدارة الحراك السياسى وتنظيم التدافع العقدى السياسى بطرق بناءة تحول دون الإقصاء المتبادل.

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من الممارسات السلوكية المرذولة كالكذب والسرقة والبخل والخيانة والجبن. ولكن هذه تبقى معانى وقيما سلبية مرفوضة فى المرجع الثقافى المشترك وما يشتمل عليه من نظم المعانى والمفاهيم والقيم، وحتى من يمارسها فإنه لا يُعلن بها ولا يتفاخر بها كيلا يتعرض للوصمة الاجتماعية أو يفقد عضويته فى الهيئة الاجتماعية، وفى أسوأ الظروف فإنه يلتمس لها تأويلات وتعريفات أخرى تخرجها من المعانى المرفوضة اجتماعيا إلى المعانى المقبولة، فيدعو التخاذل مثلا حكمة وتقيّة أو واقعية وعقلانية. والبخل اقتصادا وتدبيرا، والسرقة استرجاعا لحقوق ممنوعة، وقس على ذلك. ومعنى ذلك أن المجتمع مازال يحتكم إلى منظومته القيمية الجامعة حتى لو انحرفت بعض الممارسات العملية عنها. ولكن الكارثة الكبرى هى أن تنقلب المعانى إلى أضدادها: فيصير الكذب والجبن والخيانة قيما مقبولة لا تعيب صاحبها ولا يستتر منها، بل ربما فاخر بها. حينئذ، يصبح «التطهر» تهمة يستحق «الموصومون» بها عقوبة الطرد والإقصاء. أفلم يقل قوم لوط فى نبيهم ومن معه (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)/ الأعراف الآية ٧. عندئذ فقط تأتى الخاتمة المريعة وتصبح الجماعة خبرا من الماضى وأثرا بعد عين. الصراع على نظم المعانى، هو فى آخر المطاف، صراع على الوجود.. لا على الحدود. ■

كتاب الزاوية

ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

قبل عامين بالضبط تحديدا فى ٨ مارس ٢٠٠٧ كتب «سيد إمام الشريف» الشهير بالدكتور فضل، الأمير الأول ومنظّر تنظيم الجهاد فى مصر وثيقة «ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم». الوثيقة التى أثارت فى حينه جدلا كبيرا ؛ جاءت فى أكثر من ١٠٠ صفحة. وبدأها كاتبها بمقدمة يشير فيها إلى السبب الذى دعاه إلى مراجعة أفكار تنظيم «الجهاد». وهو انتشار المخالفات الشرعية فى ممارسات الجماعات الإسلامية أثناء صداماتها المتكررة مع السلطات، إذ استندوا إلى مبدأ التترس المعروف فقهيا؛ ليسفكوا الدماء ويتنفوا الأموال، حتى وصلوا إلى قتل الناس على الجنسية وعلى المذهب وبسبب ألوان شعرهم.

«الدكتور فضل»، الذى عُرف لاحقاً باعتباره مفتى تنظيم «القاعدة»، كان قد زامل أثناء دراسة الطب الدكتور الظواهرى فى جامعة القاهرة التى تخرج فيها العام ١٩٧٤ فى ذروة مباركة الرئيس الراحل أنور السادات عمل التيار الإسلامى فى الجامعات المصرية.

ولم يخرج اسم الشريف إلى العلن إلا بعد إحالة «قضية الجهاد الكبرى» عقب قتل السادات إلى القضاء، إذ وجهت إليه تهمة «كتابة الأبحاث لتحديد فكر الجماعة»، خصوصاً الموقف من بعض التيارات الفكرية الإسلامية فى الساحة. لكن المحكمة برأت ساحته غيابيًا، بعدما كان وصل إلى باكستان. التى بدأ فيها رحلته الطويلة التى انتهت الى كتابة الوثيقة التى ننشر، مع كثير من التحفظ، أجزاء منها هنا :

إسرائيل ..

صالح النعامي

ذهلت السيدة عندما اندفع طفلها مذعوراً باكياً الى داخل المنزل، وجارها ضخم الجثة يطارده. ولما لم تسارع الام الواقعة تحت هول الصدمة لنجدته، اندفع طفلها نحو الحمام، فما كان من الجار إلا أن اقتحم الحمام في أثره حتى أمسك به، وأخرجه، وأمام ناظري أمه قام بضربه بشكل مبرح وبعد ذلك قام بعضه. وقع هذا الحادث قبل سبع سنوات، في مستوطنة «نوكديم»، الواقعة في محيط مدينة «بيت لحم». لم يكن هذا الجار المتوحش سوى مفاجأة الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة افيغدور ليبرمان، رئيس حزب «إسرائيل بيتنا» اليميني المتطرف الذي سجل مفاجأة كبيرة عندما فاز بخمسة عشر مقعداً؛ ليحل في المرتبة الثالثة بعد حزبي «كاديما» و«الليكود»، ويتفوق على حزب العمل بزعامة إيهود براك، وهو الحزب الذي بنى الدولة وقادها على مدى عقود من الزمن. في هذه الانتخابات حقق اليمين فوزاً واضحاً إذ أن مجموع ما حصلت عليه الأحزاب اليمينية بشقيها الديني والعلماني هو ٦٥ مقعدا في الكنيست، وهذا ما يعني أن أي حكومة ستشكلها ستحظى بأغلبية مستقرة. وفي المقابل فأن أحزاب ما يعرف بـ «يسار الوسط» و«اليسار» ممثلة في حزبي كاديما والعمل وحركة «ميريتس» قد حصلت مجتمعة على ٤٤ مقعدا فقط. وقبل الاستفاضة في رصد وتحليل الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج، فانه يتوجب التنويه إلى نقطة بالغة الأهمية؛ وهي أن تصنيف الأحزاب الإسرائيلية الى يسار ويمين هو تصنيف مضلل. فعلى صعيد السياسات الاجتماعية الاقتصادية، نجد أن احزاب اليسار الإسرائيلي وبخلاف كل الأحزاب اليسارية في العالم تدافع عن اقتصاديات السوق والخصخصة. وإن كان الانتماء لليسار يعني تبني موقف معتدلة من الصراع مع العرب، نجد أن تحالف أحزاب يسار الوسط ممثلة في «كاديما» والعمل هو الذي أدار الحرب الإجرامية على قطاع غزة، وهي الحرب التي لم تجرؤ أي حكومة في إسرائيل على شنها.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا انهار اليسار الإسرائيلي على هذا النحو غير المسبوق، ولماذا تعاظمت قوة اليمين؟، هل الصراع مع العرب وتداعياته هو العامل الرئيسي المؤثر على تعاظم اليمين وتهاوي اليسار في إسرائيل؟. نحن هنا سنحاول رصد الأسباب التي أرست موازين القوى في الحلبة الحزبية الإسرائيلية على هذا النحو.

التغيرات الديموغرافية والإثنية

الباحث والمؤرخ الإسرائيلي شلومو بن عامي الذي شغل منصبي وزير الخارجية والأمن الداخلي سابقاً يرى أن أهم الأسباب التي قادت الى تعاظم اليمين الإسرائيلي وتراجع اليسار هو التغيرات الديموغرافية والإثنية التي طرأت داخل إسرائيل، وليس بتأثير الصراع العربي الإسرائيلي. ويشير بن عامي الى انه خلال العقود الثلاثة الماضية أسفرت التغيرات الديموغرافية عن تبلور ثلاثة قطاعات سكانية رئيسية داخل إسرائيل. وهي: المهاجرون الروس الجدد، والشرقيون، والمتدينون، منوهاً إلى أن هذه التجمعات أصبحت تضم حوالي ٨٠٪ من المستوطنين اليهود في إسرائيل. ويضيف بن عامي أن قوى اليسار لم تنجح في اختراق هذه التجمعات، التي خضعت منذ البداية إلى تأثير نخب متققة ذات توجهات يمينية صرفة. حسب بن عامي فإن المهاجرين الروس لوحدهم يشكلون ٢٠٪ من إجمالي عدد المستوطنين في إسرائيل، ولا يوجد لليسار تأثير يذكر على هذا التجمع السكاني الكبير.

من ناحيتها أشارت النسخة العبرية لموقع صحيفة «هارتس» على شبكة الانترنت إلى أن حسب النتائج، فأن المهاجرين الروس قد منحوا حزب ليبرمان ١٠ مقاعد من أصل ١٥ مقعداً حصل عليها في الانتخابات، وهذا يعني الدور الحاسم للروس في تعزيز قوة اليمين المتطرف.

البرفسور سامي ساموحا، استاذ علم الإجتماع السياسي في جامعة حيفا يتفق مع بن عامي ويضيف أن هناك عاملين دفعا المهاجرين الروس الجدد لتبني التوجهات اليمينية المتطرفة، وهما:

أولاً: الرغبة في التميز عن المهاجرين المخضرمين، منوهاً الى أنه يكاد يكون أمراً مسلماً أن يندفع المهاجرين الجدد لتبني المواقف اليمينية المتطرفة، واتخاذ مواقف عنصرية من العرب للتدليل على اخلاصهم لـ«الوطن الجديد»، على اعتبار أن المواقف العدائية من العرب ينظر إليها كدليل على «الوطنية»، مشيراً الى أن الذي يدلل على الرغبة في التمايز هو حرص المهاجرين الجدد على التطوع للخدمة في الوحدات المختارة والخاصة في الجيش الإسرائيلي عندما يحين موعد خدمتهم العسكرية الإلزامية. ويضيف ساموحا: «تبني المواقف المتطرفة هي ماركة الوطنية المسجلة في إسرائيل بالنسبة للمهاجرين الجدد».

ثانياً: التعرض لتأثير النخب المتطرفة، ففي الوقت الذي أهمل اليسار الإهتمام بالمهاجرين الجدد، فأن اليمين حرص على احتضان النخب المثقفة لديهم، ومساعدتها على بناء منابر اعلامية خاصة بها. فمثلاً الأغلبية الساحقة من هيئات تحرير الصحف الروسية الصادرة في إسرائيل وقنوات التلفزة ومحطات الإذاعة باللغة الروسية، وكذلك الصحافيون والمعلقون العاملون في وسائل الإعلام هذه يتبنون المواقف اليمينية المتطرفة. وإذا عرفنا أن الأغلبية الساحقة من المهاجرين الروس الجدد لا يتحدثون العبرية رغم أنه مضى على الكثير منهم حوالي عقدين من الزمن، ويعتمدون على وسائل الإعلام باللغة الروسية استقاء المعلومات، فإن هذا يعني أنه سيظلون عرضة لعمليات غسيل المخ باللغة الروسية، الأمر الذي يعزز فقط الميول اليمينية المتطرفة لدى هذه الشريحة الكبيرة.

وفيما يتعلق بالشرقيين، فان البروفيسور يهودا شنهاف وهو رئيس جميعة «قوس قزح شرقي»، التي تدافع عن حقوق اليهود الشرقيين في إسرائيل يرى أن معظم الشرقيين يرون أن الأحزاب اليمينية هي الكفيلة بالدفاع عن حقوقهم ومصالحهم و«إنصافهم من الغبن الطائفي» الذي يعانون منه منذ الإعلان عن الدولة، منوهاً الى أن الاستلاب لهذه القناعة دفع اليهود الشرقيين لمنح ولائهم بشكل أساسي إما لحزب الليكود، أو حركة «شاس» الأرثوذكسية ذات التوجهات المتطرفة التي رفعت راية رفع الغبن ومواجهة التمييز ضد الشرقيين.

وفيما يتعلق بالمتدينين، فأن المرء لا يحتاج أن يستفيض في شرح أسباب اندفاعهم نحو التوجهات المتطرفة، لخضوع المتدينين بشقيهم الصهيوني والأرثوذكسي لتأثير مرجعيات دينية متطرفة.

رواج نظرية «انعدام الشريك»

من ناحيته يرى المفكر والكاتب الإسرائيلي عكيفا الدار أن أحد أهم الأسباب التي دفعت الرأي العام الإسرائيلي للانجراف نحو التطرف هو اعتقاده أنه لم يعد هناك شريك فلسطيني أو عربي في أي تسوية مستقبلية للصراع. وفي تحليل لنتائج الانتخابات الإسرائيلية يشير الدار الى مفارقة هامة تتمثل في حقيقة أن ايهود براك زعيم حزب العمل، والذي يصف نفسه بـ«زعيم معسكر السلام»، هو المسؤول عن رواج نظرية «انعدام الشريك». ويضيف الدار أنه في مطلع العام ٢٠٠١؛ بعد انهيار مؤتمر «كامب ديفيد»، الذي جمع براك وكان وقتها يشغل منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات؛ واندلاع انتفاضة الأقصى، خرج براك للجمهور الإسرائيلي وأطلق عبارته الشهيرة: «أقر واعترف أنه لا يوجد شريك فلسطيني في التسوية، لقد عرضنا على عرفات القمر، لكنه اختار أن يرد علينا بالإرهاب». وسائل الإعلام الإسرائيلية التي كانت تشرف عليها النخب ذات التوجهات اليسارية تلقفت أقوال براك وتبنتها وروجت لها، فتسربت

الجمهور الإسرائيلي يعي أنه لا يوجد في الحقيقة ثمة فروق بين أحزاب اليسار واليمين في إسرائيل

اليمين القادم

فى ظل وجود حكومة اليمين لن يكون بوسع «محور الاعتدال» بمواصلة التبشير بثمار «المسيرة السلمية»



لوعى الجمهور الإسرائيلى كحقائق مسلم بها. ويشير إلدار إلى أنه على الرغم من أن الجمهور الإسرائيلى يؤمن بأن حل الصراع يتطلب تسوية سياسية ما على الرغم من عدم استعداده لدفع الثمن المطلوب لإنج، فأنه بات لا يؤمن أصلاً بوجود شريك. لكن الكاتب والباحث ارييه شافيت وإن كان يتفق مع الدار حول حقيقة تلقف الجمهور الإسرائيلى لفكرة «اللاشريك»، فإنه يرى فى المقابل أن الجمهور الإسرائيلى لم يعد يؤيد حتى مجرد وجود عملية سياسية، فلسان حاله يقول «ما الجدوى من مفاوضات مادام ليس هناك شريك». ويستخلص شفيت من ذلك أن المزيد من القطاعات الجماهيرية فى إسرائيل قد حولت ولاءها لليمين وأحزابه، مشيراً إلى أن هذا كرس قوة اليمين مع مرور الزمن، متوقعاً أن تزداد قوة اليمين. تسفى هارئيل المعلق فى صحيفة هارتس يرى أن تشرب نظرية «انعدام الشريك» أدى الى تحمس الجمهور الإسرائيلى للإجراءات القمعية ضد الفلسطينيين.

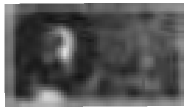
الحرب على غزة

من المفارقة ذات الدلالة أنه على الرغم من أن الحرب الإجرامية التى شنتها إسرائيل على غزة أشرفت عليها حكومة تدار من قبل يسار الوسط واليسار، وعلى الرغم من الشعور بالرضا العارم الذى اجتاح المجتمع الإسرائيلى فى اعقاب الحرب، فإن هذه الحرب تحديداً قد أدت إلى ارتفاع أسهم اليمين الإسرائيلى. الباحث زئيف سيجل يقول أنه يمكن تفهم هذا التوجه الذى يبدو لأول وهلة غير منطقى، لأنه كان من المفترض أن تؤدى الحرب الى ارتفاع أسهم حزبى كاديما والعمل اللذين أدارا الحرب، منوهاً إلى أن هذا لم يحدث لأن الحرب فتحت شهية المجتمع الإسرائيلى الذى تحطمت كرامته فى حرب لبنان الثانية لخيار القوة، وهو يرى أن الإسرائيليين يعتقدون أن قادة اليمين يمكنهم أن يتصرفوا فى الحرب القادمة بشكل أكثر وحشية وقوة وحسماً من اليسار ويسار الوسط. ويؤكد تسفى بارئيل أن الذى يدلل على ذلك أكثر من أى شىء آخر، هو حقيقة أن حزب «إسرائيل بيتنا» الفاشى بقيادة ليبرمان حصل على أكثر الأصوات فى كل المدن والمستوطنات التى تعرضت للقصف من قبل حركات المقاومة الفلسطينية.

ويقول عوزى بنزيمان رئيس تحرير مجلة «العين السابعة» التى تعنى بشؤون الإعلام فى إسرائيل أن اليسار ضعف ليس بسبب أدائه وإنما بسبب تعمق وترسخ الميول المتشددة فى الرأى العام الاسرائيلى. نتائج الانسحاب من لبنان والحرب على غزة تعتبر فى نظر الجمهور برهاناً أكيداً عن عداء العرب الدائم لاسرائيل ودليلاً على فشل نهج المصالحة. اما شلومو غازيت، الجنرال المتقاعد، والباحث المعروف فيرى أن انتهاء حرب غزة بدون خسائر كبيرة للجانب الإسرائيلى ساهمت فى تكريس قناعة الجمهور الإسرائيلى بأهمية عوائد الحرب، وهو ما فاقم التوجه نحو اليمين.

تآكل الفروق الأيديولوجية

الباحث ميرون بنفنستى يرى أن أحد أهم العوامل التى دفعت نحو انهيار اليسار هو حقيقة أن الجمهور الإسرائيلى لم يعد يلمس وجود فروق أيديولوجية ذات مغزى بين أحزاب اليسار واليمين. ويضيف بنفنستى أنه عندما يجلس حزب العمل الى جانب حزب الليكود فى حكومة شارون الأولى والثانية، ويجلس حزب العمل الى جانب حزب «اسرائيل بيتنا» فى حكومة أولمرت، فأن الجمهور الإسرائيلى يعى أنه لا يوجد فى الحقيقة ثمة فروق بين أحزاب اليسار واليمين فى إسرائيل. ويشير بنفنستى الى أنه من ناحية ايديولوجية، فإن اليسار واليمين يجمعان على قداسة اسطورة الاستيطان ويرفعان البيت والبؤرة الاستيطانية والشجرة المغروسة الى درجة قيمة عليا. وأشار إلى أن اليسار الإسرائيلى يواصل طرح شعارات فارغة دون أن يدلل ولو بفعل واحد أن



لديه طرحا آخر مغايرا لما يطرحه اليمين، وحتى عندما يطرح اليسار حل الدولتين، فإن هذا الحل غير ممكن، حسب حكم الجمهور الإسرائيلي. ويضيف، من المريح طبعا مواصلة الكفاح التقليدي ذلك لأنه لا يوجد ابسط من اجترار شعارات رنانة معروفة. وعندما يتعلق الامر بشعارات قديمة لا يوجد اكثر من شعار «تقسيم البلاد الى دولتين قوميتين» تضليلاً لأنه يراهن على طرح حل متكافىء لتطلعات الاسرائيليين والفلسطينيين القومية»، على حد تعبيره. ونود بنفنستى إلى أن اليسار هو «الذى تحمس لفكرة اقامة جدار الفصل العنصرى فى قلب الضفة الغربية الذى حاصر الأرض الفلسطينية، وجعل منها مناطق معزولة غير قادرة على الوصول للعالم الخارجى من خلف الجدران الفاصلة ومن دون قدرة على تطوير بنية تحتية مادية معتمدة اعتماداً كليا على احسان الخارج وصدقاته. فى هذه الظروف يصبح شعار الدولة الوطنية الفلسطينية مهزلة تعبر عن النفاق والتصنع»، على حد تعبيره.

من ناحيته يقول وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق شلومو بن عامى إن الذى زاد الأمور تعقيداً ومس بالثقة باليسار وتحديداً حزب العمل، هو حقيقة تحول هذا الحزب الى لعب دور مقاول للأعمال القذرة من خلال تولى قادة الحزب منصب وزير الحرب فى الحكومات التى يرأسها الليكود أو كاديما. ويضيف بن عامى أن الجمهور الإسرائيلى لديه القدرة على التمييز بين الأشياء، فعلى الرغم من أن قادة حزب العمل يقومون بالعمل القذر، فإن الذى حصل على ثمار هذا العمل هو الحزب الذى يرأس الحكومة.

نفاق اليسار

ويجزم الكاتب والمفكر جدعون ليفى ان نفاق اليسار وتردد قادته أدى الى تهاوى ثقة الجمهور الإسرائيلى به. ويشير ليفى إلى مثال واضح وصارخ يدلل على ذلك، وهى يولى تامير القيادية فى حزب العمل والتى تشغل حالياً منصب وزيرة التربية والتعليم فى حكومة أولمرت، والتى كانت رئيسة حركة «السلام الآن» وكانت تناضل ضد المستوطنات ومن أجل التسوية السلمية. ويتساءل قائلاً «هل كان يخطر ببال احد من قادة حركة السلام الآن، بأن رفيقته تامير ستصبح وزيرة فى الحكومة التى تفرض حصارا وحشيا على غزة منذ عامين؟ وهل كان ليخطر ببال اى من الآباء المؤسسين لهذه الحركة بأن رفيقتهم الهامة والبارزة ستصبح بعد حين وزيرة بارزة فى الحكومة التى تنفذ سياسة الاغتيالات على غرار القتل بدم بارد الذى اقدم عليه مقاتلو حرس الحدود قبل اسبوعين فى بيت لحم بأمر من وزير الدفاع»، على حد تعبيره.

ويضيف ليفى أن اليسار الاسرائيلى مات فى عام ٢٠٠٠، بعد اندلاع انتفاضة الاقصى وجثته الهامدة تدحرجت على رؤوس الاشهاد منذ ذلك الحين الى ان صدرت بالامس شهادة الوفاة وفقا للمراسيم»، على حد تعبيره. واكد ليفى ان زعيم حزب العمل ايهود باراك هو الذى اعدم اليسار فى عام ٢٠٠٠، وهو الذى دفنه فى عام ٢٠٠٩، عندما اقنع الرأى العام الإسرائيلى أنه لا يوجد شريك فلسطينى فى عملية التسوية. واعتبر ليفى ان اليسار يحمل اسم معسكر السلام «زورا وبهتاناً»، مشيراً الى ان هذا المعسكر ممثل فى حزبى العمل وكاديما هما اللذان قادا حربين فى عامين. وجزم ليفى أن قيم اليسار تتنافى مع الصهيونية. وقال «من يريد يسارا ذا أهمية عليه ان ينفى الصهيونية ويخرجها من داخله. لن يكون هناك يسار حريص إذا لم يقم التيار المركزى باعادة تعريف الصهيونية. لا يمكن ان يكون الواحد يساريا وفى نفس الوقت صهيونيا».

ويسخر عكيفا إلدار من نفاق اليسار، منوهاً إلى أن كل من يكرر شعارات اليسار يصبح لديه الحصانة الأخلاقية لارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين. وأضاف «لقد حول قادة اليسار السلام الى علامة تجارية منتصرة، والاسرائيليون اكتشفوا بأنه لا توجد مادة تطهر الضمير افضل من انشودة للسلام. عندما اعلن عن نفسى «مؤيدا للسلام» يكون أسهل جدا على التعايش مع الاحتلال. وعندما اشارك فى مظاهرات السلام يكون أسهل جدا على ان اخدم فى الحواجز العسكرية التى تحول حياة الفلسطينيين الى جحيم».

ويضيف الدار «الجمهور الإسرائيلى جمهور ذكى وفطن وهو يلحظ معالم نفاق اليسار، فيبتعد عنه لتأييد اليمين بسبب وضوحه وصراحته».

المواقف العنصرية من فلسطينيى ٤٨

دلت نتائج الإنتخابات الإسرائيلية على أن أحزاب اليمين واليمين المتطرف قد حظيت بأغلبية الأصوات فى جميع المدن الإسرائيلية المختلطة التى يقطن فيها فلسطينيو ٤٨ والمستوطنون اليهود. فقد حصل حزب «إسرائيل بيتنا» بقيادة الفاشى ليبرمان على أكثر الأصوات فى مدن اللد والرملة، ويافا والناصرة العليا وعكا. كما حصلت أحزاب اليمين على أغلبية الأصوات فى مدن حيفا ويافا وبئر السبع. وقال أمنون أبراموفيتش كبير المعلقين فى قناة التلفزة الإسرائيلية الثانية أن المفارقة تكمن فى حقيقة حصول حزب «إسرائيل بيتنا» الذى يمثل اليمين المتطرف على الترتيب الأول من حيث عدد الأصوات فى هذه المدن التى تعتبر من المدن الكبرى والهامة فى إسرائيل، مشيراً إلى أنه فى حال حافظ الحزب على هذه الوتيرة فى الانتخابات المقبلة، فأنه قد يصبح الحزب الأكبر فى إسرائيل. وفى تحليل قدمه أشار أبراموفيتش إلى أن تصويت اليهود فى هذه المدن لصالح ليبرمان يدلل على تعاظم المواقف العنصرية تجاه فلسطينيى ٤٨، على اعتبار أن ليبرمان قد وعد اليهود بتخليصهم من فلسطينيى ٤٨ عبر تجريد فلسطينيى ٤٨ من حقوق المواطنة، وعلى رأسها الحقوق السياسية والحق فى الحصول على مخصصات الضمان الاجتماعى. القناة العاشرة فى التلفزيون الإسرائيلى بثت تحقيقاً حول تفسير المستوطنين الذين يقطنون المدن المختلطة لتصويتهم على هذا النحو لصالح اليمين المتطرف. ولعل الذى لفت نظر معد التحقيق هو التحول الذى طرأ على توجهات رئيس بلدية اللد مكسيم ليفى وهو شخصية سياسية كانت معروفة باعتدالها السياسى، إلا أنه عشية الإنتخابات التشريعية إنضم إلى حزب «إسرائيل بيتنا»، وتجند مع جميع أفراد عائلته لصالح الحزب، حيث أصبح نجله الأكبر يرأس فرع الحزب فى المدينة. أما راحيل بنت ليفى فقد قالت فى التحقيق أنها صوتت لصالح ليبرمان لأنها لا تريد أيا من العرب فى المدينة. وأضافت «يجب أن ينتهى كل شىء، يجب أن تتجند كل القوى الصهيونية من أجل سن قانون يسمح بطرد العرب من المدينة، لا أريد رؤية أى عربى هنا. رؤيتهم تثير حنقى وغضبى». ونفس الموقف عبر عنه الكثيرون من المستوطنين الذين أجريت معهم مقابلات خلال التحقيق. يقال مستوطن يبلغ من العمر ٦٨ عاماً هاجر من العراق ويقطن مدينة الرملة قال «يتوجب استغلال كل فرصة من أجل طرد العرب، وجودهم أمر لا يطاق، هم أعداؤنا، بدلاً من أن نسمح لهم بالمشاركة فى الانتخابات يتوجب أن نقذف بهم خلف الحدود».

صعود اليمين للحكم سيكون مصدر حرج أيضاً للإدارة الأمريكية والاتحاد الأوروبى

السياسات الاقتصادية والاجتماعية

من ناحيته قال البرفسور دان غوفتاين استاذ العلوم السياسية فى الجامعة العبرية أن سياسة الخصخصة التى اتبعت فى اسرائيل الحقت اكبر الضرر باليسار لأنها أوجدت مشاكل اقتصادية كبيرة، ساهمت بصعود نجم اليمين. وفى مقال تحليلى فى صحيفة «هارتس»، قال غوفتاين «كلما تم تطبيق سياسة خصخصة، والتوقف عن تقديم مخصصات الرفاه الاجتماعى للجماهير يزداد شعور لدى الناس بعدم الامن الاقتصادى والاجتماعى، الذى يزداد عقب الازمة الاقتصادية العالمية، مما يدفعهم لليمين». واكد أن افضل وصفة لتنامى اليمين هو الجمع بين ازمة اقتصادية والشعور بعدم الأمن لأنه يولد شوقاً لوجود زعيم قوى يحل محل الديموقراطية. واكد أنه بدلاً من ان يواجه اليسار سياسة الخصخصة تواطأ فى فرضها وغض الطرف عن مساوئها فقط من أجل أن يضمن مقاعد لقادته حول طاولة الحكومة.

وتتفق الباحثة بمبى شيلغ مع هذا الطرح قائلة أن قطاعات واسعة فى المجتمع الإسرائيلى تشعر بان اليسار الإسرائيلى ليس معنيا حقا بالمجتمع الإسرائيلى الواسع، ولا يطرح تقليص

الفقر والفوارق الثقافية وغيرها على رأس جدول اعماله. وتضيف «لهذا السبب لن ينجح اى حزب يسارى اذا لم يعرض جدول اعمال مختلف وواسع مما عرض حتى اليوم. فاليسار لن يصل الى قلوب جموع جماهير إسرائيل الجوعى، لأن هذا الجمهور لا يرى أن فى اليسار قيادة لديها احساس بالرسالة والالتزام». أما سيفر بلوتسكير، المعلق الاقتصادى فى صحيفة «يديعوت أحرنوت»، فيقول انه فى الوقت الذى تتعزز فيه قوى اليسار فى جميع أرجاء العالم، فإن اليسار الإسرائيلى ينهار وتتعاظم قوة اليمين بشكل غير مسبوق. وعزا بلوتسكير إنهيار اليسار الصهيونى إلى «القيادة الفاشلة، لإيهود براك لتجاهله التركيز على القضايا الاقتصادية والانكباب بدلاً من ذلك على القضايا الأمنية، مؤكداً أن هذا المنحى اضعف اليسار. واضاف «لقد هبط حزب العمل الى رتبة حزب هامشى، والسبب هو القيادة المختلة لزعيم الحزب باراك والجماعة المحيطة به، لقد أخفى باراك ورفاقه الرسائل الاقتصادية والاجتماعية لحزبهم اخفاءً تاماً، ونجحوا فى التهرب من عرض خطة شاملة لمواجهة الازمة الاقتصادية التى تهدد اسرائيل، وهذا كان خطأً كارثياً، فبدلاً من ان يقول براك لعشرات الالاف من الاسرائيليين الذين يخافون من أن يفقدوا أماكن عملهم فى القريب العاجل أنه لن ننضم إلى أى حكومة لا تضع محاربة البطالة فى رأس جدول اعمالها، فأنه أخذ يوزع التعهدات بالعمل حتى يعود الى منصب وزير الدفاع فى الحكومة القادمة».

تداعيات الإنتخابات الإسرائيلية عربياً

هناك ما يبرر انزعاج أنظمة الحكم فى دول ما يسمى بـ«محور الإعتدال» من نتائج الانتخابات الإسرائيلية ليس لأن صعود اليمين الصهيونى سيضر بالقضية الفلسطينية، بل لأن صعود اليمين، ويحد من قدرتها على تبرير مواقفها.

فى ظل وجود حكومة اليمين لن يكون بوسع «محور الإعتدال» بمواصلة التبشير بثمار «المسيرة السلمية»، فإن كانت حكومات الوسط واليسار فى إسرائيل قد حولت المفاوضات العبثية إلى هدف بحد ذاته وهو ما راق لأنظمة «الاعتدال»، التى ظلت تواظب على تحميل حماس المسؤولية عن إفشال جهود التسوية، فأن الأخبار السيئة لـ«المعتدلين» العرب تتمثل فى أن حكومة اليمين لن تقبل مواصلة مجرد المفاوضات رغم عبثيتها. نتنياهو فى أحسن الأحوال سيعود لمعزوفة «السلام الإقتصادي»، أى العمل على تحسين ظروف حياة الفلسطينيين مقابل تنازلهم عن حقوقهم الوطنية، ومقابل كل ذلك، فأن حكومة اليمين ستطالب العرب بالتعاون معها فى القضاء على حكم حماس، وضرب المشروع النووى الإيرانى.

فى ظل حكومة اليمين لن يكون بوسع النخب فى العالمين العربى والإسلامى سواء الحاكمة أو المثقفة تسويغ مشاركتها فى مؤتمرات والتطبيع والتقارب بين الأديان التى تجمع المسؤولين الصهاينة بالمسؤولين العرب والمسلمين. فالكثير من قادة أحزاب اليمين الدينى التى ستشارك فى الحكومة القادمة يؤمنون بحكم «علفيم» التوراتى، والذى ينص على انه يجوز قتل الفلسطينيين سواء كانوا شيوخاً أو أطفالاً أو نساء وحتى الدواب. وعندما يسيطر الخطاب الصهيونى فى نسخته الأكثر عنصرية وتخلفاً لن يكون من السهولة بمكان على الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريس نفث أكاذيبه وتمرير أحابيله وتضليله.

سيحرج عرب «الاعتدال» ولن يتمكنوا من تسويغ تطبيعهم للعلاقات مع إسرائيل فى ظل وجود حكومية يمينية، لسبب بسيط أن الساسة اليمينيين فى إسرائيل لا يولون اهتماماً نحو التطبيع مع العرب. ففى العام ٢٠٠٤ رفض ليبرمان وكان وزيراً للبنى التحتية دعوة من قطر لحضور أحد المؤتمرات التى عقدت هناك، قائلاً إن اسرائيل ليست فى حاجة لعقد مثل هذه المؤتمرات.

صعود اليمين للحكم سيكون مصدر حرج أيضاً للإدارة الأمريكية والاتحاد الأوروبى وسيفضح المعايير المزدوجة وسياسة الكيل بمكيالين التى تحكم السياسات الأوروبية والأمريكية فى كل ما يتعلق بالعلاقة مع العرب وإسرائيل. لقد لعب الغرب دورا هاماً ومحورياً فى فرض الحصار على الشعب الفلسطينى ومنع عنه الطعام والدواء وحرم أطفاله من الحليب فقط من أجل دفع الشعب الفلسطينى للتمرد على حركة حماس، لكن هذا الغرب أعلن بشكل واضح وجلى أنه سيواصل التعاون مع الحكومة اليمينية الجديدة فى إسرائيل. على الرغم من هذا الموقف إلا أنه سيكون من الصعب أيضاً على الغرب تسويغ نفاقه، وسيكون عليه اتخاذ موقف أكثر أخلاقية عندما يعبر قادة الحكومة الإسرائيلية الجديدة عن مواقفهم العنصرية الواضحة والجلية، والتى تهون الى جانبها مواقف النازية والفاشية. ■

كتاب الزاوية

ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

تنبيهات على كل ما كتبت (١)

١) إننى لست عالما ولا مفتيا ولا مجتهداً فى الشريعة، وما فى كتبى ليس من باب الفتوى وإنما هو مجرد نقل العلم إلى الناس وهذا لا يشترط له بلوغ مرتبة الاجتهاد، فقد قال النبى ﷺ: «ليبلغ الشاهد الغائب» متفق عليه. وفى الصحيح أيضاً قال ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية» رواه البخارى. ومعلوم أن من علم آية واحدة لا يكون من العلماء ومع ذلك فهو مأمور بتبليغها، وأوضح من ذلك قول النبى ﷺ: «نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها. فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه غير فقيه. ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» رواه الترمذى وحسنه، فدل هذا الحديث على أنه قد يحمل إنسان شيئًا من الفقه وهو غير فقيه، وهو مع ذلك مأمور بتبليغه، وما ذلك إلا لتوسيع دائرة نشر علوم الشريعة فى الناس.

٢) فأنا لست عالمًا ولا مفتيًا وكل ما فى كتبى هو نقل للعلم إلى الناس، وليس من باب الفتوى، والفرق بينهما أن العلم يُكتب لكل الناس فى كل زمان ومكان كما كتب أسلافنا العظام رحمهم الله ومازلنا نتتلمذ على كتبهم. أما الفتوى فهى اختيار ما يناسب من هذا العلم العام لواقع معين أى لأناس معينين فى مكان معين وزمان معين. فالفتوى هى معرفة الواجب فى الواقع. وما يظهر فى كتبى أنه من باب الفتوى فهو من آرائى الخاصة التى لا ألزم بها أحداً، وهى ما رأيته الحق إلى وقت كتابتها. فإذا وجدت خيراً منها بالدليل الشرعى الصحيح السالم من المعارض تركت رأيى لما هو أحسن منه امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿... فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (الزمر: ١٧، ١٨). جعلنا الله وإياكم منهم.

من الصعب أن نصدق مدى جرأة وانحياز وسائل الإعلام الأمريكية ناهيك عن المدى الذى وصل إليه ساستنا فى إتقان فن القوادة لصالح الدولة اليهودية

لقد انتهت المحرقة

كتاب آفراهام بورج الجديد

جـــــــــون ميرشـــــايمر

■■ بالنسبة للقارئ الأمريكى، فإن الفضيلة الكبرى لكتاب «أفراهام بورج Avraham Burg» الهام الجديد هى أنه يذكر أشياء عن إسرائيل والشعب اليهودى نادرا ما تسمع فى الحوار السائد فى الولايات المتحدة. من الصعب أن نصدق مدى جرأة وانحياز وسائل الإعلام الأمريكية فى تغطية أخبار إسرائيل، ناهيك عن المدى الذى وصل إليه ساستنا فى إتقان فن القوادة لصالح الدولة اليهودية. لقد تردت الأوضاع خلال الحملة الرئاسية الأخيرة إلى درجة أن صحفيين من أمثال «جيفرى جولدبرج Jeffrey Goldberg» و«شمويل روزنر Shmuel Rosner» وكلاهما من المدافعين الأوفياء عن إسرائيل - كتبا مقالات بعنوان «كفانا إسرائيل».

لنأمل أن يحقق كتاب «لقد انتهت المحرقة» نسبة عالية من القراءة والمناقشة، لأنه يطرح آراء تستحق أن يسمعها ويتأملها الأمريكيون على اختلاف معتقداتهم، وخاصة أولئك المرتبطين بشدة بإسرائيل. وحقيقة أن «بورج» كتب هذا الكتاب هى أيضا على قدر كبير من الأهمية. فلا يمكن طرح «بورج» جانبا بسهولة باعتباره يهوديا كارها للذات أو غريب الأطوار، حيث إنه ينحدر من عائلة إسرائيلية بارزة وكان منغمسا فى الشئون السياسية الإسرائيلية العامة لفترة طويلة من حياته. بل إن حبه لإسرائيل واضح للعيان.

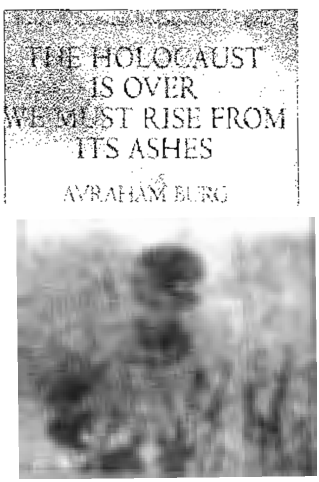
يطرح «بورج» العديد من النقاط الوجيهة فى كتابه، ولكنى أود أن أركز على ما أعتبره آراءه المحورية. إن جوهر رسالته هى أن إسرائيل تعانى من مشاكل خطيرة فى الداخل وأن هناك أسبابا وجيهة للاعتقاد بأن الأمور قد تسوء كثيرا فى المستقبل. وهو يؤكد على أن إسرائيل تغيرت كثيرا منذ العام ١٩٤٨، ويستشهد «بورج» بوالدته فى تلك النقطة: «ليس هذا هو نفس البلد الذى بنيناه. لقد أقمنا دولة مختلفة عام ١٩٤٨، ولكنى لا أعرف أين اختفت تلك الدولة». وكتب «بورج»: «إسرائيل اليوم تشبه بشكل مخيف الدول التى لم نرغب أبدا أن نشبهها». وفى حديثه عن تحول إسرائيل نحو اليمين تدريجيا، يدلى «بورج» بملاحظته المفزعة «لقد أصبح اليهود والإسرائيليون سفاحين».

يوضح «بورج» بجلاء أنه لا يقارن سلوك إسرائيل فى الماضى بما حدث فى ألمانيا النازية، ولكنه يرى تشابها مقلقا بين إسرائيل وألمانيا ما قبل هتلر. ويطرح ذلك السؤال الواضح: هل يمكن أن ينتهى الأمر بإسرائيل إلى شن حملة قتل ضد الفلسطينيين؟ يعتقد «بورج» أن ذلك ممكن. وكتب: «من الخطورة الشديدة أن نعتقد بأن ذلك لا يمكن أن يحدث لنا لأن تاريخنا كشعب مضطهد يحصننا ضد الكراهية والعنصرية. إن نظرة واحدة داخل إسرائيل تكشف أن التآكل قد بدأ بالفعل». بل إن «بورج» يطرح إمكانية اندلاع حرب أهلية داخل إسرائيل «لن تكون حربا بين أفراد الشعب اليهودى على اختلاف درجاتهم الإيمانية، بل صراعا مريرا بين الأخيار والأشرار فى كل مكان».

يعى «بورج» أن العديد من اليهود الأمريكيين سوف ينبذون آراءه لأنهم فى صراع شديد مع صورة إسرائيل فى أذهانهم. ولذلك فإنه يذكر القارئ: «لقد جئت من هناك، ولا يزال أصدقائى وأقاربى هناك. أنا أسمع حديثهم وأعرف طموحاتهم وأشعر بدقات قلوبهم. أنا أعلم إلى أين يتجهون». وهو يشعر بقلق عظيم تجاه الطريق الذى يسيرون فيه. وهو يخشى - مرة ثانية - أن الأمر سينتهى بإسرائيل إلى اقتفاء خطى ألمانيا، حيث «غيرت تحولات بطيئة مفهوم الحقيقة إلى درجة أن الجنون أصبح أمرا طبيعيا. ثم تمت إبادتنا. لقد حدث ذلك فى أرض الشعراء والفلاسفة. كان ذلك ممكنا هناك. وهنا أيضا، فى أرض الأنبياء. إن إقامة دولة يديرها الحاخامات والجنرالات ليست كابوسا مستحيلا. أنا أعلم مدى صعوبة المقارنة، ولكنى أرجوكم أن تفتحوا آذانكم وعيونكم وقلوبكم».

يعتقد العديد من اليهود الأمريكيين أن إسرائيل اليوم فى خطر بسبب العداء للسامية أو لأنها محاطة بأعداء خطرين يهددون وجودها. إن اليهود أنفسهم - كما يذكرنا «بورج» - يحبون التأكيد على أن «العالم كله ضدنا». إنه ينبذ تلك المعتقدات المتطرفة: «إننا اليوم مدججون بالسلاح ومجهزون أفضل من أى جيل آخر فى التاريخ اليهودى. لدينا جيش جرار وهاجس الأمن وشبكة أمان الولايات المتحدة. إن فكرة العداء للسامية تبدو سخيفة بل وتافهة مقارنة بقوة الشعب اليهودى اليوم».

يعتقد «بورج» أن مشاكل إسرائيل نابعة من داخلها. ويؤكد على وجه الخصوص أن السبب الرئيسى وراء تلك المشاكل هو تركة المحرقة التى هيمنت تماما على الحياة الإسرائيلية. يقول «بورج» فى كتابه: «لا يمر يوم دون التطرق



The Holocaust Is Over: We Must Rise From its Ashes
Avraham Burg
Palgrave Macmillan (October 28, 2008)

Talking Points Memo, TPM Blog

ترجمة: عادل فتحى السعيد

إلى «إبادة اليهود» فى الجريدة الوحيدة التى أقرأها (ها أرتز Ha'aretz). وبالفعل فإن الأطفال الإسرائيليين يتعلمون فى المدرسة «أننا جميعا ناجون من الإبادة». والنتيجة هى أن الإسرائيليين (ومعظم اليهود الأمريكيين فى هذا الخصوص) لا يمكن أن يفكروا بشكل سليم فيما يتعلق بالعالم من حولهم. إنهم يعتقدون أن الجميع يستهدفونهم، وأن الفلسطينيين لا يختلفون كثيرا عن النازيين. وطبقا لهذا المنظور المخيب للآمال، يعتقد الإسرائيليون أن أى وسيلة تقريبا لمجابهة أعدائهم هى مشروعة. إن المغزى وراء آراء «بورج» هو أنه لو كان هناك تركيز أقل على المحرقة، لكان حريا بالإسرائيليين أن يغيروا أفكارهم بشأن «الآخرين» بصورة جوهرية، مما يسمح لهم بالتوصل لتسوية مع الفلسطينيين ويعيشون حياة أكثر أمانا وسعادة.

هناك بعض الحقيقة فى تلك الحجة النفسية الدفاعية، ولكن «بورج» يأتى أيضا بدليل واضح لتفسير مختلف لعلاقة المحرقة بالحياة الإسرائيلية. وهو يوضح على وجه الخصوص أن المجتمع الإسرائيلى قد ابتلى بعدد من المشاكل الخطيرة التى تهدد بتمزيقه، وأن المحرقة هى أداة فى خدمة الشعب اليهودى، يستخدموها لحماية إسرائيل من النقد وللمحافظة على قوى الطرد المركزية تلك تحت الحصار. وهو يحدد ثلاث مشاكل رئيسية:

الإسرائيليون منقسمون بشدة فيما بينهم: «لقد كان للعالم اليهودى دائما خلافات هائلة بين رموز كبيرة».

الخطر الجسيم من هجرة أعداد كبيرة من الإسرائيليين إلى أوروبا وشمال أمريكا.

الاحتلال الذى كان له تأثير مدمر على المجتمع الإسرائيلى واستقطب النقد من كافة أنحاء العالم.

يوضح «بورج» أن هناك اعتقادا بأن اللعب بورقة المحرقة هو أفضل السبل لمعالجة تلك المشاكل. وهو يستشهد بالكاتب الإسرائيلى «بواز إيفرون Boaz Evron» لدعم وجهة نظره: إبادة اليهود «هى ذخيرتنا الرئيسية اليوم. هذا هو الشيء الوحيد الذى يمكن من خلاله أن يحاولوا إسكات الأمميين (غير اليهود)». وهناك بالطبع أداة أخرى كثيرا ما تستخدمها إسرائيل والمدافعون عنها ألا وهى تهمة معاداة السامية.

ولتأكيد حجتى الذرائعية بصورة أفضل، يقدم «بورج» الدليل على أن السبب الرئيسى وراء قيام الإسرائيليين ومؤيديهم باستدعاء المحرقة باستمرار هو الاحتلال والفظائع التى ارتكبتها إسرائيل وتستمر فى ارتكابها بحق الفلسطينيين. إن إبادة اليهود هى السلاح الذى يستخدمه الإسرائيليون ومؤيدوهم فى الشتات لمواجهة النقد والسماح لإسرائيل بمواصلة ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين. كتب «بورج»: «كل شيء يقارن بإبادة اليهود ويتضاءل أمامها، ولذلك فكل شيء مباح، سواء كان ذلك أسيجة أو حصارا أو قمعا أو حظر تجول أو حرمانا من الطعام والماء أو عمليات قتل غير مبررة. كل شيء مسموح به لأننا تعرضنا للإبادة ولن نسمح لأحد بأن يملى علينا ما نفعله».

إن أقوى الشواهد على أن الهاجس الإسرائيلى تجاه المحرقة مرتبط بالاحتلال موجود فى حديث «بورج» عن تطور الفكر الإسرائيلى تجاه المحرقة نفسها. فهو يوضح تماما أن النظرة الإسرائيلية تجاه «إبادة اليهود» قد تغيرت كثيرا بمرور الوقت. إن زعماء الاستيطان «لم يفعلوا سوى أقل القليل كرد فعل على إبادة يهود أوروبا وقت حدوث ذلك. فهم لم يرغبوا بإهدار الموارد العاطفية التى كان من الممكن توجيهها بدلا من ذلك نحو بناء الدولة اليهودية». بل إن الإسرائيليين لم يلقوا اهتماما كبيرا بالمحرقة خلال العقد الأول بعد عام ١٩٤٨ ولم يظهروا تعاطفا يذكر مع الناجين الذين وصلوا إلى إسرائيل بعد الحرب. ولكن كل ذلك تغير فى الستينيات بدءا من محاكمة «أيخمان Eichmann» (مهندس المحرقة) ثم الحصول على زخم كبير بعد غزو إسرائيل للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ وبدء الاحتلال. كتب «بورج»: «ولكى نعى المنعطف الخطأ الذى سلكناه، يجب علينا العودة إلى الستينيات ومحاكمة «أيخمان» وحرب الأيام الستة وكل ما يقع بين ذلك». بل إن «بورج» يذهب أبعد من ذلك ويشير إلى أن التسعينيات - تذكر أن الانتفاضة الأولى اندلعت فى ديسمبر ١٩٨٧ - كانت «عقد التحول من أساطير الدولة الأولى إلى الرحلات المحمومة إلى مسرح الجريمة». يبدو النمط واضحا: كانت المحرقة هى السلاح الرئيسى الذى استخدمه الإسرائيليون (ومؤيدوهم فى الخارج) لتوفير غطاء للفظائع التى ارتكبتها إسرائيل بحق الفلسطينيين فى المناطق المحتلة.

وخلاصة القول أن السبيل الأفضل لإنقاذ إسرائيل من مأزقها ليس ببساطة مجرد تجاوز المحرقة، بل إنهاء الاحتلال. وبعد ذلك سوف تقل كثيرا الحاجة للحديث المستمر عن المحرقة وسوف تصبح إسرائيل بلدا أكثر عافية وأمنا بدرجة كبيرة. وللأسف فليست هناك نهاية للاحتلال فى المستقبل المنظور، ولذلك فمن المرجح أن نسمع المزيد - وليس الأقل - عن المحرقة خلال السنوات القادمة. ■

كتاب الزاوية

ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

تنبيهات على كل ما كتبت (٢)

٣) كل ما فى كتبى من أحكام شرعية هى من باب الحكم المطلق وليست من باب الحكم على المعينين. والفرق بينهما: أن الحكم المطلق هو حكم على الفعل الذى هو سبب الحكم، أما الحكم على المعين فهو حكم على الفاعل أى تنزيل الحكم المطلق على فرد أو أفراد معينين وهذا يحتاج بعد معرفة الحكم المطلق (على الفعل أى السبب) إلى النظر فى شروط الحكم وموانعه فى حق المعينين، بحسب قاعدة (يترتب الحكم على السبب إذا توفر الشرط وانتفى المانع). وهذا فى الأغلب الأعم فلا يجوز تنزيل ما فى كتبى من أحكام على المعينين بدون مراعاة هذه القاعدة من المؤهلين للنظر فى ذلك.

٤) لم أكتب كتبى لأجل جماعة معينة وإنما لكل الناس من المسلمين وغيرهم وهم (أمة الدعوة) دعوة النبى (ص) كما ذكرته فى البند الأول. وكذلك لم أكتب هذه الوثيقة لنقد جماعة أو أفراد معينين وإنما هى مسائل فقهية عامة بأدلتها الشرعية للتنبيه على مخالفات جسيمة ترتكب بدعوى الجهاد فى سبيل الله. ولا يجوز الاحتجاج بشيء من كتاباتى لارتكاب مخالفات شرعية فأنا لا أقول بذلك، وأى شيء فى كتاباتى يخالف الشريعة فأنا راجع عنه.


دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com

أي مستقبل للكتب..؟!!

روبـــــرت دارنـــــتـــــــون
Robert Darnton

هل قرأتم الاعلان الذي نشرته شركة google قبل أسابيع في مختلف الصحف العربية، مخاطبة فيه الناشرين والمؤلفين وكل ذوي العلاقة؟ كثيرون اتصلوا بنا بعد أن صعب عليهم التعامل مع اللغة القانونية «المترجمة» للاعلان. والذي جاء بمجمله لافتا وغير مألوف في وسط العرب المعنيين بصناعة النشر، «وجهات نظر» من جانبها اتصلت بجوجل. كما اتفقت مع The New York Review of Books على نشر الترجمة العربية للمقال الذي ستنشره حول الموضوع. وهنا القصة كاملة.

المحرر

كيف سنتمكن من الإبحار في المحيط المعلوماتي الناشئ حديثا؟ هذا السؤال هو الآن أكثر إلحاحا من أي وقت مضى، في أعقاب التسوية الأخيرة بين «جوجل» وبين المؤلفين والناشرين الذين كانوا يقاضونها بزعم خرق حقوق الملكية الفكرية. فطوال السنوات الأربع الماضية، دأبت «جوجل» على تخزين ملايين الكتب رقميا، ومن بينها العديد التي تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ضمن مجموعات مكتبات الأبحاث الكبرى، كما أتاحت «جوجل» النصوص للبحث على الإنترنت. وقد اعترض المؤلفون والناشرون بأن التخزين الرقمي يشكل انتهاكا لحقوق ملكيتهم الفكرية. وبعد مفاوضات مطولة، توصل المدعون و«جوجل» إلى تسوية سيكون لها أكبر الأثر على الأسلوب الذي تصل به الكتب إلى القراء في المستقبل المنظور. ماذا سيكون شكل هذا المستقبل؟

لا أحد يعرف، لأن التسوية معقدة إلى درجة يصعب معها الإحاطة بالتضاريس القانونية والاقتصادية للساحة الجديدة. ولكن أولئك منا المسئولين عن مكتبات الأبحاث لديهم رؤية واضحة لهدف مشترك: إننا نريد أن نكتشف عن مجموعاتنا ونتيحها للقراء في كل مكان.

كيف يمكن أن نحقق ذلك؟ ربما كان الأسلوب العملي الوحيد شديد الحيطة: أنظر إلى أبعد ما يمكنك، وبينما تبقى عينك على الطريق، تذكر أن تلقي نظرة على المرآة الخلفية.

عندما أنظر للخلف، فإني أركز بصري على القرن الثامن عشر وعصر التنوير وإيمانه بسلطان المعرفة وعالم الأفكار الذي كان يديره. وهو ما أشار إليه المتنورون بـ «جمهورية الأدب» Republic of Letters.

لقد تخيل القرن الثامن عشر «جمهورية الأدب» كمملكة بلا شرطة ولا حدود ولا تفرقة بين البشر إلا بمقدار الموهبة. ويمكن لأي فرد الانضمام لتلك المملكة إذا توفرت لديه خاصتا المواطنة الرئيسيتان وهما الكتابة والقراءة. كان الكتاب يصوغون الأفكار بينما يحكم عليها القراء. وبفضل سلطان الكلمة المطبوعة، انتشرت الأحكام في دوائر متزايدة الاتساع، وكان الفوز للحجج الأقوى.

وقد انتشرت الكلمة أيضا من خلال الخطابات المكتوبة، حيث كان القرن الثامن عشر حقبة رائعة من تبادل الرسائل. وإذا تصفحنا مراسلات «فولتير» Voltaire و«روسو» Rousseau و«فرانكلين» Franklin و«جيفرسون» Jefferson. والتي يملأ كل منها حوالي خمسين مجلدا - فسوف نشاهد التطبيق العملي لـ «جمهورية الأدب». وقد ناقش الكتاب الأربعة كافة قضايا عصرهم في سيل منتظم من الرسائل ساد أوروبا وأمريكا من خلال شبكة معلوماتية عبر المحيط الأطلنطي.

تروق لي على وجه الخصوص الرسائل المتبادلة بين «جيفرسون» و«ماديسون» Madison.. لقد ناقشا كل شيء، وخاصة الدستور الأمريكي الذي ساعد «ماديسون» في وضعه في فيلادلفيا بينما كان «جيفرسون» يمثل الجمهورية الجديدة في باريس. لقد كتبا كثيرا عن الكتب، حيث كان «جيفرسون» يعشق التردد على متاجر بيع الكتب في عاصمة «جمهورية الأدب»، وكثيرا ما ابتاع الكتب لصديقه. ومن بين ما اشترى كانت موسوعة «ديديروت» Diderot، التي ظن «جيفرسون» أنها كانت صفقة رابحة، رغم أنه اعتقد خطأ أنها النسخة الأولى بينما كانت في الواقع نسخة معاد طبعها.

رجلان مستقبليان يناقشان الكتب من خلال شبكة معلوماتية لعصر التنوير. إنه مشهد مثير. ولكن قبل أن تشوش العاطفة تلك الصورة من الماضي، علي أن أضيف أن «جمهورية الأدب» كانت ديمقراطية في المبدأ فقط. أما في الواقع، فقد هيمن عليها سليلو العائلات الكبيرة والأغنياء. وبعيدا عن إمكانية كسب العيش من نتاج أقلامهم، كان على معظم الكتاب التودد للرعاة والسعي للمناصب المريحة المربحة والمناورة للحصول على وظائف في الصحف التي تسيطر عليها الدولة ومراوغة الرقباء وتلمس طريقهم إلى الصالونات والأكاديميات حيث تتحقق الشهرة. وقد انقلبوا على بعضهم البعض، بينما كانوا يعانون المهانة على أيدي من هم أعلى منهم في المنزلة الاجتماعية. والمشاجرة بين «فولتير» و«روسو» تكشف عن مزاجهما. فبعد قراءته لكتاب «روسو» «حوار حول جذور التفرقة» Discourse on the Origins of Inequality، كتب «فولتير» إليه: «سيدي، لقد تلقيت كتابك الجديد ضد الجنس البشري... إنه يجعل المرء يود لو أنه مشى على أربع». بعدها بخمس سنوات، كتب «روسو» إلى «فولتير»: «سيدي، إني أكرهك».

لقد امتزجت الصراعات الشخصية بالفروق الاجتماعية. وبعيدا عن أن تكون «جمهورية الأدب» تطبيقا عمليا كساحة للمساواة، فإنها عانت من نفس المرض الذي قضى على كافة مجتمعات القرن الثامن عشر: الامتيازات. لم تقتصر الامتيازات على النبلاء. ففي فرنسا، هيمنت الامتيازات على كل شيء في عالم الأدب، بما في ذلك الطباعة وتجارة الكتب، والتي كانت تهيمن عليها نقابات حصرية. وكذلك على الكتب نفسها، التي لم يكن من الممكن ظهورها قانونيا دون امتياز ملكي ومصادقة الرقيب مطبوعة بالكامل داخل النص.

ومن بين طرق إدراك تلك المنظومة الاعتماد على دراسة سلوك المعرفة، وخاصة مفهوم «بيير بوردو» Pierre Bourdieu، عن الأدب باعتباره مجال نفوذ يتكون من مواقف متنافسة ضمن قواعد لعبة تخضع بدورها للقوى المهيمنة إلى حد كبير على المجتمع. ولكن المرء لا يحتاج للالتحاق بمدرسة «بوردو» لعلم الاجتماع كي يعرف الصلة بين الأدب والسلطان. ومن منظور اللاعبين، فإن حقائق الحياة الأدبية كانت تناقض المثل الرفيعة لعصر التنوير. وعلى الرغم من المبادئ التي قامت عليها «جمهورية الأدب»، فإنها - في الواقع - كانت عالما مغلقا في وجه المعدمين. ومع ذلك فإني أود الاستشهاد بعصر التنوير كدليل على الشفافية بوجه عام وإتاحة المعلومات بوجه خاص.

إذا تحولنا من القرن الثامن عشر إلى الوقت الراهن، فهل نرى هنا في عالم مكتبات الأبحاث تناقضا مشابها بين المبدأ والواقع؟ إحدى زميلاتي هي سيدة هادئة صغيرة الحجم، ربما تستدعي صورة «ماريون أمينة المكتبة» Marion the Librarian، (الشخصية الرئيسية في فيلم «رجل الموسيقى» The Music Man، إنتاج عام ١٩٦٢. المترجم). وعندما تقابل الناس في الحفلات وتفصح عن شخصيتها، فإنهم أحيانا يصرحون بغطرسة: «أمينة مكتبة، كم ذلك لطيف. أخبرينا، ماذا يكون شعور المرء كونه أمين مكتبة؟». فتجيب: «في الأساس، يتعلق الأمر كله بالمال والسلطة».

نعود إلى «بيير بوردو». مع ذلك فربما تتبنى الغالبية منا المبادئ المنقوشة في الأماكن البارزة من مكتباتنا العامة. «متاح مجانا للجميع»، هذا هو المكتوب أعلى المدخل الرئيسي لمكتبة بوسطون العامة، وتقول كلمات «توماس جيفرسون» المنقوشة بحروف من ذهب على حائط غرفة الأوصياء بمكتبة نيويورك العامة: «انظر إلى انتشار الضوء والتعليم باعتبارهما المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه لتحسين الظروف المؤدية إلى نشر الفضيلة والاهتمام بسعادة الإنسان». لقد عدنا إلى التنوير.

لقد نشأت جمهوريتنا على أساس الإيمان بالمبدأ الرئيسي لـ «جمهورية الأدب» في القرن الثامن عشر: انتشار الضوء. وبالنسبة لـ «جيفرسون»، فقد تحقق التنوير من خلال الكتاب والقراء والكتب والمكتبات - وخصوصا المكتبات - في «مونتيسيللو» وجامعة فيرجينيا ومكتبة الكونجرس. ويتجسد هذا الإيمان في دستور الولايات المتحدة. فالفقرة الثامنة من المادة الأولى تقر بحقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع «لمدة محددة» فقط، ووفقا للهدف الأسمى لتشجيع «تقدم العلم والفنون المفيدة». وقد أقر الآباء المؤسسون بحق المؤلفين في عائد عادل لجهدهم الفكري، ولكنهم وضعوا المصلحة العامة أمام المكسب الخاص.

بترتيب مع
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي



كيف يمكن حساب الأهمية النسبية لكلتا القيمتين؟ كما كان يعلم واضعو الدستور، فإن حقوق الملكية الفكرية بدأت في بريطانيا العظمى من خلال «تشريع آن Statute of Anne» (نسبة إلى الملكة آن. المترجم) عام ١٧١٠ بهدف كبح جماح الممارسات الاحتكارية لـ «شركة لندن للناشرين London Stationers' Company» وكذلك كما أعلن عنوان التشريع، «لتشجيع التعليم». في ذلك الوقت، حدد البرلمان فترة حقوق الملكية الفكرية بأربعة عشر عاما قابلة للتجديد مرة واحدة. وقد حاول الناشرون الدفاع عن احتكارهم لنشر وتجارة الكتب مطالبين بحقوق ملكية فكرية أبدية، وذلك من خلال سلسلة طويلة من القضايا أمام المحاكم، ولكنهم خسروا في النهاية نتيجة للحكم الحاسم في قضية «دونالدسون Donaldson» ضد «بيكيت Becket» عام ١٧٧٤.

عندما اجتمع الأمريكيون لوضع مسودة الدستور بعد ثلاثة عشر عاما، فإنهم عموما فضلوا وجهة النظر السائدة آنذاك في بريطانيا. فقد بدت فترة ثمانية وعشرين عاما كافية تماما لحماية مصالح المؤلفين والناشرين. وفيما وراء ذلك الحد، يجب أن تسود المصلحة العامة. وفي عام ١٧٩٠، اتبع أول مرسوم لحقوق الملكية الفكرية، والمكرس أيضا لـ «تشجيع التعليم»، العرف البريطاني بتحديد فترة أربعة عشر عاما قابلة للتجديد لنفس المدة.

ما هي فترة حقوق الملكية الفكرية اليوم؟ وفقا لـ «مرسوم سوني بونو لتمديد مدة حقوق الملكية الفكرية Sonny Bono Copyright Term Extension Act» الصادر عام ١٩٩٨ (والمعروف أيضا باسم «مرسوم حماية ميكي ماوس» لأن «ميكي ماوس» كان على وشك الخروج للملكية العامة)، فإن حقوق الملكية الفكرية تستمر طوال حياة المؤلف بالإضافة لسبعين عاما أخرى. وفي الواقع، فإن ذلك في العادة قد يعني أكثر من قرن من الزمان. ومعظم الكتب التي نشرت في القرن العشرين لم تخرج بعد إلى الملكية العامة. وفيما يتعلق بالتخزين الرقمي، فإن حرية الوصول إلى تراثنا الثقافي تقف عموما عند الأول من يناير عام ١٩٢٣، وهو التاريخ الذي تخضع بعده أعداد هائلة من الكتب لقوانين حقوق الملكية الفكرية. وسوف يبقى الأمر على حاله ما لم تتول المصالح الخاصة عملية التخزين الرقمي وتوفيره للمستهلكين وتضفي على الباقات عروضا قانونية وتبيعها لصالح حملة الأسهم. وواقع الأمر الآن على سبيل المثال، أن رواية «بابيت Babbitt» لـ «سنكلير لويس Sinclair Lewis» المنشورة عام ١٩٢٢ هي الآن ضمن الملكية العامة، بينما رواية «جسر إلمر Elmer Gantry» لنفس المؤلف والمنشورة عام ١٩٢٧ لن تخرج إلى الملكية العامة قبل عام ٢٠٢٢ (مرسوم تمديد فترة حقوق الملكية الفكرية لعام ١٩٩٨ مدد الحقوق عشرين عاما للكتب المتمتعة بالحماية بعد الأول من يناير عام ١٩٢٣. ولسوء الحظ فإن موقف حقوق الملكية الفكرية بالنسبة للكتب المنشورة في القرن العشرين معقد نتيجة للتشريع الذي مدد الحقوق إحدى عشرة مرة خلال الخمسين عاما الأخيرة، وإلى أن صدر مرسوم للكونجرس عام ١٩٩٢، كان على أصحاب حقوق الملكية الفكرية تجديدها. وقد ألغى مرسوم ١٩٩٢ ذلك الشرط بالنسبة للكتب المنشورة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٧، حيث ستمتد حقوقها طوال حياة المؤلف بالإضافة إلى خمسين عاما. وقد مدد مرسوم عام ١٩٩٨ تلك الحماية إلى حياة المؤلف بالإضافة إلى سبعين عاما. ولذلك فإن جميع الكتب المنشورة بعد عام ١٩٦٣ تبقى تحت الحماية. كما يبقى أيضا تحت الحماية عدد غير معروف من الكتب المنشورة بين عامي ١٩٢٣ و١٩٦٤ - والعدد غير معروف بسبب عدم دقة المعلومات بشأن وفاة المؤلفين وأصحاب حقوق الملكية الفكرية. راجع مقال «جاريد روبين Jared Rubin، وبول أ. دافيد Paul A. David»، «تقييد حرية الولوج إلى الكتب على الإنترنت: بعض التأثيرات غير المتوقعة للتشريعات الأمريكية لحقوق الملكية الفكرية»، مجلة «استعراض البحث الاقتصادي حول قضايا حقوق الملكية الفكرية Review of Economic Research on Copyright Issues، المجلد ٥ العدد ١ (٢٠٠٨)).

إن الانحدار من المبادئ السامية للآباء المؤسسين إلى ممارسات الصناعات الثقافية اليوم يعني التخلي عن ملكوت التنوير للرأسمالية التجارية الصاخبة. ولو طبقنا سلوك المعرفة على الحاضر - كما فعل «بوردو» نفسه - فسنكتشف أننا نعيش في عالم شرس قام بتصميمه «ميكي ماوس» أحمر الأسنان والمخالب.

هل تجعل هذه النظرة الواقعية من مبادئ التنوير كما لو كانت وهما تاريخيا؟ فلنرجع إلى التاريخ. بينما خبا نجم التنوير في بدايات القرن التاسع عشر جاءت الاحترافية. وفي إمكاننا متابعة الأمر من خلال مقارنة موسوعة «ديديروت» التي نظمت المعرفة في وحدة أساسية تسودها ملكة العقل، بـ «الموسوعة المنظمة Encyclopedie Methodique» التي تلتها في نهاية القرن الثامن عشر، والتي قسمت المعرفة إلى مجالات يمكننا التعرف عليها اليوم: الكيمياء والفيزياء والتاريخ والرياضيات وغيرها. في القرن التاسع عشر تحولت تلك المجالات إلى مهن موثقة بشهادات الدكتوراة وتحميها الجمعيات المهنية. وتحولت بعد ذلك إلى أقسام في الجامعات. وبحلول القرن العشرين كانت قد تركت بصمتها على أحرمة الجامعات. فبقيت الكيمياء في هذا المبنى والفيزياء في ذلك الآخر والتاريخ هنا والرياضيات هناك، وفي وسط ذلك كله مكتبة مصممة عادة لتبدو كمعبد للتعليم.

في الوقت نفسه ازدهرت الصحف المحترفة في المجالات الرئيسية والفرعية. لقد أنتجت المجتمعات المتعلمة ذلك ثم ابتاعته المكتبات. وقد نجح هذا النظام لمدة مائة عام تقريبا. ثم أدرك الناشرون التجاريون أن بإمكانهم تحقيق ثروة من خلال بيع

اشتراكات الدوريات. وبمجرد أن تشترك مكتبة جامعة، فإن الطلبة والأساتذة يتوقعون فيضا غير منقطع من أعداد المطبوعات. ويمكن أن تتزايد أسعار الاشتراك دون أن يتسبب ذلك فى إلغاء الاشتراك، لأن المكتبات - وليس الأساتذة - هى التى دفعت الاشتراك. وأفضل ما حدث أن الأساتذة عملوا بصورة مجانية أو شبه مجانية، فقد كتبوا المقالات وقاموا بتقييم الرسائل العلمية وخدموا فى مجالس التحرير، وذلك - من جانب - لنشر المعرفة على طريقة التنوير ولكن - فى الأساس - لتطوير مستقبلهم المهنى.

تظهر النتيجة فى ميزانيات الاقتناء لكل مكتبة أبحاث: فـ جريدة علم الأعصاب المقارن Journal of Comparative Neurology، تكلف الآن ٢٥,٩١٠ دولار كاشتراك سنوى، بينما تكلف جريدة «رباعى الأسطح Tetrahedron»، ١٧,٩٦٩ دولار (أو ٣٩,٧٣٩ دولارا إذا كانت ضمن مجموعة كباقة)، وتبلغ متوسط تكلفة جريدة كيميائية ٣٤٩٠ دولار. وقد قوض تأثير تقلب الأسعار الحياة الفكرية فى عالم التعليم. وبسبب الأسعار الفاحشة للدوريات: فإن المكتبات التى اعتادت إنفاق ٥٠٪ من ميزانية الاقتناء على الدراسات المتخصصة monographs أصبحت الآن لا تنفق عليها سوى ٢٥٪ أو أقل. أما مطابع الجامعات التى تعتمد على البيع للمكتبات، فإنها لا تستطيع تغطية نفقاتها من خلال نشر المطبوعات المتخصصة. وبالنسبة لشباب العلماء الذين يعتمدون على النشر لتطوير مستقبلهم المهنى، فهم الآن عرضة للانقراض.

لحسن الحظ، فتلك الصورة لحقائق الحياة القاسية فى عالم التعليم هى بالفعل آخذة فى التغير. فلم يعد علماء الأحياء والكيمياء والفيزياء يعيشون فى عوالم منفصلة، وكذلك هو حال علماء التاريخ والإنسان والأدب. إن الخريطة القديمة للحرم الجامعى لم تعد تتطابق مع أنشطة الأساتذة والطلاب. فالخريطة يعاد رسمها فى كل مكان، وتتحول التصميمات المتشابكة فى العديد من المواقع إلى تركيبات متماسكة. المكتبة باقية فى قلب الأشياء، ولكنها تضخ الغذاء إلى أنحاء الجامعة، وعادة إلى المدى الأبعد للأنظمة الحديثة من خلال الشبكات الإلكترونية.

لقد تحولت «جمهورية أدب» القرن الثامن عشر إلى «جمهورية تعليم» مهنية، وهى الآن مفتوحة للهواة، بالمعنى الأفضل لكلمة هواة، عشاق التعليم من بين عامة المواطنين. وتسود الشفافية فى كل مكان بفضل مستودعات «حرية الولوج» للمقالات المخزنة رقميا والمتوفرة مجانا، مثل Open Content Alliance، وOpen Knowledge Commons، وOpenCourseWare، وInternet Archive، وكذلك مشاريع الهواة المفتوحة مثل «ويكيبيديا Wikipedia». إن ديمقراطية المعرفة هى الآن عند أطراف أصابعنا على ما يبدو، وباستطاعتنا إحياء نموذج التنوير على أرض الواقع.

عند تلك النقطة، ربما يكون هناك شك فى أنى قد تحولت من مذهب أمريكى «أدب النواح» إلى آخر «حماسة المدينة الفاضلة». أعتقد أنه ربما كان من الممكن للاثنين أن يعملا معا كنوع من الجدل المنطقى، ولو حتى بسبب خطر الاستغلال التجارى. فعندما تنظر شركات مثل «جوجل» إلى المكتبات، فإنها لا ترى مجرد معابد للتعليم، بل ترى ثروات محتملة أو ما تسميه «محتوى» جاهز للاستخراج. إن مجموعات المكتبات - التى تكونت عبر قرون وبتكلفة هائلة من الأموال والجهد - يمكن إجمالا تخزينها رقميا بتكلفة ضئيلة نسبيا، ملايين من الدولارات بالتأكيد، ولكنها ضئيلة مقارنة بالاستثمار الذى وضع فيها.

لقد وجدت المكتبات لتحقيق المصلحة العامة: «تشجيع التعليم» وإتاحته «مجانا للجميع». أما الشركات التجارية فقد وجدت لجنى المال لحملة الأسهم، وهى أيضا مفيدة لأن المصلحة العامة تعتمد على اقتصاد رابح. ومع ذلك فلو سمحنا باستغلال محتويات مكتباتنا تجاريا فلابد من حدوث تناقض جوهرى. إن تخزين المجموعات رقميا وبيع المنتج بطرق لا تضمن حرية الانتشار سيكون تكرارا للخطأ الذى وقع عندما استغل الناشرون سوق الدوريات العلمية، بل سيكون ذلك على نطاق أوسع كثيرا؛ لأن ذلك سيحول الإنترنت إلى أداة لخصخصة المعرفة التى تنتمى إلى الفلك العام. لن تتدخل يد خفية لتصحيح الخلل بين الصالح الخاص والعام. الجمهور فقط هو الذى يستطيع ذلك، ولكن من الذى يتحدث باسم الجمهور؟ بالطبع ليس مشرعى مرسوم حماية «ميكى ماوس».

لا يمكن التشريع للتنوير، ولكن من الممكن وضع قواعد للعبة لحماية المصلحة العامة. إن المكتبات تمثل الصالح العام. إنها ليست أعمالا تجارية، ولكن عليها أن تغطى التكلفة. وهى تحتاج إلى خطة عمل. فلنتذكر الشعار القديم لشركة «Con Edison» (شركة للطاقة تأسست عام ١٨٢٣ لتوزيع الكهرباء والغاز والبخار، المترجم) عندما اضطرت لشق شوارع نيويورك للوصول إلى البنية التحتية أسفلها: «علينا أن نحفر». المكتبات تقول: «علينا أن نخزن رقميا». ولكن ليس بأية شروط. علينا فعل ذلك للمصلحة العامة، وذلك يعنى أن من يقومون بعملية التخزين الرقمى سيكونون مسئولين أمام مجموع المواطنين.

سيكون من السذاجة أن نساوى بين الإنترنت والتنوير. إن لدى الإنترنت الإمكانية لنشر المعرفة إلى أبعد من أى مدى كان يمكن أن يتخيله «جيفرسون». ولكن بينما كان يتم بناؤها رابطا تلو الآخر، لم تقبع المصالح التجارية بلا حراك على جانب الطريق. إنها تسعى للسيطرة على اللعبة والاستيلاء عليها وامتلاكها. بالطبع فإن المصالح التجارية تتنافس فيما بينها، ولكن بضراوة شديدة تصل إلى حد القضاء على بعضها البعض. إن صراعها من أجل البقاء يؤدى إلى تضييق المنافسة، وأيا كان الفائز فإن النصر سيعنى هزيمة الصالح العام.

أرجو ألا يساء فهمى، أنا أعلم أن المصالح التجارية يجب أن تكون مسئولة أمام حملة الأسهم. كما أننى أومن أن من حق المؤلفين الحصول على عائد لجهدهم الخلاق وأن الناشرين يستحقون المال مقابل القيمة التى يضيفونها إلى النصوص التى يقدمها المؤلفون. وأنا معجب بسحر الأجهزة والبرمجيات ومحركات البحث والتخزين الرقمى وما يستتبع ذلك من تكنولوجيا راقية. أنا أقر بأهمية حقوق الملكية الفكرية، رغم أنى أعتقد أن الكونجرس عالج الأمر عام ١٧٩٠ على نحو أفضل مما فعل عام ١٩٩٨.

لكننا نحن أيضا لا نستطيع الجلوس على جانب الطريق كما لو كان يمكن الوثوق بأن قوى السوق سوف تعمل للصالح العام. علينا أن نشارك ونقاتل ونستعيد الملكية العامة المستحقة. وعندما أقول «نحن» فإنى أعنى نحن الشعب الذى وضع الدستور والذى يجب عليه أن يجعل من مبادئ التنوير وراء الدستور مرشدا للحقائق اليومية لمجتمع المعلومات. نعم، علينا أن نخزن رقميا. ولكن الأهم أن علينا أن نكون ديمقراطيين. علينا أن نتيح حرية الوصول لتراثنا الثقافى. كيف؟ من خلال إعادة كتابة قواعد اللعبة وإخضاع المصالح الخاصة للصالح العام ومن استلهام الجمهورية الأولى لكى نخلق «جمهورية رقمية للتعليم».

ما الذى أثار انعكاسات أدب النواح والمدينة الفاضلة؟ إنها «جوجل». فمنذ أربعة أعوام بدأت «جوجل» فى تخزين الكتب رقميا من مكتبات الأبحاث، متيحة البحث عن نصوص كاملة وموفرة كتب الملكية العامة على الإنترنت بدون أى كلفة على المتصفح. فعلى سبيل المثال، من الممكن الآن لأى شخص فى أى مكان أن يستعرض ويقوم بتحميل نسخة رقمية من الطبعة الأولى عام ١٨٧١ لـ «منتصف مارس Middlemarch» (رواية لجورج إليوت George Eliot، وهو اسم الشهرة للروائية مارى آن إيفانز Mary Anne Evans، المترجم)، والتى تقع ضمن مجموعة «مكتبة بودليان Bodleian Library» فى جامعة أوكسفورد. وقد استفاد الجميع، بما فى ذلك «جوجل» التى حققت عائدات من بعض الإعلانات الخفية المرفقة بخدمة «جوجل» للبحث عن الكتب (Google Book Search). وقد خزنت «جوجل» رقميا أيضا أعدادا متزايدة من كتب المكتبات التى تحميها حقوق الملكية الفكرية، وذلك كى توفر خدمة البحث التى تعرض مقاطع صغيرة من النص. وفى سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٥، قامت مجموعة من المؤلفين والناشرين برفع دعوى قضائية جماعية ضد «جوجل» مدعين بانتهاكها حقوق الملكية الفكرية. وفى الثامن والعشرين من أكتوبر الماضى - وبعد مفاوضات مطولة - أعلنت الأطراف

توصل المدعون و«جوجل» إلى تسوية سيكون لها أكبر الأثر على الأسلوب الذى تصل به الكتب إلى القراء فى المستقبل المنظور. ماذا سيكون شكل هذا المستقبل؟

Google

المتنازعة الاتفاق على تسوية تخضع لموافقة محكمة المقاطعة الجنوبية لنيويورك (يمكن العثور على النص الكامل للتسوية على www.googlebooksettlement.com/agreement.html. وبالنسبة للإشعار القانوني لـ «جوجل» بخصوص التسوية، راجع صفحة ٣٥ من هذا العدد لمجلة The New York Review of Books).

تؤسس التسوية مشروعا تجاريا يعرف باسم «سجل حقوق الكتب Book Rights Registry»، يمثل مصالح أصحاب حقوق الملكية الفكرية. وسوف تبيع «جوجل» حق الولوج إلى بنك معلومات هائل يتكون في الأساس من كتب لم تعد تطبع وتتمتع بحقوق الملكية الفكرية مخزنة رقميا من مكتبات الأبحاث. وسوف تتمكن الكليات والجامعات والمنظمات الأخرى من الاشتراك من خلال دفع مبلغ مقابل «رخصة مؤسسات» تتيح الولوج إلى بنك المعلومات. أما «رخصة الولوج العامة»، فسوف تتيح تلك المواد للمكتبات العامة حيث ستوفر «جوجل» استعراضا مجانيا للكتب المخزنة رقميا على جهاز كمبيوتر طرفي واحد فقط. وسوف يتمكن الأفراد أيضا من الولوج وطباعة نسخ رقمية من الكتب من خلال شراء «رخصة مستهلك» من «جوجل»، التي سوف تتعاون مع السجل لتوزيع كل العائدات على أصحاب حقوق الملكية الفكرية. سوف تحتفظ «جوجل» بنسبة ٣٧٪؛ بينما يقوم السجل بتوزيع ٦٣٪ على أصحاب الحقوق.

في الوقت نفسه، ستستمر «جوجل» في توفير كتب الملكية العامة مجانا للمستخدمين للقراءة والتحميل والطباعة. ومن بين السبعة ملايين كتاب التي يعتقد أن «جوجل» قد خزنتها رقميا بحلول نوفمبر عام ٢٠٠٨، يقع مليون منها ضمن الملكية العامة، ومليون آخر تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ويعاد طبعها. وخمسة ملايين كتاب تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ولكنها لم تعد تطبع. والفئة الأخيرة هي التي ستشكل كم الكتب التي سيتم توفيرها لرخصة المؤسسات.

لن تتوفر في بنك المعلومات العديد من الكتب التي تتمتع بحقوق الملكية الفكرية ويعاد طبعها، ما لم يقرر ذلك أصحاب الحقوق. وسوف يستمر بيع تلك الكتب بالطريقة العادية كنسخ مطبوعة، وكذلك يمكن تسويقها للمستهلكين الأفراد كنسخ رقمية يمكن الولوج إليها من خلال رخصة المستهلك للتحميل والقراءة، وربما في النهاية على أجهزة قراءة الكتب الإلكترونية مثل جهاز «Kindle» من «أمازون Amazon».

بعد قراءة التسوية واستيعاب بنودها - وذلك ليست مهمة يسيرة، حيث إنها تصل إلى ١٣٤ صفحة بالإضافة إلى خمسة عشر ملحقا من الكتابة القانونية المعقدة - يرجح أن يصاب المرء بالذهول: فهذا العرض يمكن أن يؤدي إلى ظهور أضخم مكتبة على وجه الأرض. من المؤكد أنها ستكون مكتبة رقمية، ولكن من الممكن أن تتضاءل أمامها مكتبة الكونجرس وجميع المكتبات الوطنية في أوروبا. والأكثر من ذلك أن «جوجل» - بمتابعة بنود التسوية مع المؤلفين والناشرين - يمكنها أيضا أن تصبح أضخم تجارة كتب في العالم - ليست سلسلة من المتاجر، بل خدمة تزويد إلكترونية يمكن أن تطيح بـ «أمازون».

من المحتم لمشروع تجاري بمثل هذا الحجم أن يثير ردود أفعال من النوعين اللذين كنت أناقشهما: من جهة، حماسة المدينة الفاضلة؛ ومن جهة أخرى، النواح تجاه خطر تركيز السلطة للسيطرة على حرية الوصول للمعلومات.

من يمكن ألا يشعر بالإثارة تجاه إمكانية وصول كل الكتب بالفعل من أكبر مكتبات الأبحاث الأمريكية إلى متناول كافة الأمريكيين، وربما في النهاية إلى كل شخص في العالم يملك الدخول إلى الإنترنت؟ لن يقتصر الأمر على توفير الكتب للقراء من خلال سحر «جوجل» التكنولوجي، بل إنه سيتيح أيضا فرصا غير مسبوقة للأبحاث، مجموعة كاملة من الفرص بداية من البحث المباشر عن كلمة وحتى الاستخراج المعقد للنصوص. وتحت ظروف معينة، ستتمكن المكتبات المشاركة من استخدام النسخ المخزنة رقميا من كتبها لعمل نسخ بديلة من الكتب التالفة أو المفقودة. كما ستقوم «جوجل» بهندسة النصوص بطريقة تساعد القراء من أصحاب الاحتياجات الخاصة.

لسوء الحظ فإن التزام «جوجل» بتوفير ولوج مجاني لقاعدة بياناتها على جهاز طرفي واحد فقط في كل مكتبة عامة مكبل بالقيود: فلن يكون بمقدور القراء طباعة أي نص تحميه حقوق الملكية الفكرية دون دفع رسم لأصحاب الحقوق (رغم أن «جوجل» عرضت الدفع لهم منذ البداية)، وجهاز طرفي واحد لن يكفي بالكاد لإشباع الطلب في المكتبات الكبرى. ولكن كرم «جوجل» سيكون هبة لقراء مكتبات «كارنيجي» في المدن الصغيرة، والذين ستتاح لهم كتب أكثر من المتوفرة حاليا في مكتبة نيويورك العامة. إن «جوجل» قادرة على تحقيق حلم التنوير.

ولكن هل ستفعل «جوجل» ذلك؟ لقد رأى فلاسفة القرن الثامن عشر في الاحتكار عقبة رئيسية أمام انتشار المعرفة - ليس الاحتكار على إطلاقه، والذي أعاق التجارة وفقا لـ «آدم سميث» (فيلسوف سكوتلاندي: ١٧٢٣-١٧٩٠) وأنصار الاقتصاد الزراعي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (Physiocrats)؛ ولكن احتكارات معينة مثل «شركة لندن للناشرين» ونقابة بائعي الكتب في باريس، والتي قضت على حرية تجارة الكتب.

شركة «جوجل» ليست بنقابة، وهي لم تنشأ لخلق احتكار. بل على العكس من ذلك، فإنها سعت إلى هدف حميد: المساهمة في تيسير الوصول للمعلومات. ولكن سمعة الدعوى القضائية الجماعية التي لحقت بالتسوية تجعل «جوجل» عرضة للمنافسة. فغالبية المؤلفين والناشرين الذين يملكون حقوق ملكية فكرية أمريكية يستفيدون تلقائيا من التسوية، بمقدورهم الخروج منها. ولكن مهما فعلوا فلا يمكن تأسيس مشروع تجاري جديد للتخزين الرقمي دون الحصول على موافقتهم الواحد تلو الآخر، وذلك مستحيل عمليا؛ أو دون التورط من جديد في دعوى قضائية جماعية أخرى. وإذا حظيت التسوية بموافقة المحكمة - وهي عملية قد تستغرق عامين من الزمن - فإنها ستمنح «جوجل» السيطرة على عملية التخزين الرقمي لجميع الكتب التي تتمتع بحقوق الملكية الفكرية في الولايات المتحدة.

لم تكن تلك النتيجة متوقعة في البداية. وعند مراجعة تاريخ التخزين الرقمي منذ التسعينيات، يمكننا الآن اكتشاف ضياع فرصة كبيرة منا. فمن خلال إجراءات الكونجرس ومكتبته، أو تحالف ضخم من مكتبات الأبحاث بدعمه اتحاد للمؤسسات، كان من الممكن إنجاز المشروع بتكلفة مقبولة وتصميمه بطريقة تضع المصلحة العامة أولا. ومن خلال توزيع الكلفة بطرق مختلفة - إيجار على أساس معدل استخدام قاعدة البيانات، أو خط غير مكلف في «الوقف الوطني للدراسات الإنسانية National Endowment for the Humanities»، أو مكتبة الكونجرس - كان في إمكاننا توفير دخل مشروع للمؤلفين والناشرين والإبقاء على مستودع معلومات متاح مجانا أو برسوم معقولة. كان في إمكاننا إنشاء مكتبة رقمية قومية تكافئ - في القرن الحادي والعشرين - مكتبة الإسكندرية. لقد فات الوقت الآن. إننا لم نخفق فقط في إدراك تلك الإمكانية، بل الأسوأ من ذلك أننا نسمح للدعاوى القانونية الخاصة بتقرير قضايا تتعلق بالسياسة العامة - السيطرة على الوصول للمعلومات.

بينما كانت السلطات العامة تغط في سبات عميق، أخذت «جوجل» بزمام المبادرة. إنها لم تسع لتسوية شئونها في المحكمة، بل باشرت عملها في المسح الضوئي للكتب في المكتبات. وقد مسحت الكتب بكفاءة عالية لإثارة شهية الآخرين للحصول على نصيب من الأرباح المتوقعة. لا يجب أن يعترض أحد على مطالب المؤلفين والناشرين في الحصول على دخل من حقوقهم التي لا نزاع عليها؛ ولا يجب أن يفترض أحد إصدار أحكام متسرعة على الأطراف المتنازعة للدعوى القضائية. إن قاضي محكمة المقاطعة سوف يصدر حكمه بشأن مشروعية التسوية، ولكن تلك في الأساس مسألة تتعلق بتوزيع الأرباح وليس بتحقيق المصلحة العامة.

وكإحدى النتائج غير المقصودة، سوف تتمتع «جوجل» بما يمكن فقط تسميته باحتكار - احتكار من نوع جديد، ليس للسكك الحديدية أو الصلب بل لحرية الوصول للمعلومات. ليس في مواجهة «جوجل» منافسون خطيرون. فقد تخلت «ميكروسوفت» منذ عدة أشهر عن برنامجها الرئيسي

لو طبقنا سلوك المعرفة على الحاضر - كما فعل «بوردو» نفسه - فسنكتشف أننا نعيش في عالم شرس قام بتصميمه «ميكي ماوس»، أحمر الأسنان والمخالب

Google

لتخزين الكتب رقميا، أما المشاريع التجارية الأخرى مثل «Open Knowledge Commons» (كانت تسمى فى السابق «Open Content Alliance») و«Internet Archive» فهى صغيرة وغير فعالة بالمقارنة مع «جوجل». تمتلك «جوجل» وحدها إمكانيات التخزين الرقمى على نطاق واسع. وبعد إجراء التسوية مع المؤلفين والناشرين يمكن لها استغلال قوتها المالية من وراء حاجز حماية قانونى. لأن الدعوى القضائية الجماعية تغطى كل طبقة المؤلفين والناشرين. ولن يتمكن أى متعهد جديد من تخزين الكتب رقميا ضمن هذا النطاق المحمى، حتى لو استطاع تحمل الكلفة. لأنه سيتوجب عليه دخول معارك حقوق الملكية الفكرية كلها مرة ثانية. وإذا أيدت المحكمة التسوية، فإن «جوجل» فقط هى التى ستتمتع بالحماية من مسئولية حقوق الملكية الفكرية.

يشير سجل «جوجل» إلى أنها لن تسىء استغلال سطوتها المالية القانونية الجبارة. ولكن ماذا سيحدث لو باع رؤساؤها الحاليون الشركة أو تقاعدوا؟ سيعرف الجمهور الإجابة من الأسعار التى ستتقاضاها «جوجل» فى المستقبل، وخاصة سعر رخص اشتراك المؤسسات. إن التسوية تتيح لـ «جوجل» حرية التفاوض حول الصفقات مع كل من عملائها. على الرغم من إعلانها لمبدأين إرشاديين: «أولا، تحقيق عائد بمعدلات السوق لكل كتاب ورخصة لصالح أصحاب الحقوق، ثانيا: تحقيق ولوج على نطاق واسع للكتب بواسطة الجميع، بما فى ذلك مؤسسات التعليم الأعلى».

ماذا سيحدث لو انحازت «جوجل» إلى الربحية على حساب حرية الولوج. إذا كنت قد قرأت بنود التسوية على نحو صحيح، فلن يحدث شىء، وحده السجل، الذى يعمل لصالح أصحاب حقوق الملكية الفكرية، هو صاحب السلطة لإجراء تغيير فى أسعار الاشتراك التى تتقاضاها «جوجل»، وليس هناك من سبب يدعو لتوقع اعتراض السجل إذا كانت الأسعار عالية جدا. قد تختار «جوجل» أن تكون كريمة فى أسعارها، ولدى من الأسباب ما يجعلنى آمل أن تفعل ذلك. ولكنها قد تطبق أيضا أسلوبا يمكن مقارنته بذلك الذى أثبت فعاليته الشديدة فى رفع أسعار الدوريات العلمية: أولا، إغراء المشتركين بأسعار مبدئية منخفضة، ثم رفع الأسعار بعد ذلك إلى أعلى ما يمكن تحمله بعد أن تم اصطيادهم.

قد يجادل أنصار السوق الحرة بأن السوق سوف يستدرك الخطأ. فإذا تقاضت «جوجل» أكثر من اللازم فإن المستهلكين سوف يلغون اشتراكاتهم وسوف ينخفض السعر. ولكن ليست هناك صلة مباشرة بين العرض والطلب فى الآليات التى تحكم رخص المؤسسات كما تتصورها التسوية. إن الطلبة والكليات ورعاة المكتبات العامة لن يدفعوا الاشتراكات. إن النقود سوف تأتى من المكتبات، وإذا ما أخفقت المكتبات فى تدبير المال الكافى لتجديد الاشتراك فربما تثير احتجاجات عنيفة من القراء الذين اعتادوا على خدمة «جوجل». ولمواجهة الاحتجاجات، من المرجح أن تلجأ المكتبات إلى الاقتطاع من خدمات أخرى، بما فى ذلك اقتناء الكتب، مثلما فعلت عندما رفع الناشرون أسعار الدوريات.

لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث. ليس فى إمكاننا سوى أن نقرأ بنود التسوية والتخمين بشأن المستقبل. إذا قامت «جوجل» ـ بسعر معقول ـ بتوفير مجموع ممتلكات جميع المكتبات الأمريكية الرئيسية، فمن الذى لن يصفق؟ ألن نفضل عالما نتمكن فيه من الوصول بحرية إلى تلك المجموعة الهائلة من الكتب الرقمية، حتى ولو بأسعار عالية، على عالم لا يتوفر فيه ذلك؟

ربما. ولكن التسوية تحدث تحولا جوهريا فى العالم الرقمى من خلال تركيز السلطة فى أيدى شركة واحدة. فباستثناء «ويكيبيديا»، فإن «جوجل» تسيطر بالفعل على وسائل الوصول للمعلومات على الإنترنت بالنسبة لمعظم الأمريكيين. سواء كانوا يريدون الاستعلام عن أشخاص أو سلع أو أماكن أو أى شىء تقريبا. وبالإضافة إلى «جوجل الكبير Big Google» الأصلى، فلدينا «جوجل الأرض Google Earth»، و«جوجل الخرائط Google Maps»، و«جوجل الطعام Google Food»، و«جوجل الرياضة Google Sports»، و«جوجل الصحة Google Health»، و«جوجل الفحص Google Checkout»، و«جوجل التحذيرات Google Alerts»، ومشاريع «جوجل» تجارية أخرى عديدة فى الطريق. ويعد «Google Book Search» بإنجاز أعظم مكتبة وأكبر مشروع تجارى للكتب موجود على الإطلاق. وسواء فهمت التسوية على النحو الصحيح أم لا، فإن بنودها مترابطة بإحكام تام لدرجة أنه لا يمكن الفصل بينها. وعند تلك النقطة، ليس من المرجح أن تقوم «جوجل» أو المؤلفون أو الناشرون أو محكمة المقاطعة بتعديل التسوية بصورة جوهرية. ومع ذلك فإن تلك أيضا نقطة تحول فى تطور ما نطلق عليه مجتمع المعلومات. ولو لم نحقق التوازن فى تلك المرحلة فربما ترجح كفة المصالح الخاصة على الصالح العام فى المستقبل المنظور ويصبح حلم التنوير وهماً كما كان دوما. ■

google

كيف تنظر شركة google للموضوع؟

فى السطور التالية ترجمة لفحوى رد الشركة على استفسارات «وجهات نظر»:

هى تسوية غير مسبوقة توصلت إليها «جوجل» مع المؤلفين والناشرين من شأنها أن تيسر الوصول إلى ملايين الكتب وتخلق سوقا جديدا للمؤلفين والناشرين لبيع أعمالهم.

حول خدمة البحث عن الكتب

من خلال زيارة books.google.com، يمكن للقراء البحث خلال ملايين الكتب التى تم تخزينها رقميا من خلال برنامجنا للشراكة ومشروع المكتبة. وتوفر الخدمة قائمة من الكتب ذات العلاقة وفقا لموقعها من حقوق الملكية الفكرية أو ما يسمح به أصحاب تلك الحقوق.

وبرنامج الشراكة هو برنامج لـ «جوجل» يستخدمه أكثر من عشرين ألف ناشر فى أنحاء العالم للترويج لكتبهم. ووفقا للبرنامج، يقدم لنا الشركاء (أى الناشرين) نسخا من كتبهم كى نخزنها رقميا ونضعها على الإنترنت للاستعراض وفى تلك الحالة، فإننا نعرض عددا محدودا من صفحات الكتب للمستخدمين. وإذا لقى كتاب اهتماما، يستطيع المستخدم النقر على موقع الناشر أو تاجر التجزئة ويقوم بشرائه. كما أننا نوجه القراء إلى المكتبات القريبة منهم حيث يمكن العثور على الكتاب.

وكجزء من مشروع المكتبة، تقوم المكتبات أيضا بتزويدنا بالكتب من مجموعاتها كى نخزنها رقميا. وفى الوقت الحالى

- يستطيع المستخدمون قراءة وتحميل جميع الكتب غير المحمية بحقوق الملكية الفكرية.
- بالنسبة للكتب المحمية بحقوق الملكية الفكرية. يستطيع القراء استعراض معلومات ثبت المراجع المتعلقة بالكتاب بالإضافة إلى بعض الفقرات.

حول الاتفاقية

إن الاتفاقية التى تم الإعلان عنها فى أكتوبر ٢٠٠٨ بين «جوجل» وطائفة كبيرة من أصحاب حقوق الملكية الفكرية سوف تفتح المجال للوصول إلى ملايين الكتب فى الولايات المتحدة وتخلق سوقا جديدة للمؤلفين والناشرين لبيع أعمالهم. وتنهى الاتفاقية الدعاوى القضائية المرفوعة من قبل نقابة المؤلفين وغيرهم بالإضافة إلى خمسة من كبار الناشرين يمثلون عضوية جمعية الناشرين الأمريكيين. وإجمالا تحقق الاتفاقية المصلحة الدائمة للمؤلفين والناشرين والقراء على السواء أكثر مما كان يمكن أن نحققه بصورة فردية.

وفى حالة إقرارها من قبل المحكمة، ستوفر الاتفاقية ما يلى:

١ـ إتاحة الوصول لملايين الكتب

ستزيد الاتفاقية بصورة كبيرة من حرية الوصول إلى الكتب فى الولايات المتحدة، وخاصة فيما يتعلق بالكتب التى لم تعد تطبع أوتلك التى تتمتع بحقوق الملكية الفكرية. وتندرج الغالبية العظمى من كتب العالم ضمن تلك الفئة الأخيرة من الأعمال ـ كتب تحت حماية حقوق الملكية الفكرية وكتب مجهولة الموقف من تلك الحماية. ونتيجة لذلك فإن ملايين الكتب المنشورة فى أنحاء العالم والتى تمثل قرونا من الدراسة والخبرة والثقافة سوف تظل عصية المنال.

وسوف توفر «جوجل» الخيارات التالية للوصول إلى الكتب:

Google

إلى «وجهات نظر»

● الاستعراض: يمكن للقراء ـ مجانا ـ استعراض ما يصل إلى ٢٠٪ من صفحات معظم الكتب التى لم تعد تطبع. ومثل عملية التصفح فى المتجر، يمكن للقراء تقليب بضع صفحات لمساعدتهم فى تقرير إذا ما كان الكتاب مناسبا لهم للشراء.

● البيع للمستهلك: يمكن للقراء شراء الحق الكامل للولوج لكتاب عبر الإنترنت. ويعنى ذلك أن شخصا فى الولايات المتحدة يستطيع أن يقرأ كتابا كاملا من أى جهاز كمبيوتر متصل بالإنترنت إذا ما اشترى حق الولوج للكتاب.

● اشتراك مؤسسة: يمكن للمنظمات الأكاديمية والحكومية وغيرها شراء اشتراك يسمح لأعضائها بالولوج عبر الإنترنت إلى النص الكامل لملايين العناوين.

وبالنسبة للكتب التى لم تعد تطبع وما زالت تتمتع بحقوق الملكية الفكرية، فسيتم «تشغيل» نماذج الولوج الجديدة تلك تلقائيا، ما لم يقرر صاحب الحقوق فى كتاب إيقافها. ويعنى ذلك أنه بمجرد الموافقة على هذه الاتفاقية فسوف يتمكن القراء من بحث واستعراض وشراء حق الولوج الكامل لملايين الكتب التى يصعب جدا اليوم العثور عليها أو شراؤها.

وبالنسبة للكتب التى ما زالت تطبع وتتمتع بحقوق الملكية الفكرية، فسيتمكن القراء من البحث عنها والعثور عليها، ولكنهم لن يستطيعوا استعراض أى جزء من الكتاب تلقائيا. وباستطاعة أصحاب الحقوق اختيار تفعيل نماذج الولوج الجديدة من خلال مشاركتهم فى الاتفاقية أو من خلال برنامج الشراكة للبحث عن الكتب. ومن المهم الإشارة إلى أن الكتب فى برنامج الشراكة سوف تظل متاحة للاستعراض كما هى اليوم، وسيتمكن الشركاء من تفعيل خدمة البيع للمستهلك ـ إن كانت متوفرة ـ وكذلك اشتراك المؤسسات.

سيبقى القراء أيضا قادرين على استعراض وتحميل جميع الكتب المدرجة خارج نطاق حماية حقوق الملكية الفكرية.

٢ـ خلق سوق جديدة للمؤلفين والناشرين

بالإضافة إلى توسيع نطاق الولوج إلى الكتب، تخلق الاتفاقية فرص عائد جديد للمؤلفين والناشرين، وسوف يحصل أصحاب الحقوق على معظم العائد عندما يشترى القراء حق الولوج للكتب.

● وبالنسبة للكتب التى لم تعد تطبع ولا يوجد لها فى معظم الحالات سوق تجارية، فإن تلك الاتفاقية تتيح فرص عائد جديد لم يكن موجودا فى السابق. وفى ظل هذه الاتفاقية يمكن إتاحة تلك الكتب من جديد للعامة، وسوف يربح أصحاب الحقوق مالا من خلال إتاحتها.

● وفيما يتعلق بالكتب التى ما زالت تطبع، توسع الاتفاقية السوق الإلكترونية لبيع الكتب فى الولايات المتحدة دون تحميل أصحاب الحقوق أية تكاليف، كما أنهم ـ بقليل من الجهد ـ سيتمكنون من الاستفادة من نماذج ولوج القارئ الجديدة. وفى أى وقت، يمكن لأصحاب الحقوق اختيار تشغيل أو إغلاق نماذج الولوج الجديدة فيما يتعلق بكتبهم.

٣ـ إنشاء سجل لحقوق الملكية الفكرية للكتب.

بالإضافة لذلك، ستقوم «جوجل» بتمويل إنشاء سجل مستقل غير ربحى لحقوق الملكية الفكرية للكتب يديره المؤلفون والناشرون ويكون مسئولا ـ كجزء من هذه الاتفاقية ـ عن الوصول لأصحاب الحقوق وكذلك تحصيل وتوزيع المال المكتسب. ويعمل هذا السجل لصالح المؤلفين والناشرين الأمريكيين والأجانب الذين تم تخزين أعمالهم رقميا بواسطة أحد شركاء مشروع مكتبة البحث عن الكتب. وسيعمل السجل أيضا لصالح أصحاب الحقوق فى البرامج المماثلة (المبادرة الأوروبية للتخزين الرقمى European Digitization Initiative على سبيل المثال) التى قد تدشنها شركات أو مؤسسات أخرى. ونعتقد أن هذه الاتفاقية ستساعد فى تخفيض أعداد الكتب «اليتيمة» (مجهولة المؤلف أو الناشر) لأن أصحاب الحقوق سيكون لديهم حافز اقتصادى حقيقى للتقدم والمطالبة بأعمالهم حتى يربحوا المال بعد ذلك. وتوفر الاتفاقية سبيلا أمام أصحاب الحقوق للحصول على تعويض إذا ما أراد شخص ما استغلال عملهم مثل ـ على سبيل المثال ـ أن يرغب كاتب سيناريو فى عمل فيلم عن كتاب لم يعد يطبع. سوف يحتفظ السجل بقاعدة بيانات دقيقة عن أصحاب الحقوق، مما يجعل من التعرف على أصحاب الحقوق والاتصال بهم أمرا أكثر سهولة. كما سيتمكن السجل من تمثيل مصالحهم ـ إلى المدى الذى يخولونه ـ عند الترخيص لخدمات طرف ثالث آخر.

ماذا يعنى ذلك بالنسبة للمستخدمين وأصحاب الحقوق خارج الولايات المتحدة؟

من الممكن أيضا للمؤلفين والناشرين الدوليين الذين تم تخزين كتبهم رقميا من شريك بمشروع المكتبة الأمريكى أن يفيدوا من تلك الصفقة. فكجزء من برنامج إشعار عالمى، سيتصل مدير التسوية بالمؤلفين والناشرين فى أنحاء العالم لإبلاغهم بحقوقهم فى ظل التسوية، والتى تتضمن الحق فى عدم تطبيق التسوية عليهم وإمكانية التسجيل لدى سجل حقوق الملكية الفكرية للكتب لتحقيق السيطرة والتربح من وراء الولوج لكتبهم عبر الإنترنت.

وعلى أية حال، فحيث إن تلك الاتفاقية هى نتيجة لدعوى قضائية أمريكية، فهى لا تؤثر سوى على تجربة البحث عن الكتب بالنسبة للمستخدمين الذين يدخلون الموقع من داخل الولايات المتحدة. أما خارج الولايات المتحدة، فلن تتغير تجربة المستخدمين مع خدمة «جوجل» للبحث عن الكتب، ما لم يصرح صاحب الحق فى كتاب بتقديم مثل تلك المنتجات والخدمات.

وبينما تتعلق تلك الصفقة بالكتب المخزنة رقميا فى الولايات المتحدة فقط، فإن «جوجل» تعتقد بشدة أن نفس الفرص للمستخدمين وأصحاب الحقوق يمكن أن تنجح فى دول أخرى كذلك، وأنها سوف تتحدث إلى الناشرين والهيئات المؤسساتية المهتمة بتلك الاتفاقية. كما أننا نعتقد أيضا أن سجل حقوق الملكية الفكرية للكتب قد يشكل مصدرا هاما للمعلومات التى يمكن أن تفيد جهودا أخرى لتخزين الكتب رقميا وإن كانت غير متصلة بـ «جوجل».

فى النهاية، من المهم أن نلاحظ أن عرض جميع الكتب المتمتعة بحقوق الملكية الفكرية والتى ساهم بها المشاركون فى برنامج الشراكة سوف يبقى بلا تغيير. فسوف يستمر المستخدمون فى الولايات المتحدة وخارجها فى رؤية عرض محدود لأعمال برنامج الشراكة مع إمكانية النقر إلى موقع الناشر أو موقع البيع بالتجزئة وشراء الكتاب. وبالمثل، لا تؤثر هذه الاتفاقية على الكتب التى لم تعد تطبع، والتى ستظل متاحة للمستخدمين مجانا وبالكامل.

بالنسبة لأولئك الذين يمتلكون أو يعتقدون أنهم ربما يمتلكون مصالح تتعلق بحقوق الملكية الفكرية فى الولايات المتحدة، فهناك مزيد من المعلومات حول الاتفاقية على موقع تسوية المطالبات http://books.google.com/booksrightsholders.

كما يمكن الحصول على مزيد من المعلومات العامة للمستخدمين على هذا الموقع http://books.google.com/agreement.

الجزء الثاني

لدي اعتقاد راسخ بأن إقامة دولة فلسطينية في الضفة وغزة سيخدم مصالح الولايات المتحدة في المنطقة/ غلبة الدين تعكس إخفاق الخطاب الاشتراكي في التكيف مع احتياجات الجماهير العربية./ أعتقد أن كراهية الإسلام مؤشر على الأزمة التي تعيشها قوى اليسار في أوروبا/ لدى الجاليات المسلمة في فرنسا. ثمة عودة حقيقية إلى الإسلام تتسم بأنها أعمق فكرا وأكثر تنظيما/ بسبب طارق رمضان

ألان جريش: «صديقي المصري تحول من الشيوعية إلى الإخوان المسلمين»

قام اليسار الراديكالي بمقاطعتي/ أعتقد أنه من المهم أن يعلم المسلمون أن المرء قد يكون بلا ديانة، ولكنه يبقى مع ذلك قادرا على أن يكون متفقا معهم./ الناس في مصر لم يعد لديهم إلا فكرة واحدة، هي السعي إلى الهجرة.. وذلك يعني غياب الأمل/ أنا أعتقد أنه يجب فتح المجال أمام الإخوان المسلمين لكي يصلوا إلى الحكومة

حوار: داليا توفيق سعودى

في العدد الماضى من «وجهات نظر» نشرنا الجزء الأول من هذا الحوار المطول والمعمق مع «آلان جريش» نائب رئيس مجلس إدارة «لوموند ديبلوماتيك» ، ورئيس تحريرها لسنوات عديدة. فى الجزء الأول، أجاب الكاتب اليسارى المتميز على أسئلة تناولت بالأساس الصراع العربى الإسرائيلى: لماذا لايفهم المثقفون العرب إسرائيل؟ لماذا صوت الفلسطينيون لصالح حماس؟ لماذا يتحيز الغرب لإسرائيل؟ و لماذا ابتليت المنطقة بكل هذا التطرف؟

فى الجزء الثانى من الحوار الذى ننشره هنا، يتحدث جريش عن قضايا المسلمين فى أوروبا، وعن أزمة اليسار الفرنسى، وعن المشكلات التى جلبتها له علاقته بطارق رمضان. كما يعرض رأيه فى الإخوان المسلمين، ومستقبل النظام فى مصر.

وهذا نص الحوار

المحـــرر

في كتابه «آخر محرمات أمريكا» (America's last taboo)، تحدث ادوارد سعيد عن الصهيونية الأمريكية، بوصفها عنصرا متجذرا فى السياسة الأمريكية. فهل هناك اى تغيير فى هذا الوضع مع وصول الرئيس أوباما إلى الحكم؟ هو سؤال روتينى نطرحه كلما أتى رئيس جديد إلى البيت الأبيض..

لو كان السؤال عن تغير جذرى، فالإجابة هى «لا» بلا أدنى شك. ولكن إذا كان السؤال عن تعديلات فى المسارات، فهذا ممكن.فلقد قدمت الإدارة الأمريكية الأخيرة دعما لا مثيل له لسياسة إسرائيل المعتدية؛ أحسب أنه سيكون هناك عدد من التغيرات مع مقدم الإدارة الجديدة، وإن لم تكن تغييرات كبيرة برأيى، لم يتعرض التحالف الاستراتيجى القائم بين أمريكا وإسرائيل منذ قرابة ثلاثين عاما للاهتزاز. مع ذلك، ثمة أصوات فى المجتمع الأمريكى بدأت تتساءل بشأن هذا التحالف، وبشأن نوعية السياسة التى يجدر بأمريكا تأييدها فى إسرائيل.

منذ زمن طويل، وأنا لدى اعتقاد راسخ بأن إقامة دولة فلسطينية فى الضفة وغزة سيخدم مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة و لكن، يبقى ذلك مطلبا صعبا لأن الأمريكيين لا يملكون فى أيديهم زمام كل شىء.فالسياسة الأمريكية نفسها منقسمة، والسياسة الإسرائيلية أيضا منقسمة. والعالم العربى منقسم، والفلسطينيون منقسمون.كل ذلك لا يسهل التوصل إلى السلام وإلى إقامة دولة فلسطينية.

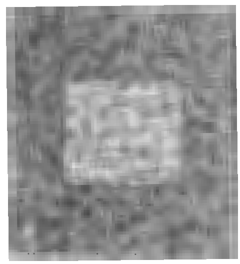
هل سيشهد عصر أوباما عودة إلى ما يسمى بـ«القوة الهادئة أو اللينة، أو (The Soft power)؟ التى يمكن تعريفها على أنها نشر للنموذج الأمريكى، بإعمال خليط محكم من الجاذبية والإقناع والنشاط الدبلوماسى؟ أم أن اللحظة الراهنة اشد «قساوة» من أن تتقبل سياسة «لينة»؟

من الأكيد أن أوباما يتمتع بمزية











لم تتأت لبوش في أي وقت من الأوقات، ألا وهي الشعبية الدولية الجارفة. في فرنسا مثلا، لو أجريت استطلاعات للرأي، فسيصوت أكثر من ٨٠٪ من الفرنسيين لصالح أوباما. لذا فهو سيبدأ عمله وهو محمل برصيد كبير من الثقة، وهو ما يوسع من آفاق نجاحه بصورة كبيرة. ولكن هل سيترجم ذلك على أرض الواقع؟ هذا ما سنعرفه مستقبلا.

أما فيما يتعلق بسؤالك عن النموذج الأمريكي في هذه اللحظة العصيبة، فالمشكلة التي تواجه هذا النموذج حاليا هي ركائزه الاقتصادية، لأنها هي التي تهتز بعنف الآن. فما يهتز اليوم ليس مجرد النموذج الذي خلفه بوش، بل هو ذلك النموذج الأمريكي الذي تم إرساؤه منذ عهد ريجان، والذي استمر مع كل من تبعه من الرؤساء سواء الديمقراطيين منهم أو الجمهوريين. ذلك النموذج القائم على خلق نوع من السوق الحرة، ورؤوس الأموال الحرة، مع مضاربة منفلتة، ليهتف معها أرباب هذا النظام قائلين: «ها نحن صرنا أغنياء، أغنياء بلا حدود...».

إن ما يشهده اليوم النظام الرأسمالي من انهيار تام، وما تشهده «وول ستريت» من أفول- ذلك الرمز الراسخ للسيطرة المالية الأمريكية على العالم - سوف يضعف حتما النموذج الأمريكي. وإن كان أوباما- كما أسلفت- يبدأ برصيد إيجابي للغاية.

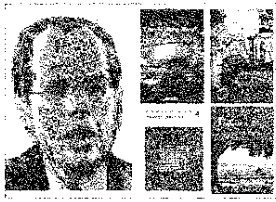
● *عصر «ما بعد أمريكا»، مفهوم روج له فريد زكريا في كتابه الذي حمل الاسم نفسه، فهل توافقه الرأي؟*

- نعم، أعتقد أنه محق تماما فيما ذهب إليه. الكتاب تم تأليفه قبيل الأزمة، وأظن أن ما يقوله من أفكار سيزداد عمقا بسبب تلك الأزمة التي لا يعلم أي منا ما ستكون عواقبها. لكن زكريا ينطلق في كتابه من وجهة النظر الأمريكية دون غيرها، ليتساءل حول الوضعية المثلى التي يجدر بالولايات المتحدة اتخاذها للحفاظ على هيمنتها على العالم. لكن ما يقوله صحيح إلى حد بعيد. فالمؤكد إننا ندخل في حقبة يضم فيها العالم عدة مراكز للقوة. بالطبع، ستظل الولايات المتحدة لفترة طويلة هي القوة المهيمنة، ولكن سيكون هناك من حولها قوى أخرى كالصين، وروسيا، والهند، والبرازيل. هذه الدول لن تتبع سياسة مواجهة مع أمريكا. إذ لن نشهد عودة إلى الحرب الباردة. ولكن سياساتها ستتجه إلى حماية مصالحها الوطنية، وفي حال تعارض مصالحها مع المصالح الأمريكية، فسترجح تلك الدول كفة مصالحها، كما في حالة روسيا في جورجيا، أو الصين والتبت، أو أيضا الصين وتايوان.

كما أن هناك انقلابا اقتصاديا مهم في العالم. فاليوم، صارت آسيا المركز الرئيسي للإنتاج الاقتصادي. ومن ناحيتي أرى أننا نعيش الآن نهاية الهيمنة الغربية، وليس فقط، نهاية الهيمنة الأمريكية كما يقول زكريا. بمعنى أننا نشهد ختام عقدين كان العالم فيهما تحت سيطرة الغرب وحده، وكانت بقية القوى كلها غير واقعة في الحسبان. أما اليوم، فنحن نتجه نحو عالم لا يتسم فقط بأنه متعدد الأقطاب، وإنما سنرى فيه صعود دول كانت مستعمرة في الماضي لتحتل الصف الأول مثل الهند.

● *هل سيكون هذا العالم الجديد أكثر توازنا؟*

- ليس بالضرورة، فقد يصبح أكثر فوضوية، لاسيما أن المواجهة الأيديولوجية ستكون غائبة. إبان الحرب الباردة، لم يكن العالم يعاني من الفوضى، كانت المواجهة قائمة، ولكن، إجمالا، كان كل من اللاعبين الرئيسيين يعرف حدوده جيدا. في عالم متعدد الأقطاب، لن توزع الأدوار الرئيسية على الدول وحدها، ولكن سنرى أيضا القوى المالية، ورؤوس الأموال، والجماعات المسلحة، وكبرى وسائل الإعلام من الجزيرة إلى CNN، والمافيا، الخ.. وهنا لا يمكن التكهن



بالمسار الذي يمكن أن يتخذه مثل هذا العالم. فبالفعل، يمكن أن يفقد عقله وأن يسير نحو المزيد من التشوش.

الأمريكيون لا يسعهم أبدا أن ينظروا لبلدهم على أنه بلد عادي. فهناك اقتناع راسخ بين النخب الأمريكية بأنهم ليسوا كسائر الشعوب، وبأن الله قد اختارهم، وبأن ثمة مهمة كبرى عليهم أن يقوموا بها، وبأنهم يقومون بمهمتهم تلك على الوجه الأمثل. والآن، أعتقد أن القيادة الأمريكية الجديدة ستتفهم موازين القوى بصورة أفضل، وستحسب حساب مصالح الآخرين بصورة أفضل، وستكف عن الاعتقاد بأن مصالح الآخرين شر مطلق. إذن، أرى أنه سيكون هناك توجه نحو شيء من الواقعية، وهذا أحد التحديات التي سيواجهها الرئيس أوباما. و على كل حال، لم يعد أمامهم خيار آخر، لأنه بات من المستحيل مواصلة سياسة بوش، إذ لم يعد لديهم نفس الإمكانات العسكرية، ولا الإمكانات الاقتصادية، فهي سياسة مأزومة في أفغانستان وفي العراق.

الإسلام والغرب

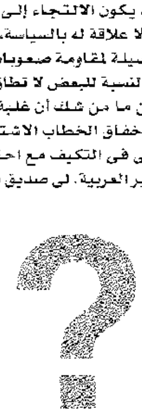
● *في عالم اليوم، يبدو أن الدين قد حل محل الايديولوجية. فبم تفسر ذلك؟*

- في العالم العربي، ثمة تأكيد أكبر لأهمية الدين. وهنا من الواضح تماما أن التعثر الذي شهدته ايديولوجيات كالقومية العربية، والبعثية، والناصرية، والشيوعية، وكل تلك الأفكار «العلمانية» قد خلف فراغا كبيرا، بينما الشعوب مازالت مأزومة. بهذا المعنى يمكن للدين أن يقدم إجابة شافية للشعوب. ولكنه أيضا قد يمثل صورة للانغلاق على الذات. فمثلا، في المخيمات الفلسطينية في لبنان، تتراءى تلك المشكلة، حيث الناس يقعون تحت وطأة كم هائل من الضغوط، فيتحول التدين إلى مزيد من الانغلاق على الذات.

ومن ناحيتي، أرى في ظاهرة التدين أيضا ملمحا ثقافيا. فبصورة ما، أرى في ظاهرة انتشار الحجاب في القاهرة نوعا من رفض الهيمنة الثقافية الغربية. بمعنى رفض لهؤلاء الناس الذين يريدون أن يفرضوا أزياءهم، ونمط حياتهم، وأسلوب تفكيرهم.

و قد يكون الالتجاء إلى الدين اختيارا لا علاقة له بالسياسة، بوصف الدين وسيلة لمقاومة صعوبات حياة صارت بالنسبة للبعض لا تطاق.

ولكن ما من شك أن غلبة الدين تعكس إخفاق الخطاب الاشتراكي أو الشيوعي في التكيف مع احتياجات الجماهير العربية. لي صديق مصري، تحول من الشيوعية إلى الإخوان المسلمين. قال لي في حديث إنه في الماضي كان يضطر في بداية محاضراته الشعبية لتخصيص نصف ساعة لشرح من هو ماركس وما هو فكره، أما الآن -كما يقول- فلم تعد هناك حاجة للشرح طالما هو يتحدث باسم الدين، وهو يتناول نفس القضايا عن العدالة الاجتماعية وغير ذلك. كان ماو تسي تونج يقول: «ينبغي إلباس الماركسية ثوبا صينيا»، وبالمثل، كان هنري كورييل يقول: «ينبغي إلباس الماركسية ثوبا مصريا»، و هو ما لم تتمكن الحركات اليسارية من تحقيقه في العالم العربي. فهناك إذن كل تلك العوامل التي اجتمعت لتجعل للدين دوراً أكبر في حياة الناس في هذه المنطقة.



● *كيف تفسر أن فرنسا، التي عارضت بشدة غزو بوش للعراق، قد كونت كل هذا القدر من مشاعر كراهية الإسلام تحت تأثير النظرية الأمريكية لصدام الحضارات؟ فكيف يمكن رفض حرب مع الاعتراف بمسوغاتها الفكرية؟*

- بالنسبة لمسألة العداء للإسلام، أنت محقة تماما في الإشارة إلى هذا التناقض و هو تناقض من الصعب تفسيره، وإن كنت أعتقد أن هذا الوضع لم يتم «تحت تأثير نظرية صدام الحضارات» المباشر. أعتقد أن كراهية الإسلام مؤشر على الأزمة التي تعيشها قوى اليسار في فرنسا كما في بلدان أوروبا عامة بالنسبة لي. أكثر ما أدهشني، هو موقف الحزب الاشتراكي في فرنسا، الذي لعب دور المحرك في قصة استصدار قانون ضد الحجاب. ولقد بدأ ذلك في مؤتمر للحزب عام ٢٠٠٣، حيث رأينا لوران فابيوس، الرجل الثاني في الحزب، يخصص جل خطابه للحديث عن العلمانية. وأرى أن الحزب الاشتراكي الفرنسي قد صار حزبا مجردا من الأيديولوجية، وبالنسبة للمسائل الاقتصادية تراه يقترب كثيرا من اليمين. واجتماعيا، صار حزبا للطبقة الوسطى. ولقد كانت العلمنة دوما في فرنسا شعارا لليسار. لذلك حين يعاود الحزب رفع هذا الشعار اليوم، فهو بذلك يحاول استعادة هوية يسارية آخذة في الأفول.

لكن مشكلة العداء للإسلام أكثر شمولية، إذ تحمل وجهين متلازمين: وجه داخلي متعلق بمشكلة المهاجرين، وآخر دولي استتبعته أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولقد ذكرت في كتابي «الإسلام والجمهورية والعالم»، أنه في أعقاب هجمات سبتمبر، هرع الناس إلى المكتبات لشراء المصاحف. فكان رد فعلي الأول هو أنني وجدت ذلك أمرا جيدا. ولكنني استدركت متسائلا: ما الذي سيبحث عنه الناس في القرآن؟ أيحسبون أنهم سيجدون بين آياته ما يفسر أحداث برجي التجارة؟

● *برأيك، هل ما يسمى بـ«الخطر الإسلامي» أمر حقيقي الوجود، أم أنه وهم من الأوهام التي صنعها الغرب؟*

- بالطبع هو غير موجود. فحينما يقال لنا إننا نخوض حربا عالمية ثالثة، وإننا بعد أن هزمنا النازية والشيوعية، يجب علينا أن نهزم الجماعات الإسلامية الإرهابية، ينسى من يقولون هذا أن يعرفوا لنا من الذي يقف وراء هذا «الخطر الإسلاموي». فالنازية كانت وراءها ألمانيا الهتلرية التي كانت واحدة من القوى العالمية في زمانها، والشيوعية كان وراءها الاتحاد السوفيتي والصين. ولكن من الذي يقف وراء «التهديد الإسلاموي»؟ بالنسبة إلي، ليس هناك إسلام واحد. بمعنى أننا لا نستطيع أن نضع في خانة واحدة إيران، وطالبان، والإخوان، ونقول إنهم جميعا يمثلون إسلاما واحدا.

وهناك أمر مهم في موقفي، فأنا لا أتحدث عن صحيح الإسلام، لأن التعريف بصحيح الدين يقتضي أن أتحدث من داخل هذا الدين، لكي أستطيع الدفاع عنه، وهذا ليس موقفي. ولكن ما أقوله هو أن هذا الخطر الإسلامي المزعوم لا وجود له. لأنه ببساطة صناعة أمريكية. فمنذ التسعينيات، كان هناك من رجال الفكر السياسي في أمريكا من يجتهدون في اختلاق هذا العدو البديل. وأعتقد أن أجهزة العسكرية والشرطة هي المستفيد الأول من وجود هذا العدو. لأنه في غياب العدو لن تحصل هذه الأجهزة على حصتها الهائلة من التمويل من ميزانية الدولة. بالطبع هذا التفكير لا يتم بشكل واع ولكنه موجود. فهذا النوع من المؤسسات يحتاج لهذا النوع من التفكير لكي يبرر وجوده.

● *لماذا يشهد إدماج المهاجرين المسلمين في المجتمع الفرنسي نوعا من الإخفاق؟*

هـذا الخـطـر الإسـلامـى المـزعـوم لا وجـود لـه. لأنـه بـبـسـاطـة صـنـاعـة أمـريـكـيـة. فـمـنـذ الـتـسـعـيـنـيـات، كـان هـنـاك مـن رجـال الـفـكـر الـسـيـاسـى فـى أمـريـكـا مـن يـجـتـهـدون فـى اخـتـلاق هـذا الـعـدو الـبـديـل

- لا نستطيع القول بأنه قد أخفق تماما. فهناك الكثير من المسلمين الذين ينجحون تماما فى الاندماج. ولكن صحيح أن ثمة نوعا من تكون الجيتوات المسلمة فى فرنسا. وتزداد هذه الظاهرة بروزا بسبب عدم وجود أى تعبير سياسى عنها. فنحن لا نرى فى الأحزاب السياسية أو النقابات أية وجوه تنتمى إلى هذه الفئة من المهاجرين، فيما عدا استثناءات نادرة. وعلى العكس، شهد الاتحاد العام للعمل على مر تاريخه فى فرنسا كثيرا من البولنديين والإيطاليين واليهود القادمين من وسط أوروبا، والذين لعبوا جميعا دورا هاما فى العمل النقابى. وكان ذلك راجعا إلى سبب بسيط: هو أن إدماج هؤلاء المهاجرين تمت عبر العمل العمالى. ولكن العمل العمالى هذا قد تم تدميره بدءا من السبعينيات.ففى ٦٨، كان الرمز الأكبر لليسار هو مجموعة «رينو بيانكو» (Renault-Bianco) ذات الثلاثين ألف عامل. أما اليوم فلا وجود لذلك.فاليوم أكبر مصنع فى فرنسا لا يضم أكثر من ستة آلاف عامل، معظمهم موظفون، أما مصانع السيارات فتقوم على التعاون مع مصانع صغيرة تتكون كل منها من ١٠ إلى ٢٥ عاملا، ومن الصعب جدا إدماج المهاجرين فيها.إذن لم يعد هناك تلك الهياكل الاجتماعية والسياسية التى كانت تتيح للعمالة المهاجرة الاندماج فى المجتمع.

● *هل الإسلام سلاح موجه ضد العلمانية الفرنسية؟*

- لا، إطلاقا.فهذا الادعاء يندرج أيضا فى إطار البحث عن عدو افتراضى أو عن كبش فداء للتضحية به فى موقف الأزمة.ففى ختام كتابى «الإسلام والجمهورية والعالم»، أقول أننا نعانى اليوم فى فرنسا من أزمة فى إيجاد هوية وطنية. بمعنى أننا نواجه صعوبة فى تعريف من هو الفرنسى.فلفترة طويلة للغاية، كان ذلك يعنى الانتماء إلى دولة قوية عدوها هم الألمان. أما اليوم، فالوضع قد تغير.إذن يعد إيجاد العدو المشترك بمثابة تقوية للهوية الوطنية. ولكن، مرة أخرى: فى فرنسا، التهديد الإسلامى لا وجود له.

إذن من المفترض ألا تكون هناك مشكلة...

نعم، ولكن هناك عاملا تجدر الإشارة إليه: فى الجاليات المسلمة فى فرنسا، لاسيما الأجيال الجديدة منها. ثمة عودة حقيقية إلى الإسلام.فلقد كان آباؤهم، القادمون غالبا من أوساط شعبية جدا فى بلدانهم، يمارسون الإسلام بصورة مبسطة للغاية.لكن اليوم هناك ممارسة للإسلام تتسم بأنها أعمق فكريا وأكثر تنظيما، سواء بين أرجاء «اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا»(UOIF) أو فيما بين الإخوان المسلمين.إجمالا، ثمة ممارسة أكثر تنظيمية وأكثر وضوحا للدين الإسلامى فى فرنسا. وهو أمر يثير صدمة لدى الفرنسيين لكون كل هؤلاء الشباب المسلمين الصغار قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الحكومية، ومن المفترض أنهم قد شبوا على قيمها: ولكن لا أحد يفهم سر تمسكهم بالدين.فعلى سبيل المثال، بالنسبة للحجاب، كان مفهوما أن تأتى الجدات فى الماضى بحجابهن، ثم كان أن خلع جيل الأمهات الحجاب لدى استقرارهن فى فرنسا، ولكن ها نحن اليوم نرى البنات الصغيرات اللاتى يعتبرن فرنسيات ١٠٠٪، واللاتى تعلمن بمدارس الجمهورية، يقررن ارتداء الحجاب. وهذا ما لا يستطيع الفرنسيون فهمه.

● *ما هى التكاليف التى تَوَجَّب عليك دفعها نظير شراكتك الفكرية مع الأكاديمى الإسلامى طارق رمضان؟*

- كانت بالفعل تكاليف باهظة للغاية.فلقد خلق هذا التعاون تجاهى عداء ونبذاً يفوق ما أصبت به من جراء موقفى المؤيد للقضية الفلسطينية، لأن قسما من اليسار، لاسيما اليسار الراديكالى قد قام بمقاطعتى. وأنا أقول دائما ألا مشكلة فى أن يهاجمك أعداؤك ولكن حينما يهاجمك أقرباؤك وأخلاؤك فتلك مشكلة حقيقية.إذن هناك بالفعل ثمن باهظ سددته وما زلت أسدده، ولكنى غير نادم.فهكذا الحياة.. «C'est la via».

● *طارق رمضان: ما رأيك فى مشروعه؟*

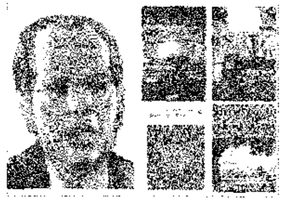
- لا أعتقد أنه يعنى الحديث عن «مشروعه» بقدر ما أفضل الحديث عن «خطابه». إذ أرى أن خطابه يقوم على أساس محاولة إعادة قراءة الإسلام انطلاقا من الواقع الذى يعيشه المسلمون فى أوروبا، وأعتقد أن هذا أمر إيجابى جداً، لأن خطابه يأخذ جيدا فى الاعتبار أهمية القضايا الاجتماعية، وأهمية القضاء على المظالم، سواء على المستوى الدولى، مثلما فى حالة القضية الفلسطينية، أو على المستوى الداخلى. إن خطابه يبعث فى نفوس شباب المسلمين الشعور بالفخر لأنهم مسلمون، فهو يعيد إليهم الثقة فى أنفسهم: فى وقت يعانون فيه من مشكلة حقيقية داخل مجتمع يكن لهم قدرا لا بأس به من الازدراء. رمضان يتمتع بتلك القدرة على المحاورة، ومقابلة الحجة بالحجة، بقوة وثبات، وهو ما يخلق تواصلا كبيرا بينه وبين الشباب.

● *ما هى العوامل التى تقرب بينكما إلى الحد الذى يجعل خطابيكما بمثل هذا التجانس الذى بدا من خلال كتابكما المشترك «الإسلام فى أسئلة»؟ يعنى: ما الذى يجمع بينكما، وهو حفيد الشيخ حسن البنا، وأنت ابن هنرى كورييل مؤسس الحزب الشيوعى فى مصر؟ ألا ترى حجم التناقض؟*

- بل هو هذا التناقض الذى دفعنى إلى أن أعرض عليه فكرة الكتاب، لأنى وجدت فى ذلك عامل جذب للقارئ. ولكن ثمة أسبابا أخرى.فلقد كانت لنا تجربة سابقة فى العمل معا من خلال إحدى اللجان التى لعبت دورا مهما فى فرنسا وكانت تسمى بلجنة «الإسلام والعلمانية». كانت تلك أول لجنة تعنى، منذ بداية التسعينيات، بمسألة إدماج الإسلام فى فرنسا، كديانة أولا، بمعنى أنها بدأت بالنظر فى المشكلات المرتبطة بالدين، مثل توفير اللحم الحلال، والعمل على بناء المساجد، إلخ. ثم ما لبثت أن تحولت شيئا فشيئا إلى لجنة تبحث فى إشكالية ما إذا كان هناك تضارب بين الإسلام والعلمانية من الناحية العقدية، وتناقش مشكلات المسلمين فى المجتمع، بعيدا عن الإطار الدينى. إذن أتيح لنا هذا النوع من التعاون المشترك الذى أوحى لى بفكرة الكتاب.

ولكن صحيحا أن التناقض الذى أشرت إليه كان عاملا أساسيا فى بلورة الحوار بيننا. وفى الكتاب، تجدين أن النقطة التى ظهر عندها خلافنا الأكبر هى عندما تحدثنا عن مصر الناصرية. ففيما يتعلق بتحليل أوضاع النظام المصرى اليوم، لا خلاف تقريبا بين رؤيتى ورؤيته. ولكن عاطفيا، حينما يتعلق الأمر بعبد الناصر، يتضح حجم التباين بيننا. فهو قد ولد فى ٦٢ خارج مصر، ولم يعرف عبد الناصر، وإنما بقى له من عهده ذكرى المنفى، وسجن الأهل، والتعذيب، أما أنا فقد عاصرت حرب السويس، ونهاية عهد الاستعمار فى مصر، وأحداث تلك الفترة الغنية..

ولكن ما يهمنى فى جدالى مع طارق رمضان هى المسائل السياسية، فعندما بدأنا قلت له لن نتناقش فى الدين، فهذا أمر لا يهمنى. فالدين ليس - ولم يكن يوما - عاملا يقربنى أو يبعدنى من كائن من كان.فأثناء حرب الجزائر، كنت أرى أن أى قس يساعد جبهة التحرير



الوطنية الجزائرية خير وأقرب إلى نفسي من ملحد يساند فكرة «الجزائر فرنسية». فما يشغلني هي القضايا الدولية، ومسألة العدالة الاجتماعية، الخ. وفي فترة حواري مع رمضان كنت منشغلا بدمج المكون الإسلامي في حركة التفاعل العالمي، ولازلت أعتقد أنه أمر هام. فبمثل ما توجد منظمات مسيحية ويهودية مشاركة في هذه الحركة، يجب أن تكون بها أيضا منظمات إسلامية بالنسبة لي هذا هو مغزى حواري مع رمضان.

● *البعض يتهمك بتزويد الحركات الإسلامية بغطاء أو ضمانة تقدمية وعلمانية. فما رأيك في مثل هذا الكلام؟*

- هناك طريقتان لتوجيه هذا الاتهام إلى، هذه إحداهما، والأخرى حين يقال لي: «أنت تساعد رمضان على استغلالك والتلاعب بك». وطريقتي في الرد هي أن أقول: «إن كان رمضان يتكلم معي فهذا أدعى إلى أن يفقد هو الثقة، لا أن أفقدها أنا». فأنا ملحد، و لقد أكدت ذلك في حواراتي معه كثيرا أمام جمهور من المسلمين، لأنني أعتقد أنه من المهم أن يعلم المسلمون أن المرء قد يكون بلا ديانة، ولكنه يبقى مع ذلك قادرا على أن يكون قريبا منهم، أو متفقا معهم. وأرى أيضا أن رمضان حين يتكلم معي أو مع اليسار بوجه عام، فهو يعرض نفسه لهجوم من بعض التيارات الإسلامية. وإلى كل من يقول إنني أزوده بضمانة أقول: «أنتم تقولون إنه متطرف، فهل يحتاج المتطرف لضمانة يكفلها له اليساريون؟ فهو لا يسعى أصلا لذلك». و أنا أرى أن اختلافي معه في التيار الفكري لا يكفل له ضمانة هو في غنى عنها من الأساس. ولكن هذا لا يعني أنني متفق معه في كل شيء. ولكني أحسب أن الحوار قيمة إيجابية لتطوير حياة البشر، و للأسف ينبغي أن أقول أن مثل هذا الحوار قد شهد فشلا في فرنسا، ولكنه قد ينجح في مكان آخر.

● *هل تشعر بأنك ورمضان قابعان معا في نفس الخندق في مواجهة نفس العدو؟*

- لا أستحسن كثيرا استخدام الاستعارة العسكرية. ولكن، نعم، لقد تواجدنا معا في معارك عدة، حول فلسطين، وحول العديد من القضايا الدولية، إلى جانب القضايا الاجتماعية. وأعتقد أن الأمر عادة ما يكون أسهل حينما نتناول المسائل الدولية، لكون المسلمين - في اعتقادي - لا يهتمون كثيرا بالمسألة الاجتماعية، لأن لديهم رؤية ترجح وحدة الأمة، وتجعلهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا معا أغنياء وفقراء. و في كلامي مع رمضان ذكرت له جملة قالها بومدين - و هو ما لم يرق له كثيرا لما يرمز إليه بومدين -، وهي أن «هناك



إسلام للأغنياء، وإسلام آخر للفقراء». فمن الواضح أنه ليست لدى التنظيمات الإسلامية تأملات حقيقية بشأن هذه المسائل المتعلقة بالعدالة الاجتماعية ، وهو موضوع يهمني كثيرا.

● *منذ تقديم لجنة «ستازي» مقترحاتها للحكومة الفرنسية قبل عدة سنوات، ازداد الجدل الدائر حول الحجاب بصورة كبيرة، لماذا برأيكم تثير هذه المسألة كل هذه الضجة في فرنسا؟*

- مسألة الحجاب مسألة تثير حساسية شديدة جدا في فرنسا. وللأسف لا يمكن القول بأننا قد أحرزنا تقدما منذ اشتعال هذا الجدل قبل بضعة أعوام. وهي تثير رد فعل علمانيا ورد فعل نسويا. وهذا الأخير أقل عقلانية وأشد حساسية. فالفرنسيات مقتنعات بأن الحجاب رمز لقهر المرأة. ويعد هذا الاتجاه في رفض الحجاب أشد قوة من الاتجاه العلماني. وهذا راجع إلى كون الناشطات النسويات يصدرن أحكامهن من دون سابق نقاش مع أية فتاة محجبة. لذلك يتصف خطابهن بأنه شديد التجريد. فالفكرة الراسخة لديهن هي أن الحجاب قرار يفرضه الزوج أو تمليه الأسرة على الفتاة. ولكن بالطبع هناك حالات تشبه هذا في الواقع، حيث نجد نوعا من الضغط الاجتماعي في محيط المرأة لكي ترتدي الحجاب.

ولكن من جانبي، أعتقد أن مسألة الحجاب هذه معركة زائفة فالحجاب «يحجب»، في واقع الأمر، المعارك الحقيقية، لأنه يستخدم لصرف الأنظار إلى أمور ثانوية. بدلا من التركيز على المشكلات الحقيقية، وعلى المعارك التي يراد إلهاء الناس عنها.

الحال في بر مصر

● *صرح وزير الخارجية البريطاني، ديفيد ميليباند، بأن عام ٢٠٠٩ ، سيكون عام «التغيير». فهل ترى، في ظل الوضع الحالي للأمور، أن ذلك «التغيير» سيصب في مصلحة الشعوب العربية؟*

- ربما. الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يحدث بها التغيير هنا هو أن يكون «هدية من السماء».

يواجه العالم العربي نوعين من المشكلات: الأول هو الأزمات في فلسطين، وفي لبنان، وفي العراق، الخ.. حيث تحتل الأزمة الفلسطينية موقع الصدارة لكونها الأزمة المحورية. فمن المهم حلها لأنها تلقي بظلالها على الحياة اليومية للإنسان العربي، ولكن المشكلات الكبرى في العالم العربي هي مشكلات داخلية تتعلق بالقدرة على إدارة البلد، وبشفافية الإدارة السياسية، وبتناوب السلطة، وبالتنمية الاقتصادية. وبإعطاء الشباب قدرا من الأمل وقسطا من التعليم الجيد. الانطباع السائد لدينا هو أنه - مقارنة بكافة مناطق العالم باستثناء إفريقيا- تعاني منطقة العالم العربي من عدم القدرة على الخروج من أزمتها طوال خمسين عاما مضت. وأرى أن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني قد أفضى بصورة أو بأخرى إلى تيسير الأنظمة العربية وبقائها في أماكنها، لهذا أظن أن التغيير الرئيسي الذي يجب أن يحصل هو التوصل إلى السلام لأن ذلك سيغير أشياء كثيرة في المنطقة.

● *لو طلبتُ إليك عقد مقارنة بين مصر التي اضطررت أن ترحل عنها في الستينيات، ومصر التي تتراءى لك اليوم، ماذا ستكون ملاحظاتك؟*

- أستطيع تلخيص الإجابة في عبارة بسيطة، وهي اختفاء الأمل.

في الماضي، كان بيتنا في القاهرة يقع في وسط البلد في شارع سليمان باشا. كانت العمارات جميلة وأنيقة ولكل منها «بواب». وكان حارس عمارتنا أو «البواب» رجلا من صعيد مصر. واذكر في تلك الأعوام الناصرية كم كان هذا الرجل البسيط فخورا لأن ابنه يتعلم في الجامعة. فلقد كان هذا الأمر قبل ذلك بعشرين عاما ضربا من ضروب المستحيل. كان هنالك نوع من الأمل في تلك الفترة لدى أبناء الشعب بأنه سيكون هناك مزيد من العدالة، ومزيد من النمو والازدهار للوطن. أما اليوم، فالانطباع الذي بات لدي هو أن الناس في مصر لم يعد لديهم إلا فكرة واحدة، هي السعي إلى الهجرة، إذ لم تعد هناك سوى حلول فردية لكل المشكلات، والدولة انسحبت تماما ولم تعد تنصت لمطالب وتطلعات الشعب لاسيما الشباب. وهذا وضع مؤسف يؤدي إلى انزواء الأمل.

● *في مستهل كتابك «إسرائيل فلسطين: حقائق حول نزاع»، كتبت: «أحمل الشرق الوسط في قلبي أينما ذهبت»، ولكن في موضع آخر*

التطورات التي تشهدها الجماعة (الإخوان المسلمون) إن لم تجد تعبيرا عنها من خلال انتخابات جديدة، فستعود بالجميع إلى خانة الصفر، وستجد البلد نفسها في طريق مسدود. وهو ما قد يؤدي إلى مزيد من التطرف

نجدك تكتب: *«على الرغم من جنسيتي المصرية إلا أني لم أشعر قط بأنني مصري، واليوم لا يجرفني الحنين إلى الماضي، ولا تطربني أغنيات أم كلثوم...»* *أهو تناقض آخر من تناقضاتك؟*

. ربما. لكني كنت قد نشأت في أسرة لغتها الأم هي الفرنسية وليست العربية. وكان ينظر إلي على أنني «خواجة». ولكن في الماضي كانت مصر بلدا كوزموبوليتانيا لأقصى حد. في فصلي بالمدرسة الفرنسية، كان ثلث التلاميذ من المسيحيين، والثلث من اليهود والثلث من المسلمين. كنا نحيا حياة جميلة.. نتزاور ونمرح معا في نادي الجزيرة. ولقد كنت مسيسا منذ صغري، وذلك بفضل أمي، التي كانت من أصل روسي. كنا في البيت نؤيد عبد الناصر، وهو أمر نادر في أوساط البرجوازية المسيحية. وفي المدرسة أيضا: كنت في فصلي الطالب الوحيد الذي يحب عبد الناصر، وأذكر كم بكيت أثناء العدوان الثلاثي حينما علمت باستسلام بورسعيد في ٥٦. كان لدي ارتباط سياسي وثيق بأحداث مصر. وكانت عندي نفس مشاعر وتطلعات أبناء الشعب. لكن في الوقت نفسه، كنت أعلم بأن سفري إلى فرنسا حتمي. وهناك لم يكن لدي وقت للنوستالجيا. واندمجت تماما في معيشتي الفرنسية.

● *ما الذي أدى إلى اختفاء الأمل في مصر على حد تعبيرك؟*

. بالطبع ٦٧ لعبت دورا مهما، لكن في الوقت نفسه، كانت تلك فترة غليان واختمار، استتبعت جدلا واسعا، وإعادة تقييم شاملة. وأعتقد أيضا أن عبد الناصر يتحمل جزءا من المسئولية بسبب النظام الذي أرساه: نظام الحزب الواحد، والقيادة البيروقراطية، ونظام الدولة البوليسية، لكنه لا يتحمل وحده كل التبعة. فالاختيارات الاقتصادية التي كانت تتخذ مسوحا اشتراكية قد تمت إدارتها بشكل بالغ السوء من قبل أشخاص تنقصهم الكفاءة. كما لم تكن هناك نقابات حرة، ولا صحافة حرة، ولا حوار داخلي حقيقي. فليس من الممكن بناء دولة صلبة في غياب جدل حقيقي بشأن خيارات المجتمع.

وهناك بالطبع العامل الديموجرافي الذي كان له وزنه في هذا الوضع. فعندما رحلت عن القاهرة، كان تعدادها مليوني نسمة. وهو ما ضاعف من عجز الحكومة عن تلبية حاجات كل تلك الجماهير.

وأعتقد أن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني قد منح فرصة عظيمة لجميع الأنظمة العربية. فلقد أتاح لها التمسك بسياسات متخلفة واستبدادية ومتحجرة، انطلاقا من فكرة «أننا في حرب، وإننا لذلك لا نستطيع تطبيق الديمقراطية... إلخ».

اليوم، أرى أن مسألتي تنظيم المجتمع وحرية التعبير هما العنصران الأهم لإتاحة الفرصة أمام المجتمعات العربية لكي تتقدم. ولا ننسى بالطبع ما تعاني منه الدولة من أعراض تيبس القيادات في مواقعها، حتى بين قيادات المعارضة. ففي مجتمعات نصف عدد السكان فيها ممن هم دون العشرين عاما، لكن الشباب فيها لا يمثلون أي وزن في القوى السياسية. ولنتذكر أن الضباط الأحرار حين قاموا بثورة يوليو كانوا في عقدهم الثالث. ونفس الظاهرة نلاحظها في كوبا مع كاسترو ورفاقه. في ذلك الزمان كان ثمة تجدد في الأجيال. وأمل ينبعث في نفوس الشباب..

● *في رأيك هل سيكون وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم - إذا كان ذلك واردا - أكثر إضرارا بمصر من أي من السيناريوهات الأخرى؟*

. بالطبع لا. السيناريوهات التي يتوقعها البعض هي الأسوأ بلا أدنى شك. وهي التي ستقضي على أي بارقة أمل في أي تطور مجتمعي. أنا أعتقد أنه يجب فتح المجال أمام الإخوان المسلمين لكي يصلوا إلى الحكومة. وهذا الرأي يسري على مصر وعلى البلدان الأخرى. فلو أجريت الانتخابات غدا، وحصل الإخوان على الأغلبية، فليتولوا المسئولية، وليظهروا لنا قدراتهم. هم يقولون: «القرآن دستورنا والإسلام هو الحل». كلام جميل، ليظهروا لنا من خلال الحكومة ماذا يعني ذلك. فقد يثبتون جدارة، ولدينا النموذج التركي ماثلا في الأذهان، صحيح هو نموذج مختلف كل الاختلاف، ولكن حزب العدالة والتنمية استطاع أن يثبت أنه أكثر فاعلية من الأحزاب التقليدية، وأنه أقل فسادا، وأكثر ديمقراطية، كما أنه قد أجرى عددا من الإصلاحات التي لم يجرها أحد من قبله...

وفي الوقت نفسه، الواضح أن سياسة الإخوان المسلمين في السنين الأخيرة صارت سياسة حذرة إلى حد بعيد: فهم



لا يسعون رغم كل شيء إلى أية مواجهات مع النظام. كما لم يشاركوا في حركات الإضراب الواسعة التي شهدناها هذا العام. فهم لم يعد ينظر إليهم على أنهم قوة معارضة راديكالية.

● *هل غيرهم الزمان أم أنها أيضا عودة «القوة الهادئة» (soft power)؟*

. هناك عدة عوامل: منها مسألة «القوة الهادئة»، ولكن هناك أيضا عامل الانقسامات الداخلية. فالإخوان المسلمون منقسمون جدا فيما بينهم فهم لديهم أكثر من مشروع. لكن ليس لديهم مشروع موحد. إذن سيكون مثيرا للاهتمام أن يتولوا الحكومة، لأن هذا سيحملهم على توضيح ملامح سياستهم. وأعتقد أنهم لا يريدون حقا مثل هذا التوضيح، لأن القاعدة العامة تقول إنه كلما قل التوضيح كلما زادت الشعبية. لأن ذلك يساعدك على كسب أناس من اتجاهات مختلفة. لكن معنى الوجود داخل الحكومة هو الاضطرار إلى الإقدام على اختيارات محددة.

لكن المشكلة، كما تتبدى لي، هي أن التطورات التي تشهدها الجماعة، منذ انخراطها قبل بضع سنوات، في التفكير حول مسائل مثل مرجعية السيادة: هل هي الله أم الشعب، وخوضها لتجربة الانتخابات، وغير ذلك من التطورات، إن لم تجد تعبيرا عنها من خلال انتخابات جديدة، فستعود بالجميع إلى خانة الصفر، وستجد البلد نفسها في طريق مسدود. وهو ما قد يؤدي إلى مزيد من التطرف، أو مزيد من العنف المجتمعي، لأن الناس سيجدون الوضع فوق مستوى الصبر والاحتمال.

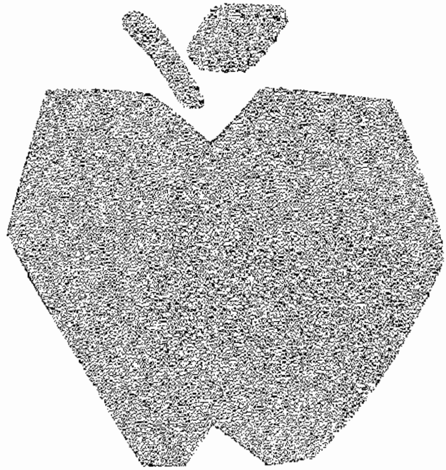
● *فأي مستقبل ترونه لمصر؟*

. لا أدعي بأنني عليم بخبايا السياسة المصرية، ولكن الأرجح هو أن القادم سيأتي من داخل النظام الحالي، بحيث يتم اختيار شخص من محيط القيادة الحالية. هل سيكون الابن أم أحدا غيره؟ لا أعرف. ولكنني أرجح أنه سيكون الابن. فهذا هو التصور الأقرب إلى الواقعية. ولكنه أيضا التصور الأكثر كارثية، لأن ذلك يعني استمرار نظام مستقر منذ ثلاثين عاما: نظام تتبدى علامات انهياره في انهيار هضبة المقطم على قاطني الدويقة. إن ما أدهشني حقا وأنا أتابع تغطية هذا الحدث على قناة الجزيرة، هو ما قاله الناس البسطاء، الذين تشهد أقوالهم بأنهم ما عادوا ينتظرون أي شيء من الحكومة. فهم يعلمون أن أحدا لن يأتي لكي ينتشل لهم موتاهم، أو ليرفع الأنقاض من فوق رؤوسهم، يعلمون ذلك ويصبرون، فكلماتهم لا تشي بأي تمرد على هذا الانهيار، انهيار الصخرة وانهيار البلد. وهذا هو المأساوي. هل سيستمر الوضع على ما هو عليه؟ لست أدري حقا. فلست أملك الجواب... ■

لعنـــة آدم..!

بـــريـــان ســـايـــكـــس
Bryan Sykes

هل من الضرورى أن يكون للرجال دور فى الإنجاب، أو أنه يمكن التكاثر بغير حاجة لهم، وبالتالى ينقرض الرجال ويختفون وتختفى معهم لعنة آدم؟



** بدأت كباحث فى علم الوراثة اهتمامى المهنى بالجنس منذ ما يزيد على عشر سنوات عندما أخذت أولا استخدام هذ العلم فى الكشف عن بعض أسرار الماضى البشرى. اخترت للملاحة فى هذه الألغاز أداة هى قطعة من (دنا) تورث على نحو خالص بأن تنحدر فى خط السلالة الأنثوى من الأم إلى ابنتها جيلا بعد جيل وهى تمرر مباشرة من أسلافنا حتى يومنا الحاضر. لم يكن سبب هذا الاختيار أنى أهتم من جانبى بالنساء أكثر من الرجال، وإنما كان السبب ما لهذه القطعة من (دنا) من صفات خاصة. هذا الامتداد من (دنا) يكشف بالذات عن تاريخ النساء أكثر مما يكشف عن تاريخ نوعنا، ويالهذا التاريخ. إنه تاريخ يبين أن كل واحد منا مرتبط بخيوط أموية لا تنقطع، ويمكن متابعة مساره بواسطة (دنا) ليصل إلى امرأة سلف واحدة من بين نساء معدودات من السلف عشن منذ آلاف، بل وحتى منذ عشرات الآلاف من السنين[2]. استطعت أيضا أن أتابع مسار تنقلات أسلافنا عبر الكرة الأرضية وأن أحل بعض الأحاجى التى حيرت الباحثين لقرون، من بينها أصول سكان جزر البولينيز ومصير النياندرتاليين[1] وطبيعة أول من استوطنوا أوروبا من أفراد «الهوموسابينز» (الإنسان العاقل) قبل آخر عصر جليدى.

كنت منتبها تماما إلى أنى قد استخدمت (دنا) المتوارث أمويا، ولهذا فإن تفسيرى لأحداث الماضى يتأسس بالكامل على التاريخ الوراثى للنساء ويحتاج لتأكيده واستكماله بدراسة مكافئة للتاريخ الوراثى للرجال عندما أصبح ذلك متاحا من الوجهة التكنيكية. على أنى كنت واثقا من أن الأحداث الرئيسية قد فُسرت بصواب، وأنه على الرغم من أنه يمكن تماما مراجعة الاستنتاجات التى توصلت إليها، إلا أنها لن تتغير تغيرا جوهريا عندما يصبح تاريخ الرجال معروفا. وعلى كل فإن الرجال والنساء لابد لهم من أن يوجدوا معا فى المكان نفسه أثناء الوقت نفسه. كنت راضيا تماما بأن أترك لغيرى مهمة الكشف عن تاريخ الرجال وأخذت أحول انتباهى لمشروعات أخرى. ثم وقع حدث بالصدفة غيّر من مسار أبحاثى ومضى بها لتدور فى دوامة فى اتجاه جديد. أعاد ذلك وراثيات الرجال مباشرة إلى صميم البؤرة من رؤيتى.

كما يحدث كثيرا، بدا تسلسل الأحداث بمهاتفة تليفونية. مهاتفة لم تكن فى حد ذاتها بشىء خارج عما هو معتاد. أعمل فى معهد الطب الجزيئى فى أوكسفورد كأستاذ للوراثة، وكان يُطلب منى من آن لآخر أن ألقى أحاديث عن هذه المادة فى شركات الأدوية. كانت هذه المهاتفة بالذات من شركة جلاكسو - ويلكوم (وهى الآن جزء من شركة جلاكسو - سميث كلين) لأنضم إلى مجموعة من العلماء الآخرين من أوكسفورد لحضور مؤتمر فى مقر رئاسة الشركة. أدركت شركة جلاكسو - ويلكوم، مثل الكثير من شركات الدواء فى منتصف تسعينيات القرن العشرين، أن اكتشاف جينات جديدة فى «مشروع الجينوم البشرى» الذى كان وقتها قد جرى العمل فيه لزمن له قدره، سوف يؤدى إلى تعيين أهداف جديدة تدور حولها تصميمات الأدوية. ذلك أنه إذا أمكن اكتشاف أن جينات الأمراض القاتلة الكبيرة - أمراض القلب، والسكرى، والسرطان، وما إلى ذلك - موجودة فى مكان ما من (دنانا) فإن هذه الجينات قد توضح لنا ماذا يحدث بوجه الخطأ عند وقوع هذه الأمراض؛ ويمكن بهذا تصميم أدوية جديدة لتصحيح هذه الأخطاء. هكذا كانت النظرية على الأقل.

كان ما جعل لهذه الدعوة بالذات علاقة مهمة بقصتى هو أن رئيس شركة جلاكسو - ويلكوم وقتها كان سير ريتشارد سايكس. وكما يمكن للقارئ أن يتصوره، فقد سُئلت مرات عديدة من أفراد شركة جلاكسو - ويلكوم المنظمين للاجتماع عما إذا كانت هناك صلة قرابة بينى وبين سير ريتشارد. وقتها كان ريتشارد سايكس الوحيد الذى أعرفه هو ابنى أنا؛ وفى

للاستزادة:

لعنة آدم: العلم الذى يكشف مصيرنا الوراثى

بريان سايكس

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

دار العين للنشر - القاهرة ٢٠٠٩

The Seven Daughters of Eve
by Bryan Sykes
W. W. Norton & Company, 2002

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

مدى ما أعرفه لم تكن هناك أى صلة قرابة مطلقا بينى وبين رئيسهم. يستطيع المرء أن يعرف من لهجة سير ريتشارد أنه نشأ فى يوركشير بشمال انجلترا. وأنا من الجانب الآخر أمضيت طفولتى فى لندن ولدى اللهجة التى توافق ذلك. وجه الشبه الوحيد بين سير ريتشارد وإياى، بخلاف أننا نحن الاثنين نعمل بالعلم، هو أن لدينا اللقب نفسه. لم افكر فى الأمر بأكثر من ذلك.

عندما دخلت إلى السيارة التى وصلت لتأخذنى إلى المؤتمر، سألنى السائق مرة أخرى السؤال نفسه. لا أدرى سببا لما حدث بعدها، ذلك أنى هذه المرة كنت على وشك أن اكرر إنكارى البسيط، ولكنى فجأة دار بذهنى خاطر. لعلنا على أى حال أقرباء أنا وسير ريتشارد، «ولكن من غير أن ندرك ذلك». ولعل الأكثر أهمية فى الأمر أنى ربما أستطيع إثبات ذلك بإجراء اختبار وراثى. طلبت من السائق أن ينتظرنى، واندفعت لأعود إلى المعهد، واختطفت إحدى الفرش الصغيرة التى استعملها لجمع عينات (دنا) وجريت عائدا للسيارة. سيكون سير ريتشارد موجودا فى المؤتمر، سوف أطلب منه عينة من (دنا) وأقارنها بعينة منى. إذا كنا أنا وهو أقرباء حقا سوف نتشارك نحن الاثنين معا فى قطعة خاصة جدا من (دنا). سيكون لدينا كروموسوم (واى) نفسه، تلك القطعة من (دنا) التى يعطيها كل أب لابنه.

عندما عدت فى اليوم التالى إلى معملى، أخذت الفرشاة الصغيرة من صندوقها. كانت خلايا سير ريتشارد التى أخذتها بالفرشاة من داخل خده فى الأمسية السابقة، تلتصق غير مرئية بشعيرات النايلون فى الفرشاة. على الرغم من أن عدد الخلايا كان مئات قليلة فحسب، إلا أنها ستكون أكثر مما يكفينى للحصول على بصمة وراثية لكروموسوم (واى) لدى سير ريتشارد. قطعت الشعيرات لأفصلها عن جذع الفرشاة وأنا أحرص بشدة على ألا ألمسها، وأسقطتها فى أنبوبة أختبار صغيرة. كانت الخلايا قد جفت أثناء الليلة الماضية، إلا أن (دنا) مادة بالغة المتانة لدرجة تجعلنى لا أشك فى أنه سيبقى سليما. وعلى أى حال فقد أمكننى فى أبحاث سابقة أن أحصل على (دنا) من حفريات بشرية يزيد عمرها على عشرة آلاف عام، وبالتالى لم أكن قلقا بشأن عينة «ماتت» فحسب من ساعات قليلة. يقع كروموسوم (واى) الخاص بسير ريتشارد فى المركز من الخلية، ولابد من أن أنزع عنه باقى الخلية حتى أصل له. حيث إن (دنا) مادة قوية هكذا، فإن فى استطاعتى أن أستخدم لإنجاز ذلك وسائل كيميائية بالغة الخشونة وبدأت هذه المعالجات القاسية فى التو. غطيت الخلايا بقطرات قليلة من الماء، ثم غليتها غليانا شديدا لعشر دقائق. أعاد هذا إرواء الخلايا وأدى لتفجر الغشاء الرقيق الذى يحيط بالنواة، صميم مركز الخلية حيث يختبئ كروموسوم (واى) الخاص بسير

استطعت أيضا أن أتابع مسار تنقلات أسلافنا عبر الكرة الأرضية وأن أحل بعض الأحاجى التى حيرت الباحثين لقرون

كنت راضيا تماما بأن أترك لغيرى مهمة الكشف عن تاريخ الرجال وأخذت أحول انتباهى لمشروعات أخرى

ريتشارد. غدا الكروموسوم الآن بعد معالجته بالماء المغلى عاريا مكشوفا ويمكن فحصه بدقة عن طريق التفاعلات الجزيئية المعقدة التى تكشف عن بصمته الوراثية بدقة. سوف أذكر فيما بعد الكثير عن هذه العملية. ولكن كل ما نحتاجه الآن هو أن تعرف أنها نجحت نجاحا مثاليا بالنسبة لهذه العينة المهمة.

بعد يومين اثنين من البحث كنت قد توصلت إلى تفاصيل البصمة الوراثية لسير ريتشارد من (دناه) المنقى. ثم استدعيت إلى جهازى للكمبيوتر بصمة كروموسوم (واى) الخاصة بى التى قرأتها منذ شهور عديدة سابقة. إنها تشبه الخطوط العمودية لبطاقة شفرة الأسعار، سلسلة من خطوط عمودية قاتمة وباهتة تعين هوية فريدة. وضعت ذلك موازيا لبصمة سير ريتشارد وأخذت أمر عبر النمط، لأتفحص خطا عموديا واحدا فى كل مرة. كانت كلها تتماثل بالضبط. كروموسوما (واى) لدينا نحن الاثنين يتوافقان توافقا كاملا.

يبرهن هذا على أننا نحن الاثنين أقرباء. ولكن كيف؟. أنا وسير ريتشارد ورثنا كروموسومى (واى) من أبوينا، اللذين ورثاهما من أبويهما، وهكذا دواليك للوراء عبر الزمان. كروموسوما (واى) لدينا يتابعان مسار خطين مباشرين من سلالة سلف أبوى يمتدان وراء فى الماضى إلى مدى أبعد وأبعد. حيث إن كروموسومى (واى) لدينا متطابقان، فإن هذا يعنى ولابد أن خطى السلالة اللذين نتابع مسارهما وراء من خلال آبائنا، وأجدادنا، وأجداد أجدادنا، وهلم جرا، يجتمعان عند نقطة ما على رجل واحد فقط. هذا الرجل، أيا من يكون، هو سلفنا الأبوى المشترك، رجل نستطيع أن نتابع المسار إليه أنا وسير ريتشارد من خلال كروموسومى (واى) لدينا، فى صلة وراثية لا تنقطع. لما كنا قد ورثنا أيضا لقبينا عن الطريق نفسه، فإن من المرجح لأقصى حد أن هذا الرجل، جدنا المشترك، كان أيضا يدعى سايكس. فى ضربة واحدة أثبت كروموسوما (واى) لدينا ما يوجد بيننا من صلة ارتباط لم تطرحها قط أى وثائق. بل وحتى حاليا، بعد مرور سنوات، مازلنا لا نعرف بالضبط طريقة صلة قرابتنا، وربما استغرق الأمر سنين من البحث بصبر لمتابعة مسار الصلة بيننا من خلال سجلات المواليد والزواج والوفيات - هذا إن كان يمكن بأى حال إجراء ذلك. إلا أنه على نحو ما بدا أن ليس فى ذلك ما يهم. فخيط العلاقة الوراثية مباشر ومتصل، بصرف النظر عن أجيال الرجال التى مر من خلالها.

بعد أن بينت الصلة الوراثية بينى وبين سير ريتشارد أخذت أتساءل عن عدد الأفراد الآخرين الذين يحملون اسم سايكس ولهم صلة قرابة مماثلة. هل من الممكن أننى وسير ريتشارد نكون كل من يوجد من هؤلاء؟ كم يخجلنى أن أقول أننى وقتها لم أكن أعرف شيئا تقريبا عن أصل لقبى. يكاد يكون كل ما أعرفه عن ذلك هو أن جدى كان جنديا فى الحرب العالمية الأولى وأن عائلته أتت من مكان ما فى هامبشير بجنوب إنجلترا. وفى حدود ما أعى، ليس هناك أى صلة بيوركشير يمكن فيما يحتمل أن تربط عائلتى بعائلة سير ريتشارد. هل حدث أن انتقلت عائلتى من يوركشير إلى هامبشير فى بعض زمن من الماضى؟ أو أن سير ريتشارد هو الذى ذهب فى الاتجاه المضاد من هامبشير إلى يوركشير؟ أين بأى حال يعيش معظم من ينتمون لاسم سايكس؟ لم يكن لدى أى مفتاح عن ذلك.

وصلنى وقتها تقريبا خطاب مرسل بالبريد إلى منزلى. كان هذا دعوة لشراء كتاب بعنوان طنان فخيم «كتاب آل سايكس». فى الأحوال العادية يكون مصير نشرة كهذه أن ألقيها مباشرة فى سلة المهملات، ولكنى وقد ثار فضولى لأول مرة لمعرفة المزيد عن اسم سايكس، أرسلت فى طلب شراء الكتاب. توقعت سيرا عميقا لتاريخ العائلة، ولكنى تلقيت بدلا من ذلك ملفا فيه دعاية عامة مبالغ فيها كل المبالغة عن الألقاب، وشعار نبالة مظهره يثير الشك. ثم فى الخلف قائمة بأسماء وعناوين رجال سايكس، مرتبة حسب المقاطعات. لو كنت مهتما فحسب بالاسم، لأصابنى الإحباط. ولكنى وإن كنت لم أعرف أكثر مما كنت أعرفه من قبل حول تاريخ وأصول القائمة التى فى ظهر الكتاب، إلا أن هذه القائمة كان فيها ما يلزمنى بالضبط. عندما نظرت فيها رأيت فى التو أن هناك عددا من حاملى اسم سايكس يعيشون فى يوركشير أكثر إلى حد بعيد مما فى أى مكان آخر. وهكذا بدا وكأن أسلافى أنا مع الأفراد الذين انتقلوا من موطنهم وليس أسلاف سير ريتشارد. التقط عشوائيا ٢٥٠ فردا باسم سايكس من يوركشير والمقاطعات المجاورة بلانكشير وتشيشير، وكتبت لكل واحد منهم أسأله إعطاء عينة من دناه. لما كنت شخصيا واحدا باسم مستر سايكس يكتب لآخرين بالاسم نفسه، لم يبد كثيرا أن الأمر فيه نوع من التطفل كما كان سيبدو بغير ذلك. ضمنت داخل كل خطاب فرشاة (لدنا) وخلال شهر واحد تلقيت ردودا بما يقرب من ستين عينة من (دنا) أفراد سايكس.

اسمحوا لى عند هذه النقطة أن أقول أنى أعرف الآن بالخبرة المريرة، أنه على الرغم من أنه لا يوجد ما يخلب اللب أكثر من التاريخ العائلى الخاص بالمرء، إلا أنه ليس هناك ما هو أكثر إثارة للملل من التاريخ العائلى لشخص آخر. وبالتالى، أرجو أن تغفروا لى أن أقص عليكم بعض أمور عن أسرة سايكس. وأنا لا أفعل ذلك إلا من باب التوضيح فحسب وليس من باب إعطاء المعلومات، وعندما أنهى ما أقصه لكم كل الحرية فى أن تنسوا كل شئ عن عائلتنا هذه.

أجريت القليل من الأبحاث الأخرى عن الاسم واكتشفت أن اسم سايكس مشتق من كلمة «سايك = Sike». فى يوركشير، وتعنى نوعا معينا من جداول فى أرض سبخة. ليس فى هذا تدفق مياه عظيم جارف: الكلمة فى أكثرها تعنى مجرى هزيلا بطيئا فى خنادق، وجداول «سايك» هذه كثيرا ما كانت علامة للحدود بين رقع الأرض المتجاورة. لم يكن فى هذه الأنباء ما يشجع بالنسبة لما كنت آمله من أن أبرهن على أن كل الأحياء الذين يحملون اسم سايكس على صلة قرابة وأتابع فى النهاية مسار أصولهم وراء حتى المؤسس الوحيد للعائلة.

معظم الألقاب الإنجليزية، إلا عند الأرستقراطية، قد تم إدخالها عندما يقرب من القرن الثالث عشر، وكان ذلك أساسا كأداة لإدارة الإقطاعيات الزراعية. فى ذلك الوقت، كان الكثير من الشطر كله مقسما إلى رقع كبيرة من اقطاعيات للأراضى

الزراعية. وكان هذا تراثا مباشرا للغزو النورماندي في ١٠٦٦ بواسطة وليم الفاتح الذي منح هذه الإقطاعيات لأصدقائه وأنصاره. السيد المالك الإقطاعي كان يتحكم في كل أرض الإقطاعية ويوزع الأرض الزراعية بين مستأجريها من المزارعين. وكانت إيجارات هؤلاء تكفل للمالك وأسرته المباشرة العيش بالأسلوب الفخم الذي تعودوا عليه بسرعة بالغة. كانت هذه بنيه محكمة التنظيم. وكان يُحتفظ بسجلات تفصيلية - مازال بعضها موجودا للآن - ترد فيها قائمة بحجم كل قطعة أرض وإيجارها ومعها اسم المستأجر.

المشكلة هي أنه بدون ألقاب، يكاد يستحيل على موظفي الإقطاعية أن يتابعوا مسار الأحداث. الأفراد في القرى الصغيرة يعرف كل واحد منهم الآخر، ويكون من السهل على السكان أن يتغلبوا على صعوبة أن هناك أفرادا عديدين يحملون الاسم نفسه. فهم يعرفونهم كأفراد وكثيرا ما يعرفونهم أيضا بكنيتهم. أما مديرو الإقطاعية فيلقون في ذلك صعوبات هائلة. كثيرا ما يكون مستحيلا عليهم أن يميزوا بين جون أو آدم أو ماري أو مود والآخرين الذين بالاسم نفسه. وكان الحل الذي يلجأون إليه للتمييز بين الأفراد أصحاب الاسم المتماثل هو أن يضيفوا اسما آخر - أي يضيفوا لقبا. سرعان ما أصبحت هذه الألقاب الجديدة بعدها متوارثة. بحلول منتصف القرن الثالث عشر، سُمح للمزارعين المستأجرين أن يمرروا حيازاتهم لأبنائهم عند موتهم، وبالتالي أصبح من الطبيعي في هذه الظروف أن يغدو اللقب متوارثا، مثله مثل الحيازة نفسها. هذا الجانب العملي للغاية في إمساك دفاتر الحسابات في العصور الوسطى هو الأساس لأصول معظم الألقاب الإنجليزية. من هذه البدايات البيروقراطية، أعطي لكل رجل في النهاية لقب، النساء عند الزواج يتخذن أسماء أزواجهن. أحيانا كانت هذه الألقاب تُشتق من المهنة، مثل النجار أو الحداد، أو الجزار، وأحيانا كانت الألقاب تنشأ عن الكنية، وهي غالبا كنية فيها توصيف، مثل الأشقر أو القصير. هناك ألقاب أخرى كان فيها مجرد إضافة لكلمة Son، الابن، إلى اسم الأب لتشكل اسم الأسرة مثل جونسون (ابن جون) أو آدمسون. وهناك فئة رابعة من الأسماء مشتقة من معالم المنظر الخلوي - التل، والدغل، والغابة، وفي يوركشير هناك سايكس.

كان هذا هو الجانب المحبط من التوقعات. لما كان هناك بالمعنى الحرفي الآف من جداول سايكس في يوركشير، فإن احتمال أن رجلا واحدا فقط قد قرر اتخاذ «سايك» كلقب له يبدو احتمالا ضئيلا لأقصى حد. كانت نتائج اختبار كروموسوم (واي) تطرح بكل تأكيد أنني أنا وسير ريتشارد على الأقل ننحدر من الرجل نفسه. وعلى الرغم من ذلك إلا أن احتمال أن تكون نسبة كبيرة من العينات العشوائية التي جمعتها من الأفراد الآخرين حاملي اسم مستر سايكس عينات لأفراد على صلة قرابة مماثلة، لهو احتمال يبدو بعيدا حقا. إلا أنني عندما أنهيت فك شفرة البصمة الوراثية لكروموسومات (واي) عندهم وجدت أن النتائج مذهلة حقا. كان هناك نصف بالكامل من عينات حاملي اسم سايكس التي جمعتها عشوائيا من ثلاث مقاطعات في يوركشير، ولانكشير وتشيشير، تحوي بالضبط نفس البصمة الوراثية. ليس هناك إلا تفسيرا واحدا ممكنا لهذه النتائج الرائعة غير المتوقعة. الأفراد المتطوعون بمن فيهم أنا وسير ريتشارد، والذين لديهم البصمة الوراثية نفسها لكروموسوم واي، لابد أنهم قد ورثوها من سلف مشترك. لابد أننا جميعا يمكننا أن نتابع مسار خط سلالة مباشر للأب - الابن يرجع وراء إلى رجل واحد. ولكن من يكون هذا الرجل؟ هل هو مستر سايكس الأصلي؟ ثم يساوي ذلك أهمية أن نجيب عن سؤال عن شأن ذلك النصف الآخر من عينة حاملي اسم سايكس. ماذا عن هؤلاء الرجال الذين لا يشاركون في هذه البصمة لكروموسوم (واي)؟

دعنا نتناول السؤال الثاني أولا. كروموسومات (واي) التي لم تتوافق مع بصمة آل سايكس، وهو الاسم الذي أخذت الآن أسميهم به، كانت تنقسم إلى فئتين. كان هناك عدد قليل من الكروموسومات هي وإن كانت لا تتوافق تماما مع كروموسوم (واي) لدى آل سايكس إلا أنها قريبة جدا منه. أما الكروموسومات الأخرى فلديها «شفرة خطوط رأسية» مختلفة تماما وليس لها بالكامل أي علاقة بكروموسوم (واي) لدى آل سايكس في حدود ما أمكنني رؤيته. وليس هذا فحسب، بل إنها أيضا لا يوجد بين الواحد منها والآخر أي علاقة واضحة. لم يكن هناك أي تجمعات أخرى من كروموسومات (واي) ذات علاقة أحدها بالآخر لتطرح أننا عثرنا على سلالة لمستر سايكس «أصلي» ثاني. ما هو تفسير هذا النمط، حيث نصف الرجال المسمين بسايكس يتشاركون في البصمة نفسها لكروموسوم (واي) بينما النصف الآخر لديهم خليط من كروموسومات (واي) لاتوجد أي علاقة واضحة بين الواحد منها والآخر؟

نحتاج عند هذه النقطة من القصة إلى أن نطرح العامل الذي يشير إليه باحثو الوراثيات تأدبا بأنه «عدم الأبوة»، المصطلح الذي يستخدم عندما يكون والد الطفل، حسب الاسم في شهادة الميلاد، ليس والده البيولوجي. عندما يحمل طفل لقب أبيه ولكنه لا يحمل جيناته لايكون متاحا سوى تفسيرات معدودة. أكثر هذه التفسيرات مباشرة وبراءة، هو أن الابن متبنى وقد أخذ لقب أبيه بالتبني. وبالطبع يحدث الشيء نفسه للبنات المتبنيات، ولكنهن في أغلب ما يرجح لا يمررن هذا الاسم لأطفالهن، كما أنهن ولاريب لا يمررن أيضا أي كروموسوم (واي). لا تمرر كروموسومات (واي) بأي حال إلا من الأب للابن. الأمر فحسب أن النساء ليس لديهن هذه الكروموسومات. التفسير الثاني هو أن الأسرة كلها قد اتخذت لقبا جديدا. لم يكن هذا بالإجراء الشائع في انجلترا العصور الوسطى ولكنه ولا ريب كان شائعا في اسكتلندا، حيث كثيرا ما كان الرجل يتخذ اسم رئيس العشيرة الذي يعيش هذا الرجل فوق أراضيه أو الذي يحارب في جيشه، وذلك دون أي صلة قرابة بينهما. يبقى لنا بعد ذلك التفسير الثالث والأخير لعدم التوافق بين اللقب وكروموسوم (واي)، خيانة زوجية من المرأة أو ربما اغتصابها. البيولوجيون لديهم اسم فظ نوعا لذلك، وهو «الجماع مع غير الزوج». إذا كان للمرأة طفل من رجل غير زوجها وإذا نشأ هذا الطفل داخل العائلة وأعطي له اسمها، تكون الصلة منقطعة بين الاسم والجينات. إذا كان هذا الطفل ولدا، سوف يرث لقب أبيه المزعوم، ولكنه لا يرث منه كروموسوم (واي). فهذا يكون قد مرر إليه من عشيق أمه أو مغتصبها وليس من زوجها. وعندما ينجب هذا الولد أبناء من صلبه، يكون ما يمرر لهم هو كروموسوم (واي) الخاص به. بل وحتى إذا لم تقع أحداث من «عدم الأبوة» في الأجيال اللاحقة، إلا أن هذا لن ينقذ الصلة بين كروموسوم (واي) واللقب الأصلي. لقد انقطعت هذه الصلة نهائيا.

حسب بحث المسح الذي أجريناه، والذي نقر بأنه محدود، تقع كروموسومات (واي) لدى حاملي اسم سايكس في فئتين متساويتين تقريبا. المجموعة الأولى أفرادها على صلة قرابة حميمة أحدهم بالآخر ويكاد يكون من المؤكد أنهم قد توارثوه دون انقطاع من مستر سايكس أصلي واحد. النصف الآخر من المتطوعين قد ورثوا كروموسومات (واي) مختلفة تماما عن كروموسوم سايكس «الأصلي»، كما أنها يختلف أحدها عن الآخر. من الممكن أن تكون كروموسومات (واي) الأخيرة هذه قد أصبحت مرتبطة بالاسم من خلال خيانة زوجية، أو اغتصاب، أو تبني وقع أي حدث منها عند نقطة معينة بعد بدء الاسم. أو قد تكون كروموسومات (واي) هذه منتمية إلى أفراد عديدين مختلفين من الرجال «الأصليين»، كل منهم يحمل اسم سايكس، وظل كل كروموسوم منهم يمرر منحدرا حتى وقتنا الحاضر من خلال خط سلالة أبوي مباشر لا تقطعه أحداث عدم أبوة. من المستحيل بناء على هذه الأدلة وحدها أن نميز الفارق بين هذه الاحتمالات، وعلى أي حال إذا كانت هذه الكروموسومات من أصول مختلفة، فإن أيا منها لم يكن يقترب بأي صلة من كروموسوم آل سايكس الرئيسي.

على الرغم من أنه لا توجد طريقة لنميز منهجيا بين هذه الاحتمالات

أدركت شركة جلاكسو - ويلكوم، أن اكتشاف جينات سوف تؤدى إلى تعيين أهداف جديدة تدور حولها تصميمات الأدوية

المختلفة. إلا أنني رأيت أننا نستطيع فيما ينبغي أن نستنبط رقما لما يمكن أن يسمى، إذا شئنا، بأنه المعدل التراكمي لأحداث عدم الأبوة. سيكون هذا تقديرا لنسبة حالات عدم الأبوة، من أي نوع كانت، التي وقعت منذ القرن الثالث عشر حتى تعطينا النمط الحالي، حيث نصف الرجال حاملي اسم سايكس يتشاركون في البصمة نفسها لكروموسوم (واي) في حين يظهر في النصف الآخر خليط من بصمات وراثية من الواضح أنها ليس على صلة قرابة. لا حاجة بي لأن أزعج القارئ بالحسابات: الإجابة تصل إلى أن هناك في كل جيل نسبة ٣,١ في المائة من أحداث عدم الأبوة. يعني هذا أنه عبر سبعمائة سنة، كان متوسط معدل حالات التبني والأبناء غير الشرعيين مما لا يمكن أن يتجاوز في كل جيل نسبة الواحد في المائة إلا بقدر هين. لو كانت النسبة أعلى كثيرا من ذلك لكان النمط الذي نراه الآن بين كروموسومات آل سايكس المحدثين نمطا قد أصابه التفسخ منذ زمن طويل. حتى نصوغ الأمر بطريقة أخرى، فإن هذا المعدل يعني أن نسبة ٩٩ في المائة من آل سايكس قد أحسنوا السلوك تماما، أو كانوا محظوظين تماما، طيلة الأعوام السبعمائة الأخيرة. والحقيقة أنه حيث أن رقم ١,٣٪ يتضمن أيضا إمكان وجود مؤسسين مستقلين آخرين للاسم فإنه بهذا يعد «الحد الأقصى» لتقدير عدم الأبوة. وحينما نبقي في أذهاننا أن بعض هذه الأحداث يمكن أن تكون حالات حقيقية من التبني، فإن معدل الأحداث غير الشرعية يهبط حتى لما هو أقل. كيف يقارن ذلك بمعدل عدم الأبوة في أيامنا هذه؟ مما يثير الدهشة أنه لا توجد قيمة متفق عليها عموما للمعدل الحالي، إلا أن التقديرات (التي تتراوح بين ٥ - ٣٠ في المائة) في الدراسات المختلفة بالمملكة المتحدة كلها أعلى كثيرا من القيم التاريخية التي حصلنا عليها من نتائج آل سايكس.

بل وحتى مع صعوبة تمييز تأثير أحداث عدم الأبوة عن تأثير المؤسسين المستقلين المختلفين، إلا أن النتيجة بوجه عام كانت مذهلة. أغلب المتطوعين، إن لم يكن كل المتطوعين، من المقاطعات الثلاث بيوركشير، ولانكشير، وتشيشير قد نالوا الاسم من رجل واحد. ونصف هؤلاء مازالوا يحملون كروموسوم (واي) الخاص بهذا الرجل. هل كنت محظوظا إلى حد لا يصدق بالنسبة لاسم سايكس؟ لا أظن ذلك. أعدت خلال العامين الماضيين إجراء هذه الدراسة على عشرات من الأسماء. لم تظهر كل هذه الأسماء علاقة وثيقة بين الألقاب وكروموسوم (واي) مثل العلاقة التي ظهرت عند آل سايكس، إلا أن معظمها كان له هذه العلاقة، بل كان بعضها أكثر إثارة للدهشة. وجدنا بالنسبة لأحد الأسماء، الذي سأعود إليه في فصل تال، أن هناك نسبة تصل بالكامل إلى ٨٧٪ ممن يحملون الاسم حاليا لديهم كروموسوم (واي) نفسه أو كروموسومات (واي) صلتها وثيقة جدا. بمدى ما أستطيع رؤيته حتى الآن، فإن أغلبية الألقاب، في انجلترا على أي حال، ترتبط ارتباطا واضحا جدا بكروموسوم (واي) واحد أو بعدد قليل جدا منها.

لاريب أن الحظ كان له دوره؛ ولم يكن ذلك الدور إلى حد كبير في أن هناك أسماء أخرى ربما ما كانت تنجح هكذا. وهذا أمر وارد. وإنما كان للحظ دوره لسبب غير علمي بالكامل. لو أن رئيس شركة جلاكسو - ويلكوم لم يكن اسمه سايكس لما فكرت أبدا أول كل شيء في إجراء هذه الدراسة. الجانب الثاني من حسن الحظ أن سايكس اسم من يوركشير ويتصادف لا غير أن يوركشير موطن لواحد من أحسن خبراء الألقاب في كل انجلترا - وهو د. جورج ريدموندز. لولا جورج، لانتهى الأمر بأن يكون دراسة كروموسوم (واي) عند حاملي اسم سايكس مجرد تقرير علمي رسمي بارد؛ سيكون هذا التقرير بلا ريب مثيرا للاهتمام، ولكنه ليس له صلة حقيقية بذلك التاريخ وذلك المنظر العام اللذين كنت الآن منتبها إلى أنهما كانا موطن أسلافي بالوراثة أثناء أكبر جزء من الأعوام الألف الماضية. كنت أشعر أنه يحق لي الآن أن أطلق اسم بلاد آل سايكس على ذلك الجزء من يوركشير الغربية في جنوب غرب هدر سفيلد. وهي بلاد منظرها العام الطبيعي هو الأرض سبخة قاحلة تقطعها وديان أنهار جوانبها شديدة الانحدار. عند النظر من أعلى الأرض السبخة المرتفعة تبدو المنطقة مهجورة تقريبا. والتلال تنحسر بعيدا إلى مسافات نائية في كل اتجاه. تقع القرى الصغيرة لأسفل قليلا على المنحدرات، حيث أكواخ النساجين تنشب قبضتها وقد تجمع كل منها حول بيت المزرعة. ثم هناك على مستوى لا يزال أكثر انخفاضا مدن المصانع القديمة وهي مقصورة تملئ قيعان الوديان وتختفي تماما عن الأبصار من قمة التلال. وهي مدن من نوع حضري بالكامل، ومليئة بالضجة والقذر.

يعيش جورج في منطقة مرتفعة أعلى الأرض السبخة ومعرفته بالمنطقة - بمشهدها العام، وتاريخها. وبوجه خاص تواريخ عائلاتها - معرفة لا تقل عن أن تكون موسوعية. عندما يركب المرء معه في جولة بالسيارة حول هذا المشهد العام الخشن فإنه يبعث فيه الحياة بحيوية. هكذا فإن خطا غير ملحوظ لجدار حجري جاف متكسر فوق سفح تل بعيد يصبح في أصله محاولة فاشلة من مزارع في العصور الوسطى دفع به لأعلى وأعلى خارج الوادي، وهو يحاول أن يزرع أبأس الأراضي. ثمة قمة صخرية - مرتفعات وولفستون (صخرة الذئب) - هي مع جورج لا تكون بعد مجرد اسم على الخريطة ولكنها تذكر بزمن ليس ببعيد جدا، عندما كانت هناك حقا ذئاب تعيش على الأرض السبخة.

التقيت وجورج أول مرة عندما كنا نصنع سلسلة من برامج الراديو لهيئة الإذاعة البريطانية عن موضوع الألقاب، والجينات وعلم الأنساب (وكان ينتجه فرد آخر من المسمين سايكس، وهي ساندرا سايكس) وبدأ جورج عندها يبحث عن أقدم السجلات التي ورد فيها ذكر اسم سايكس. عثر جورج خلال فترة زمنية قصيرة على إشارة في جداول المحاكم في ١٢٨٦ إلى من يسمى هنري ديل سايك. عرض جورج على بعض هذه السجلات، وكانت حالتها رائعة تماما. كانت منقوشة فوق رق من جلد العجول مما يجعلها متينة المتانة الكافية، حتى بعد مرور مئات عديدة من السنين، بحيث يمكن تداولها دون أن تتفسخ. لو أنها بدلا من ذلك كانت مكتوبة فوق ورق لتفتتت إلى تراب منذ زمن طويل. سجل المحكمة هذا بالذات الذي عثر عليه جورج يشير إلى نزاع على الحيازة دخل فيه هنري ديل سايك بشأن أراض قريبة من قرية فلوكتون، جنوب هاردسفيلد بأميال قليلة. لاتزال القرية موجودة هناك ومازال هناك آل سايكس في فلوكتون، على أن بحثا سريعا خلال جداول الانتخابات أوضح أن هناك عددا من آل سايكس أكثر كثيرا في بلدة سليثويت الصغيرة التي تبعد بما يقرب من تسعة أميال عن فلوكتون. سليثويت، كما كان جورج يعرف من قبل، كانت مستوطنة أصغر عمرا بكثير عن فلوكتون. وهي تقع عند التقاء من واد جوانبه شديدة الانحدار على ضفاف نهر كولن. كانت هذه الوديان في العصور الوسطى تحتشد فيها الغابات الكثيفة، والمستنقعات، ومليئة بالحيوانات البرية. جعلها ذلك صعبة في الزراعة، ولهذا أنشئت الكفور والقرى على مستوى أعلى مرتفع فوق جوانب الوادي حيث تكون الأرض بتصريف جيد للمياه وخالية من الأشجار إلى حد كبير. لم تصبح قيعان الوديان مسكونة بكثافة إلا في وقت متأخر عن ذلك بكثير، أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما أصبح هناك تصنيع لإنتاج الغزل والنسيج. كان يلزم بناء المصانع القائمة بالقرب من الأنهار لحاجتها للمياه لغسل الصوف ولتغذية محركات البخار التي تزود الأنوال بالطاقة.

كان لدى جورج سؤال واضح. هل كان آل سايكس القدامى في فلوكتون على صلة قرابة بآل سايكس في سليثويت؟ عثر جورج على أدلة على أن آل سايكس عاشوا بين المستوطنين في القرن الرابع عشر ووجد تفسيرا مقنعا لسبب ممكن لانتقالهم بعيدا عن فلوكتون. إنه الموت الأسود - الطاعون الدملي - وقد اكتسح طريقه حاصدا أرواح سكان أوروبا في ١٣٤٨ أول مرة، ثم في أوبئة تالية أقل عنفا عبر السنوات المائة التالية. قتل أول وباء ما بين ثلث إلى نصف السكان في مدى ثمانية

إذا كان للمرأة طفل
من رجل غير زوجها وإذا نشأ
هذا الطفل داخل العائلة وأُعطي له اسمها،
تكون الصلة منقطعة
بين الاسم والجينات

عشر شهرا. من الصعب تصور ما يكون لوباء بهذا المقياس من تأثير رهيب في أسلافنا. ما من عائلة نجت أثناء اندفاع الخوف والموت في اكتساح للأرض مثل شبح أسود يجرى سريعا بخفة. بعد أن أخمد الوباء وقود نيرانه بنفسه وعجز عن أن يجد عددا كافيا من الضحايا المستهدفين الباقين على قيد الحياة ليقيموا أوده، وجد الباقون أحياء أنفسهم في منهد اقتصادي عام جديد. ووجه الملاك الإقطاعيون بنقص حاد في العمالة فأجبرهم ذلك على تحسين الأجور وتحسين ظروف معيشة مستأجري أرضهم وأقنانهم. أصبحت هناك أراض أخلاها الموت الأسود من شاغليها فغدت متاحة لشاغلين جدد. يرى جورج ريموندز أن هذه الفرصة للاستقرار فوق أرض جديدة هي التي حثت بعض آل سايكس على مغادرة فلوكتون والتماس حظهم في مكان آخر. فجأة أصبح لدى علم الوراثيات الآن ما يتيح لجورج فرصة اختبار فكرته. إذا كان آل سايكس في سليثويت قد أتوا أصلا من فلوكتون، سنجد عندها أن كروموسومات (واى) عند المجموعتين لابد أن تتوافق. كتبت لرجال آل سايكس في سليثويت وفلوكتون طالبا لعينات من دناهم. وعندما حللنا كروموسومات (واى) لديهم، وجدنا أن بصماتها الوراثية متماثلة تماما. كان حدس جورج صحيحا، وقد ثبتت صحته بما يتجاوز أي شك بواسطة هذا الاختبار الوراثي الجديد.

وددت أن أرى الموقع الأصلي بالقرب من فلوكتون الذي ربط جورج بينه وبين أول الأولين من آل سايكس في السجلات. كان ذلك في يوم بارد في أوائل أبريل عندما خرجنا من السيارة بجوار جدول يجرى عبر قاع أحد الوديان. لم تكن الأشجار بعد مورقة. وانتصبت أشجار السنديان الضخمة عارية فيما يقابلها من حقول خضراء. تؤدي هذه الأراضي العشبية لأعلى إلى جرف يبتعد بما يقرب من ثلاثمائة ياردة حيث تمتد فلوكتون نفسها بطول حافة التل تماما مثلما كان حالها دائما. إلى اليسار منا، وراء جدار حجري جاف، كان هناك حقل صغير مسور غير مزروع مفعم بالحياة بزهور عشب الحوذان الذهبية في الأرض السبخة القريبة من الجدول. الجدول نفسه صاف ومزبد إلا أن قاع النهر في موات، وقد اختنق برواسب المغر[3] ذات اللون الصدئي الصرف الملوث الذي لا يزال يتدفق من مناجم خام الحديد المهجورة من زمن بعيد.

يمر أحد الدروب عبر الجدول، وقادني جورج أسفله من بين الأشجار الطويلة للحور والرجراج التي تحتضن المياه. انتصبت عند منعطف في مسار المياه أطلال مصنع قديم مهجور من زمن طويل. حدد جورج هذا الموقع بالذات تحديدا دقيقا بأن وجد أن هنري ديل سايك كانت له حيازة للأرض على جانبي الجدول، تقع في أبرشيات[4] مختلفة. لم يكن هناك أي أثر لبيت المزرعة الذي كان يشغله جدي، أول الأولين من آل سايكس، ولكن حتى مع هذا، ملأني إحساس رائع تماما لوجودي هاهنا. عندما أخذت أنظر من حولي إلى المصنع القديم، والدرب والجدول، بدا وكأن شيئا لم يتغير كثيرا في المشهد العام، بل إنه لم يتغير فعلا. الحقل وحدوده على حالهما مثلما كانا في القرن الثالث عشر عندما كان هنري ديل سايك يعيش ها هنا. وقفت هناك وأنا أكاد أسمع أصوات الأطفال - أسلافي - وهم يضحكون بينما يقذفون الحصى في الجدول. حتى من غير أدلة (دنا)، سيكون في الأمر خبرة فيها ما يكفي من الإثارة عندما يرى المرء المكان الذي عاش فيه أول مستر سايكس مسجل. ولكنني عندما كنت سأشعر بأني بعيد الصلة عنه. كنت سأعرف أن هناك ارتباطا من نوع ما بيني وبين المكان، ولكنه ارتباط مصنوع من خلال العقل، الاستنتاج المنطقي لعملية توفق بين الاسم الوارد في شهادة ميلادي مع اسم آخر فوق قطعة من ورق جلدي أصفر. أما وأنا أعرف أن كروموسوم (واى) الذي أحمله في كل خلاياي كان موجودا بالفعل ها هنا. في هذا المكان، في هذه الحقول بجوار الجدول، فإن في هذا إحساسا مختلفا اختلافا كليا. أشعر الآن وكأني أخبر تاريخ جزء حقيقي من ذاتي، مكانا كان يعيش فيه بالفعل بعض جزء مني؛ جزء لا ريب أنه قد فعل ذلك. ※

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى كتابه الرائع سبع بنات لحواء. وقد ترجمناه إلى العربية وصدرت طبعته الأولى ٢٠٠٣ عن دار العين بالقاهرة، وطبعته الثانية ٢٠٠٣ عن مكتبة الأسرة بالقاهرة. وأساس أبحاث هذا الكتاب هو ما يسمى (دنا) الميتوكوندريا الذي يوجد في سيتوبلازم الخلية وذلك بخلاف (دنا) التقليدي الذي يوجد في النواة. كما يختلف (دنا) الميتوكوندريا بأنه يتم توارثه عن النساء فقط وليس عن النساء والرجال مثل (دنا) النواة. (المترجم)

(٢) النياندرتاليين: نوع من الإنسان من العصر الحجري القديم وجدت بقاياه لأول مرة ١٨٥٧ في كهف بوادي نياندرتال بألمانيا. (المترجم)

(٣) مغرة: أكسيد حديد مائي طبيعي لونه عادة أحمر أو أصفر. (المترجم)

(٤) الأبرشية: تقسيم إداري للمقاطعات في بريطانيا يتفق عادة مع حدود الأبرشيات الكنائسية (المترجم)

الكتاب والكاتب

مصطفى إبراهيم فهمي



※※ بريان سايكس مؤلف هذا الكتاب أستاذ للطب الوراثي الجزيئي في جامعة أوكسفورد، والجزيئي تشير إلى أنه يصل في أبحاثه الوراثية إلى مستوى الجزيئات التي تكون مواد الجهاز الوراثي وأهم هذه الجزيئات هو الحامض النووي (دنا) أو دي أوكسي ريبونيوكلييك. وهو المكون الأساسي للجينات أو المورثات.

يرى البروفيسور سايكس أن الطريق لمعرفة ماضي البشر وتاريخ تطورهم لا يقتصر على دراسة الماضي نفسه وإنما نستطيع أيضا معرفة ماضينا وتاريخ تطورنا عن طريق دراسة الحاضر، باستخدام علم الوراثة. ذلك أن الأحياء من البشر الذين يعيشون حاليا يحملون داخل أجسادهم مكونات بالجهاز الوراثي تدل على أحداث الماضي. وهكذا فإن دراسة تركيب حامض (دنا) تؤدي إلى معرفة مؤشرات تدل على ماضينا وعلى هويتنا وهوية أسرنا وأجدادنا. الجينات أو المورثات التي تتكون أساسا من (دنا) تنتظم كحبات عقد فوق خيوط في نواة الخلية، وتسمى هذه الخيوط بالكروموسومات. هناك ٢٣ زوجا من الكروموسومات في نواة خلية الإنسان أحدها هو كروموسوم (واى) الشهير العامل الوراثي الأساسي لذكورة الرجال. كروموسوم (واى) يورث من الأب وحده وليس من الأب والأم معا مثل باقي كروموسومات النواة. وإذن فإن دراسة كروموسوم (واى) تقودنا إلى معرفة الآباء السلف، وتمكننا من التعرف على تسلسل النسب من الابن إلى الأب إلى الجد... حتى الجد الأعلى الذي بدأت به مجموعة أو عشيرة معينة من السكان. كما أن دراسة أنواع التركيبات المختلفة لهذا الكروموسوم الذكوري تمكن من التعرف على الأقارب الذين ينتهون إلى جد سلف بعينه ويتشابهون كلهم في خصائص معينة من تركيب دناهم تثبت قرابتهم. كان سبب بدء البروفيسور سايكس لأبحاثه على كروموسوم (واى) هو أنه تصادف أن دُعي إلى مؤتمر أعدته شركة أدوية كبيرة يرأسها مدير اسمه أيضا سايكس، أخذ الكثيرون يسألون البروفيسور سايكس إن كان على صلة قرابة برجل الأعمال سايكس. واستفزه ذلك لأن يبدأ بحثا في تركيب كروموسوم (واى) عنده هو شخصيا وعند رجل الأعمال ثم عند كثير من الأفراد الملقبين باسم سايكس، وأثبت في النهاية أنه وسايكس رجل الأعمال والكثيرين من الأفراد الملقبين بسايكس ينتمون فعلا لسلف واحد. أمكن للعلماء بعد إجراء أبحاث مماثلة رسم شجرة نسب كل عشائر سكان العالم في أجزائه المختلفة تبين صلات القرابة فيما بينهم.

إلى جانب أهمية كروموسوم (واى) في متابعة النسب الأبوي وتحديد هوية الأفراد الأقارب في عشيرة واحدة، فإن له أهميته أيضا فيما

يسميه المؤلف بأنه «لعنة آدم»، ويقصد به أن الرجال مدفوعون بنشاط كروموسوم (واى) الذكورى إلى محاولة اجتذاب النساء بما يماثل ميكانزم الانتخاب الجنسى الذى وصفه داروين كعامل سريع لتطور الكائنات الحية. المثل الشهير لطرائق الانتخاب الجنسى هو ذيل ذكر الطاووس الذى كلما زاد جمالا ونموا زاد اجتذابه لإناث الطاووس. أما عند الرجال فإنهم بدلا من ذيل الطاووس يحاولون إغراء النساء بما يجمعونه من الثروة والسلطة حتى يصلوا إلى جمع أكبر عدد من النساء. اشتد طغيان لعنة آدم هذه مع ظهور الثورة الزراعية التى واكبها ظهور الملكية الخاصة وزيادة احتكار الثروة والسلطة. كما واكبها التنافس العنيف بين الرجال أنفسهم مع استخدام العنف والقتال والحروب، واستغلال الأقوياء للضعفاء سواء من الرجال أو النساء، ومازال الاستغلال والقتال يجرى حتى الآن بما يؤدى إلى هلاك البشر، وتخريب بيئتهم بأيديهم هم أنفسهم؛ وربما سيؤدى إلى انقراضهم. ترى إلى أين ستقودنا لعنة آدم وهل من سبيل لتفاديها؟

هناك أسئلة أخرى يثيرها التاريخ التطورى للجنس الذى انتهى بانقسام البشر إلى الجنسين، الإناث (الأصل) والذكور (الطارئين) وما يدور بينهما من حرب علنية ظاهرة اجتماعيا، وحرب أخرى خفية تدور سرا بين كروموسومات الذكورة وكروموسومات الأنوثة.

إحدى المشاكل المهمة التى يتناولها الكتاب ما تدل عليه الدراسات الحديثة من وجود تدهور وضعف مستمر فى الحيوانات المنوية للرجل بالنسبة لحيويتها وأعدادها، وهو ضعف يزداد من جيل للآخر، ويصحبه زيادة متواصلة فى حالات العقم بين الرجال. ترى هل ينتج هذا الضعف عن عامل وراثى متأصل فى كروموسوم (واى)، أم أنه نتيجة عوامل بيئية مثل تناول الاطعمة الملوثة بالهرمونات الأنثوية التى تستخدم لزيادة حجم المنتج الغذائى، أو أنه يرجع للعوامل الوراثية والبيئية معا؟

ثم هناك تساؤل عما إذا كان من الضرورى وجود الذكور لاستمرار الحياة البشرية؟ يرى الكثيرون من العلماء أنه من الممكن من الوجهة النظرية أن يتم إخصاب بويضة أنثى ببويضة من أنثى أخرى، وتتنامى هذه البويضة المخصبة إلى جنين ليولد كائن بشرى جديد هو بالطبع أنثى بدوره، وهكذا يتم الانتقام من كروموسوم (واى) الذكورى، ويختفى الرجال من الوجود حيث لا تعود هناك حاجة إليهم للإنجاب. وبهذا تختفى أيضا لعنة آدم للأبد!

بالإضافة إلى هذه الأسئلة هناك دائما دراسات مقارنة لتطور الجنس فى شتى أنواع الكائنات الحية من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا. وترد فى هذه الدراسات المقارنة غرائب وعجائب الحقائق العلمية الأكثر إثارة من الخيال الروائى: مثل الدودة البحرية التى يعيش ذكرها قابعا داخل رحم الأنثى التى تعوله، أو كيف أن تحديد الذكر والأنثى عند أنواع من السلاحف والتماسيح لايتحدد بالوراثة وإنما يتحدد بعامل بيئى هو درجة حرارة مكان وضع البيض، أو سمك البروس الذى يمكن أن تتغير إحدى إناثه إلى ذكر عندما يختفى لسبب ما الذكر المسيطر على مجموعة حريمه. فالجنس هنا يتقرر حسب ظرف اجتماعى وليس بالوراثة والكروموسومات.

هكذا يقودنا المؤلف خلال هذه الآفاق كلها فى رحلة عملية فيها فائدة ممتعة وإثارة متواصلة، وهو ينسج معا ببراعة خيوطا من علوم شتى كالتاريخ والكيمياء الجزيئية والجيولوجيا وعلم الاجتماع والوراثيات التى تتداخل جميعا فى منهج بينى للمعرفة، ويتبع المؤلف فى سرده لهذا كله أسلوبا رشيقا يجعل أبحاثه وكأنها قصة بوليسية ممتعة مفعمة بما فيها من ألغاز وحركة وإثارة وحبكة تنتهى بحل اللغز، وهو فى كل هذا أديب فى أسلوبه بمثل ما هو عالم فى أبحاثه. وإذن، هيا بنا إلى هذه الوليمة من الثقافة العلمية والمتعة. ■

كتاب الزاوية

ترشيد العمل الجهادى فى مصر والعالم

سيد إمام الشريف

(٣)

وتعددت مسالك المسلمين فى السعى نحو تحكيم شريعة الإسلام فى عصرنا الحاضر، وفى التصدى للدول العظمى التى لا ترضى إلا بإذلال المسلمين وإضعافهم. ولجأت بعض الجماعات الإسلامية إلى الصدام مع السلطات الحاكمة فى بلادها أو مع الدول العظمى ورعاياها باسم الجهاد فى سبيل الله تعالى من أجل رفعة شأن الإسلام، وانتشرت الصدامات فى مختلف البلدان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وقد خالطت هذه الصدامات كثير من المخالفات الشرعية مثل القتل على الجنسية والقتل بسبب لون البشرة أو الشعر والقتل على المذهب، وقتل من لا يجوز قتله من المسلمين ومن غير المسلمين، والإسراف فى الاحتجاج بمسألة التترس لتوسيع دائرة القتل، واستحلال أموال المعصومين وتخريب الممتلكات، ولا شىء يجلب سخط الرب ونقمته كسفك الدماء وإتلاف الأموال بغير حق، وهذا من موجبات الخذلان فى الدنيا والحرج والمؤاخذة فى الآخرة، قال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ (النور:٦٣).

لم يكن مفاجئاً للكثيرين فوز الأديب جمال الغيطاني بجائزة الشيخ زايد للكتاب في فرع الآداب للدورة الثالثة ٢٠٠٩ عن رواية «رن» الصادرة عن «دار الشروق» وهو الدفتر السادس من دفاتر التدوين. ويذكر أن كتاب «رن» يروى رحلة الكاتب عبر الذاكرة إلى مصر القديمة عبر سيره في أساطيرها وتراثها المنسى، والرحلة الروحية تتوازى مع رحلة واقعية يقوم بها الكاتب منطلقاً من هضبة الهرم باتجاه جنوب مصر. لا يحمل معه إلا تهويماته التى يحملها عن أماكن بعينها لم يزرها وأشخاص لم يلتق بهم، لكنه يحاول تخليقهم من خلال الاسم ومن هنا جاء العنوان «الرن» من الكلمة الشعبية «شنة ورنة»، حيث الشنة هى الاسم والرنة ماهيته أو كينونته.

وكانت مجموعة «التجليات» للغيطانى التى صدرت أيضاً عن «دار الشروق» قد نالت عند صدورها باللغة الفرنسية فى فبراير ٢٠٠٥ اهتمام نقاد وجمهور الأدب فى فرنسا على السواء. فالرواية كما يقول خالد عثمان، الذى تولى ترجمتها الى اللغة الفرنسية بحرفية شديدة ساعدت على حصولها على جائزة لور باتايون Laure Bataillon كأحسن رواية مترجمة فى عام صدورها، مثلت محاولة ناجحة لإبداع شكل روائى خاص باللغة العربية. «كتاب التجليات» كان محوراً لدراسة علمية قام بها كليمان تطرح سؤالاً أساسياً: ماذا تعنى رواية عربية؟. هنا نقدم ترجمة لمقاطع من خاتمة الدراسة ولبعض القراءات التى قدمها الباحث الفرنسى لمفاهيم أساسية فى الرواية: الأب، الغربة والموت.

المترجـــم

تجليات الحياة والموت

جـون فرنسـوا كليمـان
Jean-Francois Clement

** يمكن دراسة هذه الرواية بأكثر من طريقة وفقاً لما تعنيه بالنسبة لمؤلفها أو للقراء المحتملين الذين لن يكتفوا بقراءة النص فى ظل غياب أى رؤية تفسيرية الأمر الذى يبقى مع ذلك ممكناً. وينسرج هذا النص ضمن مجموعة أعمال يحاول مبدعوها المختلفون جداً فيما بينهم أن يبتكروا فيها أشكالاً متطورة من الكتابة. نتذكر بالتأكيد الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ وأيضاً صنع الله ابراهيم، القريب جداً من جمال الغيطانى. كذلك إلياس خورى، إميل حبيبى أو إدوارد شارات. تمثل نصوص هؤلاء الكتاب تحيراً فى الشكل وفى المضمون. وهو ما نجده على سبيل المثال فى أسلوب الغيطانى المميز جداً فيما يخص إستخدام الاستعارات المتعددة والتنويع الكبير فى التشبيهات: كل عنصر يعود الى سلسلة شبه لا نهائية من عناصر أخرى عن طريق الانتقالات المتتابعة للمعنى (...)

يمكننا أيضاً، وهذا ملمح يوسع قراء فضوليين محتملين التوقف عنده، دراسة توظيف الألوان فى هذا العمل الذى كتبه صانع قديم للسجاد تعلم فن الصبر خلال ست سنوات هى مدة عمله فى هذه الصناعة. الإشارات الى فن العمارة، المتكررة جداً فى «متون الأهرامات» يمكن أيضاً الكشف عنها لأنها هى أيضاً عنصر مهم ومحجوب بشكل كامل فى عملية الكتابة.

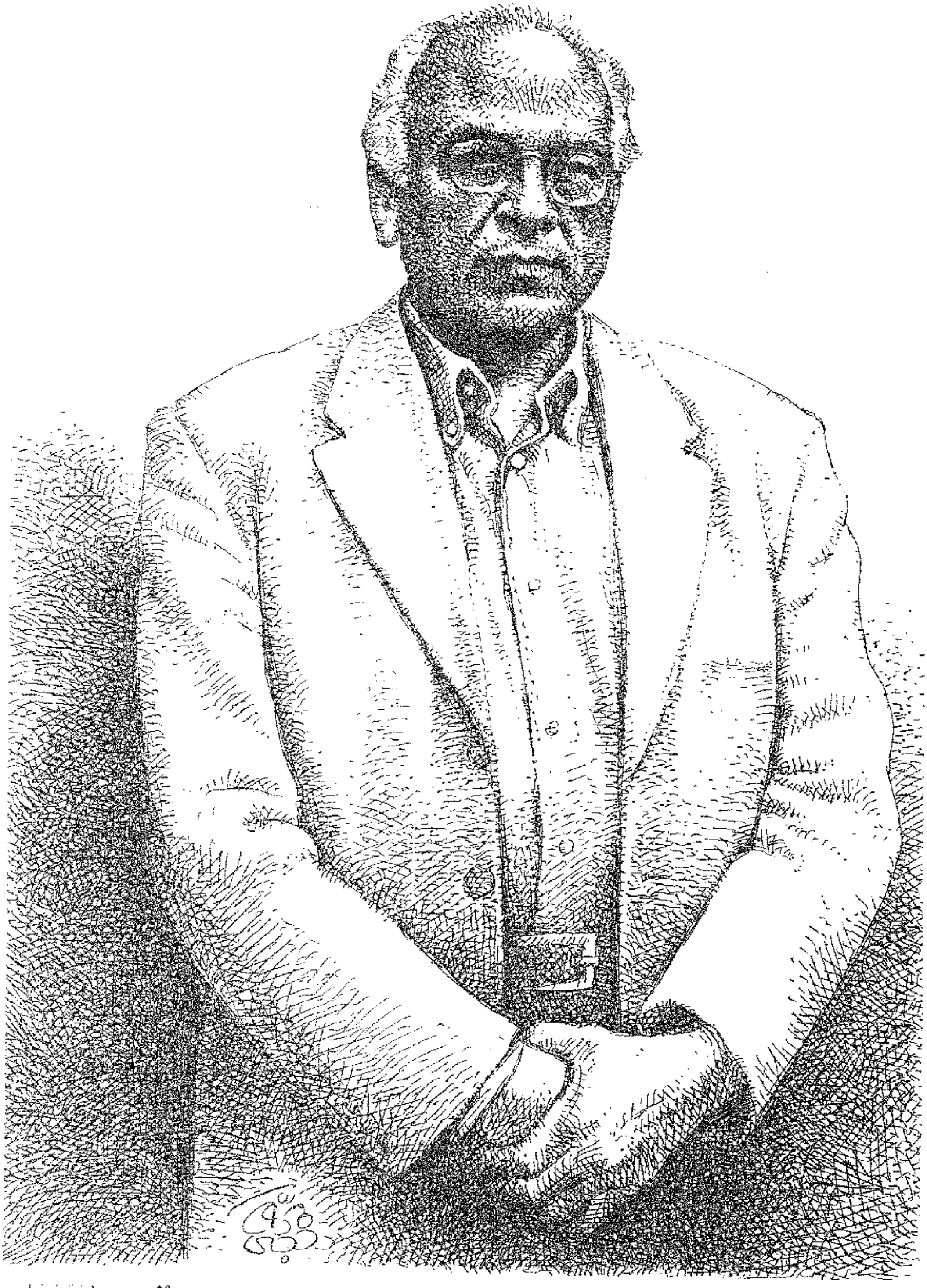
انطلقنا من إشكالية ترتبط بالنقد الاجتماعى المعاصر. ما هو الشكل الذى اختاره الكاتب لينقل أو ليسجل أفكاره التى يريد أن ينشرها؟ كيف تحقق التماسك فى حكايته وهل تم ذلك ضمن الشكل الروائى كما تم تعريفه فى الغرب؟ ولطرح مثل هذا السؤال لابد من الانطلاق من فكرة أننا لا نعرف مقدماً، حتى لو قيل لنا ذلك، النوع الذى سيسبك فيه النص. لابد إذن من الارتياب فى التوضيحات التى يقدمها الكاتب، أن نرتاب حتى فى ارتيابه هو. فبعد كل شيء يبقى لنا الحق فى التساؤل. هل هذه الرواية رواية أم سيرة متخيلة أم هى ببساطة سيرة ذاتية؟ ربما لن يصنفها كل القراء فى فئة واحدة بعينها، وربما يعتبرها البعض مزيجا من هذا كله كما حدث مع «نجمة» كاتب ياسين التى كانت فى الوقت نفسه رواية، سيرة ذاتية، ملحمة دولة ورسالة هجاء سياسية.

يقودنا هذا السؤال الشكلى الى مستوى ثان من الأسئلة تتعلق بالمضامين المتتابعة للنص فكان لزاماً اختبارها. إننا فى الواقع داخل سياق تاريخ الأشكال الأدبية وتنويعاتها. الغيطانى روائى سيضع حكاية فى قوالب وصياغات. سيبدع إذن شخوصاً ومتواليات أحداث ستشكل سردية النص. هكذا سنجد تحققاً ظاهراتياً للنص نتج أولاً من خلال متطلبات اللغة وهو يمثل أول أنظمة التشكيل. ثم عبر النوع الذى تم اختياره والملائم للوسط الاجتماعى الذى يتطور داخله. رواية تعنى بالبحث عن الأب مثل رواية الغيطانى هى على النقيض من رواية تسعى الى تدمير نفس هذا الأب: أن تقتله مرة ثانية كما نجد ذلك عند عبد الحق سرهان فى رواية «مسعودة» بعد أكثر من محاولة خجولة لإدريس شارايبى. يمنح الكاتب/الابن إذن فى نوع من الكتابة التنفيسية الفرصة للثأر من الأم بعد وفاتها. يمكن أن تتوفر لدينا نصوص تستدعى كامو، اللامبالاة لوفاة الأم كما فى تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم أو، على العكس، التبلد الكامل للحس تجاه موت الأب. كل الألعاب البنيوية ممكنة. ويكمن هنا شروط إنتاج الملفوظات التى تدفع النص بقوة نحو الأعالى كما أن من الممكن لتنوع الاستجابات أن تدفعه بقوة الى الأسفل. وقد كان يتعين بعد ذلك التساؤل

نحن بصدد رواية سيرة ذاتية وليست رواية لسيرة متخيلة

«ماذا تعنى رواية عربية؟»، من كتاب التجليات لجمال الغيطانى، ٢٠٠٧
Qu'est-ce qu'un roman arabe?
A propos du Livre des
Illuminations, 2007
بحث ألقي في إطار «الدورة الدولية للقاءات والموسيقى الصوفية»
مايو ٢٠٠٨
مراكش - المغرب

ترجمة: أيمن عبد الهادى





عـن التمـاسك الداخـلي لهـذا المنتـج.

نحن بصدد رواية سيرة ذاتية وليست رواية لسيرة متخيلة. هي ليست سيرة متخيلة حتى لو كانت الشخصية الأساسية للحكاية مشتركة مع المؤلف على الأقل في الاسم. في الواقع، نحن لا نبدع تخيلاً لأحداث تقدم كوقائع حقيقية، يتعلق الأمر بما يعرف في الإنجليزية باعتبارد تخيلاً مبنياً على وقائع fact fiction. ليس ثمة وقائع هنا بل استيهامات، توليدات لمتخيل يتعذر تحقيقه في العالم المادي. يتم إذن تغليب اللاوعي في سرد الذات لكن بأهمية أكبر مما يحدث في السيرة التخيلية. هكذا، يمكننا الحديث عن نوع فرعي من رواية السيرة الذاتية التي تتخذ من شخصية حقيقية ومن تاريخها موضوعات في رحلة متخيلة تماماً مستعينة بتقنيات سردية روائية بشكل أساسي وتقنيات أخرى غير روائية بشكل ثانوي. تمنح الأولوية هنا الى العنصر الذاتي وذلك بعد إسقاط الوقائع التي يمكن التحقق منها والتي تمثل كل ما هو سيرة ذاتية. تطغى الحياة النفسية للكاتب على حياته الحقيقية أو التاريخية. ولو كنا منتبهين للشكل العام، فسنجد أنفسنا بإزاء رواية تستوعب كل شيء، من الأشعار المندرجة في النص حتى مقاطع من النصوص الصوفية. إننا بإزاء السلالة البروستية (نسبة الى الفرنسي مارسيل بروست) فيما يخص الكتابة الأصيلة حتى لو كان تماهي الشخصية مع المؤلف أكثر وضوحاً عند الغيطاني. لو كانت التفاصيل فقط هي التي تهمنا ستكون خارج الشكل الروائي.

وهكذا لم تكن الشخصية المركزية بأي وجه من الوجوه فاعلاً. لم تكن شخصية روائية، بالمعنى الغربي لهذا التعبير. لم تكن هي التي تصنع الحياة. توقفاتها، حالاتها. هي بالعكس قد صنعها القدر أو لاوعي المؤلف. هي تحت رحمة، كما في كل رحلة زمنية، أحداث صدفوية تجعلها تقفز بشكل عنيف من عصر لتدخل في عصر آخر. لا تتحكم لا في فضائها ولا في زمانها (...)

في الحقيقة ربما لا يكون هذا النص رواية بالنسبة لمؤلفه الذي ربما استخدمه كعلاج ذاتي. كان إنتاجه بالنسبة إليه بمثابة كتابة وجودية أكثر من كونها بحثاً عن أب استخدم في نهاية الأمر كوسيلة من أجل تحقيق غاية مختلفة تماماً. ستتمثل تلك الغاية بالنسبة له في تجنب ميل للانتحار لحظة إحباط.

(...)

والكاتب، حتى بالتمييز بينه وبين السارد، شخص ثالث: شخصية من خيال أو «كائن من ورق» مكلف بالكلام، يبتعد هو نفسه عن شخصيات جمال المختلفة التي يكتفي برؤيتها. هذا الكاتب هو من حرك السارد والشخوص. وقد فعل ذلك بشكل معقد بما أننا في حضرة حكاية تتعدد حبكتها الداخلية حيث كل شخصية من شخصيات جمال يكون بوسعها الإدلاء برأيها حول نفس المشهد. حكاية ذات حبكة داخلية لأن القارئ والسارد لا يعلمان كل شيء عن الشخصية. يضاف الى ذلك أن القصة تتم حكايتها مرة بواسطة السارد، ومرة أخرى بضمير المتكلم، عبر شخصية أو أخرى من الشخصيات الذين، زد على ذلك، لا يشكلون إلا واحداً وهو السبب وراء التردد بين الحديث بضمير المتكلم والحديث بضمير المخاطب. لن يكون بوسعنا اذن تصنيف هذه الرواية وفقاً لفئات السرد التي يختفي فيها السارد من القصة، أو الى سرد يكون فيه السارد حاضراً وذلك كما وضحها جينيت. هل يمكننا القول أننا إزاء شكل آخر ما يعد حداثي أكثر من العودة الى الحكاية؟

في عمله، يبدو جمال الغيطاني حراً، متخلصاً بوجه خاص من أي أعراف أدبية تخص الطبقات الوسطى. ينجزه من دون محاكاة لعمل آخر، جاد أو هزلي ولا حتى محاكاة ساخرة. قام بإعادة تكييف نماذج سردية قديمة ضمن مشروع شخصي للتصالح مع رموز سابقة سواء كانت نخبوية بشكل صريح أو شعبية في الغالب. لكن مثل تلك الرواية بزويعتها المتعلقة بالهوية وفنها الخاص بالتقطيع الزمني لا يمكن أن توجه لأشخاص معتادين على مشاهدة مسلسلات التليفزيون المصري. لأجل هذا حظيت باهتمامنا. يمكننا أيضاً الإشارة الى أنه لا معنى من وراء عقد أهمية مفرطة للآداب الفرنكفونية في العالم العربي وأن نبالغ، على الأقل في فرنسا، في تقدير الآداب المغربية مقارنة ببقية الآداب العربية. يتعين دون شك اتخاذ تدابير نرغم بها أنفسنا لرؤية ما ظل حتى الآن خفياً مع إمكانية توجيه النصح للطلبة المغاربة من الشباب كي لا يختاروا موضوعات مغاربية (للدراسة).

حاز نجيب محفوظ جائزة نوبل للاداب عام ١٩٨٨. جمال الغيطاني يمكن، بسبب هذه الرواية التي تعد قبل كل شيء عملاً كبيراً، إن لم يكن أثراً، أن يكون مرشحاً مصرياً آخراً لهذا الاعتراف العالمي. ألهذا تعد هذه الرواية عملاً مؤسساً؟ لابد أن تشرع أولاً في التساؤل عن معنى هذا. العمل المؤسس ليس فقط إبداعاً يخلخل القناعات. لابد أن يكون أيضاً، كما قال كوستاريادس، «نافذة على الفوضى»، على الجنون الذي ربما يسكن الفرد والجماعة التي ينتمي إليها على السواء. لابد أن يمثل سبراً للبيم. لكن لابد أن يفعل ذلك أيضاً عبر إبداع عالم آخر حيث تعمل أشكال متماسكة يسمح النظام فيها برؤية ما هو غائب في العالم الذي يعتبر تبعاً للمعتاد عالماً متماسكاً. يعني هذا تحويل الرؤية العادية للكون إلى رؤية فوضوية. يتعين أن يكون الفن هو ما يشوش الرؤية أو السمع ليؤسس علاقات أخرى أكثر عمقاً مع العالم. لو كنا مقتنعين بعقلانية العالم المعاصر أو، على العكس، لو كنا نعتقد في قيمة كل شيء، فليس ثمة أي ضرورة لإنتاج الأعمال الفنية ولا للسعي وراء إبداع أعمال رائعة.

وبما أن هذه الضرورة تظل حاضرة بالنسبة لجمال الغيطاني فإن ذلك يسمح لنا بالقول بأننا إزاء واحد من كبراء كتاب اللغة العربية الأحياء.



إننـــا في حضـــرة سلسلـــة
من حـــــكايات الـــرؤى تعـــد إمتـــــدادا
لنصـــوص الســـــهروردى

قراءات لمفاهيم الأب والغربة والموت

تشرح شخصية جمال في الرواية تألمها لفقدان الأب الذي توفى في القاهرة عام ١٩٨٠ حين كان متواجداً بالخارج. ويشير الكاتب في حوار منشور في جريدة الأهرام في ٣١ أغسطس عام ٢٠٠٥ الى أن تلك الواقعة تنتمي لسيرته الذاتية: «كتبت هذا العمل كمحاولة للتآمر على الموت إثر حالة من حزن عضال امتدت في الفترة من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٦» (...) يعني سؤال البداية إذن في كيفية السيطرة على معاناة تتعلق بموت الأب. بالكتابة تمثلت الإجابة. كتابة استمرت طوال فترة القلق تلك. تتطلب ذلك من المؤلف ستة أعوام من العمل. ستكون هنا أمام نص جديد أنتجته الكآبة. تنطلق هذه الحكاية، على الأقل في أصلها، من تلك المعاناة، على أية حال كبداية، لأن صنعة الموت تلك سريعاً ما تغطي تاريخ مصر كله. سيكون هذا العمل بالتأكيد

وسيلة أفضل لمعرفة هذا الأب وإعلامه بعد وفاته بالحب الذى لم يكن ممكناً التعبير عنه. سيكتب المؤلف إذن سيناريو آخر لكى يُعيد صنع التاريخ. لكى لا يكتفى فقط بالذى جرى: أن يكون بمثابة طريقة فعلية للتخفيف من معاناة نفسية حقيقية. سيتم الاستعانة بوسائل مُتخيلة من أجل الحصول على تأثيرات واقعية.

(...)

على كل حال، ذكر الكاتب فى الندوة التى خُصصت له (لمناقشة الكتاب) فى فبراير ٢٠٠٥ فى القاهرة سبباً آخر مُمكناً للإحباط الدافع لإبداع الرواية: «صُممت ليس فقط بموت أبى الفاجئ لكن أيضاً بنهاية عصر فى مصر. عصر كان يستند إلى قيمة وأهمية المعرفه البشرية. لقد غير عصر الانفتاح الاقتصادى الذى بدأ فى عهد السادات نحو ١٩٧٥ كل هذا، وأصبح تقييم الإنسان مرتبطاً بالمال الذى يمتلكه وليس بمعارفه التى اكتسبها. لهذه الأسباب كتبت الرواية». وفاة، تخص الأب يمكنها إذن أن تُخفى موتاً آخر يتعلق بعصر ينتهى (...) ثمة وعى يتغير، حقيقى أو متخيل، للعصر. ظن جمال انه سيشهد ثورة معيارية. وربما لم يكن تزامن فقدان القيم القديمة مع موت الأب إلا صدفة: أن يحل زمن الرأسماليين محل زمن العلماء (...) تعين على جمال نسيان أحلام الشباب الماوية (الثورية) بشكل نهائى. ربما كان هذا الموت أيضاً وبوجه خاص هو سبب هذا الكتاب، لكنه موت يتعلق بالذات، الأحلام التى فقدت. هوية تتهدم ويتعين إحلالها بأخرى عبر عناصر أخرى. «تجربتى فى الصوفية أنقذتنى من الانتحار فى تلك الفترة». نظن أننا نواجه مسألة تتعلق بموت الآخرين فى حين أننا نكون فى مواجهة مشكلة تتعلق بموتنا الخاص.

رؤية مزدوجة للموت هى التى سيتم التعبير عنها فى هذه الرواية. تأخذ فى البداية على الأقل شكل البورتريه الثرى جداً للأب، طريقة لبعث الحياة فى هذا الأب الراحل. طريقة لعقد علاقة تتجاوز الموت. لكن هذا ليس إلا حجة لأن العلاقة مع هذا الأب سريعاً ما تنتهى (...) نرى إذن أن موت الأب لم يكن هو التجربة الوحيدة للموت.

(...)

إننا فى حضرة سلسلة من حكايات الرؤى تعد إمتداداً لنصوص السهروردى. نحن فى إطار تلقين روحى. روح ترتحل... تلتقى بشخصيات أخرى وهكذا تؤسس معرفة «حقيقية» عن ذاتها عبر تفسير تجارب الرؤى المتتابعة. ستعبر الروح إذن من مكان الى آخر، فى فضاء لا ينتمى الينا، بل يقفز من الحاضر الى عصور أخرى فى زمن لا ينتمى هو أيضاً الى زماننا. وكل تجربة، التى تعد من مزاياها ألا تكون قد اختبرت بعد، تنتج معرفة. إذن ثمة تجارب ممكنة خارج التجارب التى تمنحها الحياة (...) تتواجد الروح بشكل متتابع فى مواجهة مرايا، متعددة، كل منها يمثل فرصة لتعلم شىء ما من جديد. يبقى أن نعرف ما إذا كانت هذه المعرفة تأتى بالفعل من الخارج أم أنها ليست إلا إنعكاساً يأتى من الداخل ثم يعود إليه فى شكل وعى تكميلى يُضاف إلى الوعى السابق (...)

يمكننا أن نُضيف حكايات الرؤى هذه إلى ما كان يُمثل المادة الأولية للروائيين فى الغرب: معرفة التجارب المادية للحياة، محن التعلم، أو أولئك الذين يهتمون بالتحليل النفسى، الأحلام، الزلات أو الأفعال الخاطئة: الذين يكشفون عن نشاط خارج السيطرة للعقل الواعى. لدينا هنا مادة أولية أخرى، أو على الأقل يمكن اعتبارها أخرى بسبب نقص فى التنظير للاوعى. ليس الوعى المسبق أو اللاوعى هو من يولد الاستيهامات، وحتى التصورات المخيلية الخادعة. لكنه الوعى الذى يتلقى حكايات الرؤى والذى يعطيها معنى عبر تنظيمها فى إطار التحليل الإنسانى المستخدم فى الغرب.

تخرج الروح من ذاتها لكنها تحتفظ بوحدتها. ستذهب إلى ما هو خارج عن المألوف بالابتعاد عن هويتها، وهو ما يُسمى الغربة أو النفى.

سيكون المنفى الوسيلة التى ستنتج سلسلة معتبرة من الحكايات المعتمدة على الرؤى. لكن النفى سيستخدم أيضاً كأداة لا غنى عنها حتى يصبح الموضوع تعدداً فى المنطوقات (...) سيصبح الموضوع إذن على مدار ارتحاله موضوعاً متجاوزاً للفرد. سيصبح أيضاً موضوع - لا واعى يكتسب معرفته بذاته من خلال الآخرين - سيكتشف هكذا ما أسماه كوربان عالم المثال، ليس صوراً بل تجارب تعتمد على الرؤى التى تتحقق فى الملكوت أو عالم الأرواح. ※

١ - أوراق شاب عاش منذ ألف عام (مجموعة قصصية)
١٩٦٩ - نفقة المؤلف

※

٢ - أرض.. أرض (مجموعة قصصية)
١٩٧٢ القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب

※

٣ - الزويل (رواية)
١٩٧٤ بغداد - وزارة الإعلام

※

٤ - الزينى بركات (رواية)
١٩٧٤ دمشق - وزارة الثقافة

※

٥ - وقائع حارة الزعفرانى (رواية)
١٩٧٦ القاهرة - دار الثقافة الجديدة

※

٦ - الحصار من ثلاث جهات (مجموعة قصصية)
١٩٧٥ دمشق - اتحاد الكتاب العرب

※

٨ - ذكر ما جرى (مجموعة قصصية)
الطبعة الأولى ١٩٧٨ القاهرة - مكتبة مدبولى

※

٩ - الرفاعى (رواية)
١٩٧٨ القاهرة - الهيئة العامة للكتاب

※

١٠ - خطط الغيطانى (رواية)
الطبعة الأولى ١٩٧٨ بيروت - دار المسيرة

※

١٢ - إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان (مجموعة قصصية)
١٩٨٥ القاهرة - دار المستقبل العربى

※

١٣ - رسالة فى الصبابة والوجد (رواية)
١٩٨٧ القاهرة - روايات الهلال

※

١٤ - دفتر العشق والغربة
١٩٨٨ - هيئة الكتاب

※

١٤ - رسالة البصائر فى المصائر (رواية)
١٩٨٨ القاهرة - روايات الهلال

※

١٥ - شطح المدينة (رواية)
١٩٩٠ القاهرة - روايات الهلال

※

١٦ - هاتف المغيب (رواية)
الطبعة الأولى ١٩٩٢ القاهرة - روايات الهلال

※

١٧ - ثمار الوقت (مجموعة قصصية)
الطبعة الأولى ١٩٨٩ القاهرة - كتاب اليوم

※

١٨ - منتصف ليل الغربة (مختارات قصصية)
١٩٨٤ - الهيئة المصرية للكتاب

※

١٩ - أحراش المدينة (مختارات قصصية)
١٩٨٥ القاهرة - مؤسسة أخبار اليوم - كتاب اليوم

※

٢٠ - نفثة مصدور
١٩٩٣ سعاد الصباح

※

٢١ - شطف النار (مجموعة قصصية)
١٩٩٦ القاهرة - هيئة قصور الثقافة

※

٢٢ - مطربة الغروب (مجموعة قصصية)
١٩٩٦ القاهرة - دار الحضارة العربية

※

٢٣ - سفر البنيان (رواية)
١٩٩٧ القاهرة - روايات الهلال

※

٢٤ - مقاربة الأبد (نصوص قصصية)
١٩٩٧ - نهضة مصر

※

٢٥ - حكايات المؤسسة (رواية)
١٩٩٧ القاهرة - دار الشروق

※

٢٦ - خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)
١٩٩٨ القاهرة - دار شرقيات

※

٢٧ - دنا فتدلى (دفتر التدوين الثانى)
الطبعة الأولى ١٩٩٩ القاهرة - دار الحضارة العربية

※

٢٨ - متون الأهرام (مجموعة قصصية)
١٩٩٤ القاهرة - دار شرقيات

※

٢٩ - حكايات الخبيئة (مجموعة قصصية)
٢٠٠٢ القاهرة - دار الشروق

※

٣٠ - رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث)
٢٠٠٢ القاهرة - دار الشروق

※

٣١ - نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع)
٢٠٠٤ القاهرة - دار الشروق

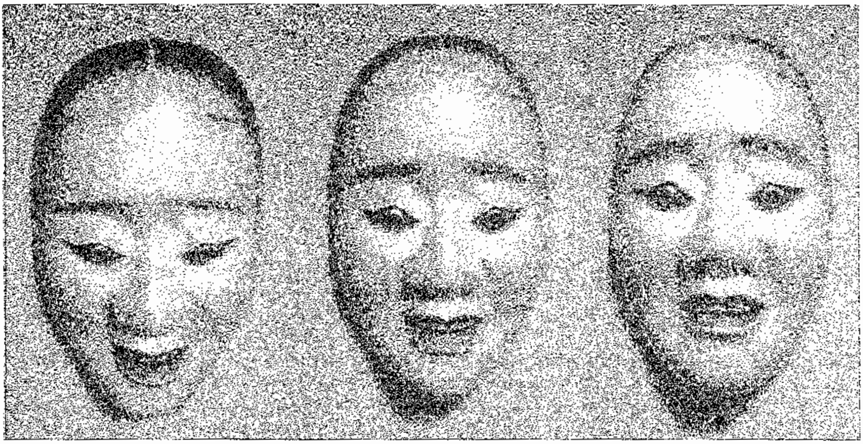
※

٣٢ - نثار المحو (دفتر التدوين الخامس)
٢٠٠٥ القاهرة - دار الشروق

※

٣٣ - رن (دفتر التدوين السادس)
٢٠٠٨ القاهرة - دار الشروق

※



ثلاث صور لقناع واحد تبين كيف يتغير تعبيرات الوجه بتحريك الرأس إلى أعلى وأسفل

فنون يابانية



وليد محمود عبد الناصر

يتسم الشعب الياباني بخاصية تميزه عن غالبية شعوب الأرض الأخرى، وأعني هنا هذا العشق المتناهي واللا محدود للفنون، وهذا التذوق رفيع الحس لكافة تنويعاتها. يصدق هذا على الفنون التقليدية والحديثة على حد سواء، كما يصدق على الصغار والكبار، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، أهل الريف وسكان الحضر. ويقول البعض إن هذا الولع بالفنون ناتج عن كون اليابانيين ينتمون إلى حضارة عريقة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وبالتالي فهم، مثل المصريين، لديهم تراكم تاريخي من إتقان الفنون أداء ومتابعة ومشاهدة وتفاعل، والانجذاب إليها والإحساس بها والتوحد معها في تجربة شعورية متكاملة واندماج عاطفي نشيط.

سنكتفي هنا بثلاثة أمثلة على سبيل المثال لا الحصر لفنون يابانية أجادها اليابانيون عبر التاريخ. أولها فن تقليدي ياباني هو مسرح «النوه»، أو فن الأقنعة، أما الفنان الآخران فهما معاصران وهما السينما والموسيقى الحديثة.

أولاً: مسرح «النوه» الياباني وجدل العلاقة بين المطلق والمعاش:

يتميز الشعب الياباني بقدرته على الحفاظ على موروث ثقافي وفني ثرى ومتنوع في آن واحد. حافظ اليابانيون على هذا الموروث، بل وطوروه وسعوا للترويج له في بقية أنحاء العالم عبر تطبيق عملى لمفهوم «دبلوماسية الثقافة». وذلك بالرغم من جهودهم التحديثية التي بدأت في القرن التاسع عشر، وأيضاً بالرغم من الحديث عن تعرضهم لرياح التغريب بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويضم هذا الموروث الثقافي نطاقاً متنوعاً من الأنشطة والفنون، من بينها «فن الأقنعة»، نظراً لأن المؤدين الرئيسيين فيه يرتدون أقنعة تمثل وجود الشخصيات التي من المفترض أنهم يؤدونها مع تواجد أعضاء فرقة العزف الموسيقي بالآلات التقليدية المصاحبة للعرض وبعض المؤدين الفرعيين بدون أقنعة، وهو فن يطلق اليابانيون عليه أيضاً تعبير مسرح «النوه».

وقد جاء هذا الفن أصلاً إلى اليابان قادماً من الصين في القرن الرابع عشر الميلادي، وجاء ملتصقاً بشكل واضح بالديانة البوذية، التي جاءت بدورها أيضاً من الصين ضمن دول أخرى وردت البوذية إلى اليابان منها: مثل كوريا والهند ومنغوليا وأفغانستان. وبالرغم من هذه الأصول البوذية لمسرح «النوه»، فإنه سرعان ما اختلط في اليابان بالديانة الأصلية لليابانيين، ألا وهي الشينتوية، بحيث أصبح يخلط في موضوعاته بين المعابد البوذية والأضرحة الشينتوية وبين الحديث عن حكمة بوذا وتعاليمه وتماثيله من جهة وبين «آلهة» و«أرواح» الديانة الشينتوية من جهة أخرى. وتميز فن «النوه» منذ البداية حتى الآن بعدم لعب النساء أي دور فيه، اللهم إلا العزف الموسيقي في الخلفية ضمن الجوقة الموسيقية المصاحبة للعرض والمتواجدة عادة في خلفية خشبة المسرح أو أحد جانبيها. ولا يعني هذا عدم وجود شخصيات نسائية في العرض ذاته، ولكن يؤدي أدوار هذه الشخصيات النسائية رجال يرتدون أقنعة نسائية بحسب طبيعة وخصائص الشخصية المطلوب أداء دورها.

ويقترب هذا الفن من جهة من فن الأوبرا أكثر من اقترابه من فن المسرح التقليدي، وذلك نظراً لأن مسرح «النوه» يوظف خليطاً متناغماً من الموسيقى والغناء والرقص هادئ الخطوات، ولكنه راسخها، مع اللجوء أيضاً على فترات إلى الحوار الذي يتراوح بين الحوار المسرحي التقليدي والحوار الأوبرالي. إلا أنه بالمقابل، وعلى الصعيد الموضوعي، فبينما ترتبط فصول الأوبرا ببعضها البعض بوحدة الموضوع، فإن مسرح «النوه» يقدم في كل فصل من فصوله قصة مختلفة غير ذات صلة بالقصتين أو أكثر اللتين يتم تناولها في بقية فصول نفس العرض، كما يتصف الأداء على خشبة مسرح «النوه» بخصوصية أخرى هي أن خطوات المؤدين على الأرض يفترض أنها تعكس انطلاق أصوات الرعد في السماء، وهو أمر يعود مرة أخرى، في جزء منه على الأقل، إلى الطابع الديني الأصلي لفن «النوه»، كما أن عدد هذه الخطوات تعتبر ذات دلالة في سياق العمل الفني المقدم على المسرح.

كذلك يصف المتخصصون في فن «النوه» بداية العمل المعروض بأنه يتسم بالرتابة وطول المقدمة والتمهيد مما يصيب أحياناً بعض المشاهدين بقدر من الملل قبل أن يصبح العرض جاذباً للانتباه والتشويق.

وتتعدد الموضوعات التي تتناولها عروض فن «النوه» المسرحي، فهناك بالطبع الموضوعات ذات الطابع الديني، وهو أمر مفهوم في ضوء المنشأ الديني لهذا الفن أصلاً، ولكن حتى عندما تتناول العروض موضوعات دينية، فإنها تربطه في الغالب بموضوعات دنيوية، وقليلاً ما تقيد الموضوعات في حدود المطلق المنفصل الصلة عن الواقع المعاش. ومن أمثلة المزج بين الديني والمعاش، إبراز أن تجول رجال الدين - سواء بوذيين أو شينتويين (وهما الديانتان الرئيسيتان في اليابان) - في أنحاء اليابان لا يأتي فقط بغرض زيارة معابد بوذية أو أضرحة شينتوية في مدن أو قرى أخرى في مناطق مختلفة من اليابان، وإنما باعتبارها جزءاً من رحلة رجال الدين هؤلاء للبحث عن الحكمة والتطلع للمزيد من المعرفة، بالإضافة إلى التعرف على عادات وتقاليد دينية، ولكن أيضاً ثقافية واجتماعية، لسكان أقاليم من اليابان غير الإقليم الذي أتى منه أصلاً رجل الدين الذي يقوم بالتجول. وهنالك أيضاً هدف الاطلاع على حقائق جغرافية واقتصادية في بقية أنحاء البلاد، مثل ملامح الأنشطة التي تجرى على

يضم الموروث الثقافي الياباني نطاقاً متنوعاً من الأنشطة والفنون، من بينها «فن الأقنعة»

ضفاف الأنهار، أو بين سكان المناطق الجبلية. ونجد في هذا السياق في بعض النصوص وصفاً فنياً راقياً لمدى سرعة تدفق المياه في مجاري الأنهار ولتحول المياه من مجرى جارف إلى قطرات متفرقة ومشهد ذوبان الجليد على قمم الجبال ثم تدفق المياه عبر السفوح لتصب في مجاري الأنهار وتعبر شكل الشلالات. وكذلك نتعرف على دور الرجال والنساء والشباب وكبار السن في تلك الأنشطة التي تجري في البلدات الأخرى.

ولكن بالإضافة إلى الموضوعات ذات البعد الديني، فهناك حزمة أخرى من القضايا التي يتناولها مسرح «النوه»، من بينها القصص التاريخية القديمة من تاريخ اليابان، وهناك أيضاً قصص الحب الرومانسية الخالدة في اليابان، خاصة أن اليابانيين يعتزون بأن أقدم قصة حب شهيرة في تاريخ آسيا - على وزن قصة «روميو وجولييت» الشهيرة في الذاكرة التاريخية الغربية والعالمية - جاءت من اليابان وليس من الصين، بل وقبل أهم قصة حب في تاريخ الصين بفترة تمتد من حوالي قرنين إلى ثلاثة قرون. وبجانب قصص التاريخ والحب فهناك موضوعات تعالجها وتقدمها عروض «النوه» مستوحاة من قصص خيالية أقرب للروايات وليس لها أساس تاريخي أو ديني. ومن الموضوعات التي يتم تناولها في هذا النوع من المسرح هي تلك ذات الطابع الكوميدي، وهي بدورها غير مقطوعة الصلة بما سبق، أي أنها يمكن أن تكون كوميدية مستوحاة من وقائع تاريخية، أو من وحي قصص خيالية، بل قد تكون ذات صلة بموضوعات دينية. وأخيراً هناك موضوعات تتصل بالعلوم وكذلك بالرياضات القتالية، وهي موضوعات هامة في المجتمع، بحسب اليابانيين، منذ آلاف السنين.

وسنعرض هنا لثلاثة موضوعات كنماذج لما يتم تناوله من قصص في عروض مسرح «النوه». أما النموذج الأول فيتعلق برحلة كاهن شينتوي ترك الضريح الشينتوي الذي يعمل ويتعبد به ليتوجه في رحلة طويلة ومرهقة أملاً في الوصول إلى ضريح شينتوي آخر بعيداً عن موقعه الأصلي يزوره لأول مرة للتعبد فيه. وتستهدف الرحلة البحث عن الحكمة، وهو مسعى نجده مشتركاً لدى مختلف الأديان ولدى رجال الدين على تعدد انتماءاتهم وأزمنتهم. ويصطحب رجل الدين الشينتوي معه في رحلته اثنين من مريديه وتلاميذه ممن يتطلعون إلى التعلم منه. ويشرح الكاهن الشينتوي لتابعيه كيف أن التضرع إلى الله يفترض وجود نية صادقة لدى الداعي ويقيناً بأن الله قادر على إزالة الشرور من العالم وجعل الأمور على الأرض تسير وفق المعايير السليمة والحقة. وعندما يصل رجل الدين الشينتوي إلى منتهى رحلته، فإنه يعرب عن سعادته بالوصول وزيارة الضريح الشينتوي المقصود بالرحلة، كما يبدي إعجابه بما وجده من مظاهر احتفالات على ضفاف النهر في البلدة التي يوجد بها هذا الضريح، ولكنه أيضاً يستفسر عن مغزى ارتداء النساء للون الأبيض على ضفاف النهر وعما إذا كان لهذا الأمر مدلولات دينية يهمه التعرف عليها والاستفادة منها. وعلى الجانب الآخر فإن كهنة الضريح المقصود بالزيارة يبدون سعادتهم بزيارة الكاهن وتابعيه لضريحهم ويعتبرون ذلك الأمر مصدر فخر لهم. ويبدأون في الرد على أسئلة الكاهن الزائر ليس فقط من خلال سرد المسائل الدينية، بل اختلاطها بخصائص جغرافية واقتصادية للمنطقة التي يوجد بها الضريح والملامح المميزة لسكانها وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنشطتهم الاقتصادية. ولا تقتصر الردود على إجابات الكاهن الزائر على كهنة الضريح والمعتنين به، بل تظهر «الأرواح» و«الآلهة» الشينتوية ترتدي الأقنعة المختلفة الدالة على ما يجسده كل منها في العقيدة الشينتوية، وتبدأ بدورها في التفاعل مع الكاهن الزائر ومريديه. وبالتالي نجد بوضوح في هذه القصة أنه بالرغم من أساسها الديني، فإن الأبعاد الدنيوية تتداخل بالبعد الديني، ويختلط المقدس بالدنيوي، حيث نرى خلال العرض ظهوراً لبعض «الآلهة» أو «الأرواح» بحسب المعتقدات الشينتوية.

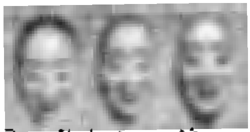
أما النموذج الثاني فيتناول موضوعاً كوميدياً، ولكنه ليس منقطع الصلة بالدين، ولكن هذه المرة يتعلق بالديانة البوذية وليس بالشينتوية. وتكمن القصة هنا في شخص قروي، محدود الخبرة، لم يغادر قريته من قبل، مؤمن بالبوذية عن صدق واقتناع راسخ، إلى درجة أنه قام ببناء معبد بوذي في قريته، ولكن يلزمه تماثيل لوضعها في المعبد، ولم يجد في قريته أو القرى المحيطة نحاتاً قادراً على نحت تمثالاً كبيراً لبوذا أو لحراس المعبد، الأمر الذي دفعه إلى التوجه إلى المدينة بحثاً عن ضالته. ويلتقي هناك بشخص «محتال» يوهمه أنه نحات متخصص في تماثيل «بوذا» وحراس المعابد، ويطلب منه سداد قيمة التماثيل مقدماً حتى يتسنى له تسليمه التماثيل المطلوبة. ويوهمه أنه يستطيع تسليمه التماثيل في اليوم التالي مباشرة(!) ويذهب إلى حد تخيير القروي بين أوضاع مختلفة لبوذا لاختيار ما يفضله منها بحيث يجسده النحات في التمثال الذي سينحته. ويصدق القروي ما تقدم، ليعود في اليوم التالي ليكتشف بشكل تدريجي ما تعرض له من خديعة على يد المحتال، وتنتابه الصدمة للحظات من جراء ذلك ولكنه لا يلبث أن يمسك بالمحتال الذي ادعى أنه نحات ويشبعه ضرباً انتقاماً منه. وهكذا نرى في هذه القصة الاحتيال باسم الدين، وهو أمر ليس مقصوراً على البوذية بل موجود في كل الأديان، سواء كان هذا الاحتيال لأغراض الكسب المادي أو لتحقيق زعامة سياسية أو سيطرة فكرية أو ثقافية على عقول البشر. كما نجد في القصة أيضاً رؤية للعلاقة بين الحضر والريف وسكان كل منهما وخصائصهم، مع انتقاد ضمني للاحتيال من جانب وللبراءة المبالغ فيها التي تقترب الى حد السذاجة في بعض الأحيان من جانب آخر.

وثالث النماذج التي نعرض لها هنا في إطار تصفح قصص تقدم ضمن انتاج مسرح «النوه» الياباني، هو قصة حب قديمة دارت في إطار العائلة الامبراطورية اليابانية في زمن بعيد سابق، حيث نشهد معاناة سيدة تنتمي إلى الأرستقراطية وتتصف بالجمال والأناقة والشباب، ولكنها عانت من هجر حبيبها. ويجيء إليها الناس ليستمعوا الى قصتها. وكلما روت للمستمعين قصة حبها وما تعرضت له من جفاء الحبيب وتآمر امرأة أخرى تنافسها على حب نفس الرجل، ساءت حالتها المعنوية والنفسية أكثر. ويسعى أحد الكهنة الشينتويين الى علاج المرأة باعتبار أنه وصف حالتها بأن المرأة التي تنافسها قامت بإعداد «سحر» أو «عمل» لها جعلها مسكونة بالارواح الشريرة. وبغرض القضاء على مفعول هذا «العمل» يطلب الكاهن مجيء كاهن آخر متخصص في إخراج الأرواح الشريرة من أجساد البشر. ويقوم هذا الكاهن الآخر بدوره باستدعاء الأرواح الخيرة والآلهة لإخراج الأرواح الشريرة من داخل السيدة. ونجد على خشبة المسرح السيدة الارستقراطية وبداخلها الارواح الشريرة لا تزال تتصرف بنعومة ورقي وذوق بالرغم من الشيطان الذي بداخلها، وتبرير ذلك في القصة أن «الارواح الشريرة» من الذكاء بحيث تقلد الطريقة المعتادة لتصرف وحديث السيدة الأرستقراطية في الظروف العادية حتى لا تثير الشكوك حول وجودها بداخل السيدة. وهنا، وللمرة الثالثة، نرى التداخل في المعالجة الدرامية بين الديني والعاطفي والإنساني والتاريخي والطبقي. كما نتعرف على الدسائس داخل الطبقة الأرستقراطية وفيما بين أفرادها، بما فيها العائلة الامبراطورية ذاتها، خلال حقبة هامة سابقة من تاريخ اليابان.

وبالطبع نرى في العديد من قصص «النوه» التداخل مع الواقع السياسي أيضاً، ويعود ذلك أولا للعلاقة بين الدين والسياسة في اليابان القديمة، حيث كان ينظر إلى الامبراطور باعتباره ذا طبيعة إلهية، وإلى رعاية الامبراطور للدين والحفاظ عليه وحمايته من التهديدات المحيطة به. أما السبب الثاني فهو السعي لاستخدام الدين من جانب البعض للدفاع عن الامبراطور، ثم السبب الثالث وهو اعتبار العائلة الامبراطورية رمزاً للارستقراطية بما يعنيه ذلك من السعي لتقليد طريقة تحدث وسلوك هذه العائلة رجالاً ونساء باعتبار ذلك منتهى الرقي. ولكن على الجانب الآخر، يبحث مسرح «النوه» في المؤامرات التي تحاك داخل العائلة الامبراطورية والضغائن الموجودة بين أفرادها.

يظهر تأثير التفاعل مع الأديان والثقافات الأخرى واضحاً بالنسبة لمسرح «النوه»

ويظهر تأثير التفاعل مع الأديان والثقافات الأخرى واضحاً بالنسبة لمسرح «النوه» عندما نرى نصاً يعرض يتناول حالة امرأة انطلق سهم مجهول المصدر على برميل المياه الخاص بها فانتزعته ووضعته فوق سقف منزلها، فإذا بالمرأة تحمل جنيناً في أحشائها بالرغم من عدم وجود علاقة بينها وبين رجل تؤدي بها إلى هذا الحمل. وأنجبت هذه المرأة طفلاً ذكراً. وعندما بلغ ابنها سن الثالثة سئل «من هو أبوك؟» فأشار إلى السهم. وفسر الناس ذلك بأن هذا الولد هو «ابن الإله» باعتبار أن هذا السهم المجهول المصدر جاء من عند «الإله». ومن ثم اكتسبت الام أيضاً نوعاً من القداسة واعتبرها البعض «إلهة». وهنا يبدو جلياً تأثير العقائد المسيحية، مع بعض الاختلافات بالطبع، علماً بأن هذه القصة اليابانية تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي. كما أننا في أحد عروض «النوه» تجد امرأة تعظ الآخرين بأن المسح من مياه النهر الذي يمر بالقرية على جبهة



فنـــون يابانيــة

الإنسان يؤدى إلى تطهير القلب، وهى قناعة نراها أيضاً فى عدد آخر من العقائد الدينية المعروفة.

وخلال مختلف عروض فن «النوه»، فإننا نلحظ ولا نخطيء اعتزاز الشعب اليابانى بجذوره التاريخية وإسهامه الحضارى وحسه الثقافى والفنى المرهف، والجمع بين ذلك وبين السعى للامتاع والاتقان التقنى للعمل من جميع جوانبه.

ويبقى أن نقول أن مسرح «النوه» تم تقديمه فى مصر عام ٢٠٠١، وتحديداً أمام تمثال ابو الهول بمنطقة الأهرامات بمحافظة الجيزة. وقد جسد ذلك أن كلاً من فن «النوه» التقليدى وأبو الهول ينتميان إلى الإرث الإنسانى العالمى المشترك. وتم تقديم هذا العرض ذى الجذور الحضارية والتاريخية التى تعود إلى أكثر من سبعة قرون أمام أبو الهول الذى يمثل إحدى أقدم وأعرق الحضارات الإنسانية وأكثرها إسهاماً فى إثراء البشرية وتقدمها والتى تعود بجذورها إلى أكثر من سبعة آلاف سنة، ألا وهى الحضارة الفرعونية المصرية القديمة.

ثانياً: السينما اليابانية

وننتقل الآن إلى فن حديث ومعاصر، وأقصد الفن السابع، أو فن السينما. حيث احتفل مهرجان طوكيو السينمائى الدولى بمرور عشرين عاماً على انطلاقه فى أكتوبر ٢٠٠٧. وتزامن ذلك مع تقدم الوضعية الدولية والإقليمية لهذا المهرجان. فقد أضحى مهرجان طوكيو أكبر مهرجان سينمائى فى آسيا. كما إنه بات يصنف كواحد من أهم مهرجانات السينما فى العالم فى مصاف مهرجانات كان وفينيسيا وبرلين وغيرها من كبريات مهرجانات السينما العالمية. وبهذه المناسبة شهد المهرجان فى دورته العشرين، بالإضافة إلى الدورة المعتادة لمسابقة الجوائز لأفلام من مختلف أنحاء العالم، مهرجانات متنوعة فرعية اختلفت فى كيفية التناول من حالة لأخرى.

وقد شهد مهرجان طوكيو السينمائى الدولى تطويراً كبيراً على صعيد زيادة عدد النجوم اليابانيين والعالميين المشاركين فيه بالإضافة إلى التنوع الكبير للأفلام المعروضة من خلاله حيث شملت كلاً من الأفلام الروائية القصيرة والطويلة والتسجيلية وكذلك الأفلام الكارتونية المصورة (المانجا/ Animation) والتى تتمتع بشعبية كبيرة فى اليابان، سواء بين الكبار او الصغار على حد سواء، وكذلك غيرها من الأفلام.

وفى إطار المسابقة الرسمية تم عرض خمسة عشر فيلماً. نذكر منهم تحديداً فيلمين من الانتاج المشترك فيهما طرف غير عربى من الشرق الأوسط. وهما فيلم إسرائيلى فرنسى مشترك؛ وآخر إيرانى يابانى مشترك. وهو أمر يدعو السينما المصرية للعودة عن جديد للاستفادة القصوى من فرص وإمكانيات الانتاج المشترك وما يتيحه من مزايا وفوائد تمويلية وفنية وتجارية وجماهيرية، دونما مشروطيات ذات طابع قيمى.

وضمن المهرجانات الفرعية كان هناك مهرجان للأفلام ذات الإنتاج اليابانى الصينى المشترك: عرض لتطور هذا الإنتاج المشترك، سواء مع الصين ككل او مع هونج كونج. كما سمح بتحليل تطور هذا الإنتاج المشترك من حيث عوامل الإنتاج وأدواته المختلفة، ومساهمة كل جانب فى هذا الانتاج المشترك وطبيعته وعناصره، وذلك بحسب تميز كل من الدولتين فى المجالات المختلفة.

كما كان هناك مهرجان فرعى ثانى قدم رؤية بانورامية لتطور السينما اليابانية، والتى شهدت بدورها طفرة للامام خلال العقود الماضية، وفى العقد الأخير على وجه الخصوص، سواء من حيث الموضوعات التى يتم تناولها أو القدرات الفنية أو الإمكانيات المادية أو النجوم من الممثلين والمخرجين وغيرهم.

كما تم تنظيم مهرجان فرعى ثالث للافلام التى تناولت العاصمة اليابانية طوكيو. وكان الهدف من هذا المهرجان الفرعى الثالث هو رصد التطور الحضرى والجمالى والإيكولوجى والمجتمعى بمدينة طوكيو، بما فى ذلك تطور انماط العلاقات الأسرية والاجتماعية، وطبيعة الأنشطة الاقتصادية من إنتاجية وخدمية، بالإضافة إلى احتفالات العاصمة وأهلها.

أما المهرجان الفرعى الرابع والأخير الذى أقيم على هامش فعاليات مهرجان طوكيو السينمائى الدولى العشرين، فكان مخصصاً لسينما آسيا والشرق الأوسط وهو الذى شاركت مصر من خلاله بفيلمى «أحلى الأوقات» و«قص ولصق» وكلاهما من إخراج الفنانة المبدعة هالة خليل. كما دعا المهرجان المخرجة للحضور كأحد ضيوف شرف المهرجان. هذا، وقد ساهمت إدارة المهرجان فى تعريف المشاهد اليابانى بالسينما المصرية الراهنة، بل وبمجمل تطور الفنون والثقافة والمجتمع فى مصر المعاصرة بشكل عام، وذلك عبر ترجمة الفيلمين إلى اللغة اليابانية. وكانت آخر مشاركة لأفلام مصرية فى مهرجان طوكيو السينمائى الدولى عام ١٩٩٨ بمشاركة فيلم «المصير» من إخراج الفنان الكبير يوسف شاهين، وبحضور المخرج يوسف شاهين نفسه وإلى جانبه كل من نجمى الفيلم الفنانين هانى سلامة ومحمد منير. وعاد المهرجان فى دورته الحادية والعشرين فى أكتوبر ٢٠٠٨ ليعرض فيلم «باب الحديد» من إخراج الفنان يوسف شاهين بمناسبة رحيله، وكان لى شرف تقديم الفيلم والتعليق عليه وعلى أهميته، سواء فى سياق سينما يوسف شاهين أو فى اطار مجمل نمط تطور السينما المصرية.

والشىء بالشىء يذكر، فهناك إنتاجان سينمائيان مشتركان بين مصر واليابان هما فيلم «عاصفة الغرب» بطولة الفنانة الكبيرة «شادية»، وبعده بسنوات طويلة فيلم «النيل» بطولة الفنانة «رانيا يوسف»، والذى شارك فى بطولته عالم المصريات اليابانى الشهير «يوشيموراء، والذى مثلت ابنته «كنان» بدورها فى عدة أعمال درامية مصرية فى السنوات الأخيرة.

ولا شك أن المشاركة المصرية فى المهرجان والفعاليات الثقافية والفنية المرتبطة به وتلك التى أقيمت على هامشه بعد طول انقطاع قد أسهمت فى تحقيق مزيد من التواصل بين النخب الثقافية والفنية على تعددها وتنوعها فى المجتمعين المصرى واليابانى، كما أنها قدمت صورة عن المجتمع المصرى المعاصر بما يعمل على زيادة وعى المجتمع اليابانى بما يجرى فيه، وبما يتجاوز ويضيف إلى حالة الولع اليابانى بمصر الفرعونية، وهو ولع يستطيع المرء بسهولة تبينه من خلال ما تقدمه وسائل الإعلام اليابانية من برامج وأفلام وثائقية وتسجيلية عن الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها وآثارها.

كما كانت مصر حاضرة بشكل غير مباشر فى الجائزة النهائية للمسابقة الرسمية حيث ان الفيلم الفائز كان من انتاج فرنسى إسرائيلى مشترك بعنوان «زيارة الفرقة الموسيقية»، وهو من إنتاج عام ٢٠٠٧ من تأليف وإخراج المخرج الإسرائيلى «إيران كوليرين» (٣٤ سنة) ويصنف على أنه يجمع بين الكوميديا والدراما، ويتناول الفيلم قصة خيالية عن زيارة فرقة موسيقية مصرية إلى إسرائيل لتقديم عروض موسيقية هناك إلا أنها تضل الطريق فى الصحراء بعدما لا تجد أحداً فى استقبالها بالمطار، ويلتقى أعضاء الفرقة مع سكان قرية منعزلة عن العمران وتتصاعد الأحداث بين الجانبين، ويدور معظم الحوار فى الفيلم إما باللهجة المصرية للغة العربية أو باللغة الانجليزية. ومن الجدير بالذكر ان الفيلم سبق له الفوز بعدة جوائز فى عدد من المهرجانات الدولية آخرها مهرجان كان السينمائى فى مايو ٢٠٠٧، وأشار المخرج الإسرائيلى للفيلم فى تصريحات له للصحافة ووسائل الإعلام اليابانية أن فكرة هذا الفيلم جاءت نتيجة تأثر بمشاهدة العديد من الأفلام المصرية خلال حقبة الثمانينيات من القرن العشرين.

ولم يقتصر التفاعل اليابانى المصرى على الصعيد السينمائى على الدورة العشرين لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى، حيث انه ضمن أنشطة المؤتمر اليابانى العربى الموسع الذى استضافته مكتبة الاسكندرية فى نوفمبر ٢٠٠٧، كان قد تم الاتفاق على عرض فيلم روائى سينمائى يابانى وآخر مصرى. وبالفعل تم عرض فيلم «ساموراى الغروب» للمخرج اليابانى الشهير «يامادا» وبحضور المخرج ذاته، كما عرض معه فيلم «المومياء» للراحل الكبير شادى عبد السلام. ويعتبر فيلم «ساموراى الغروب» هو الرد اليابانى على فيلم هوليوود الشهير «الساموراى الأخير» الذى قام ببطولته النجم السينمائى «توم كروز»، حيث يقدم الرؤية السينمائية اليابانية المعاصرة، ذات الجذور فى التقاليد اليابانية، مقابل الرؤية السينمائية الغربية، خاصة الأمريكية، لهذه الفئة الهامة والمؤثرة فى تاريخ اليابان. وكان فيلم «المومياء» هو أفضل مقابل للفيلم اليابانى المعروض لأنه قدم بدوره رؤية مصرية معاصرة، ولكنها أصيلة، للتفاعل داخل المجتمع المصرى مع الآثار الفرعونية وحقيقة الارتباط بين الحقبة الفرعونية بمعطياتها الحضارية وبين المواطن المصرى الحديث والمعاصر.

خلال مختلف عروض فن «النوه»، فإننا نلحظ اعتزاز الشعب اليابانى بجذوره التاريخية وإسهامه الحضارى



فنـــــون يابانيـــة

ثالثاً ـ عاطف حليم

الفنان عاطف حليم فنان مصرى أصيل ولد فى مدينة الاسكندرية لأب مصرى وأم فرنسية وعشق الموسيقى منذ نعومة أظافره، وتطلع إلى أن تكون هوايته وعمله وحياته كلها، ولكنه رأى أن طموحه فى تعلم وإجادة واحتراف العزف الموسيقى - خاصة الكمان - لا تلبية الإمكانيات الموجودة فى الثغر السكندري، بل وفى مصر بأسرها. واستمر يتشبث بهذا الأمل الحلم، وعندما بلغ من الثالثة عشرة كان قد نجح فى جمع قيمة تذكرة السفر إلى فرنسا عن طريق البحر، وتحديداً لشراء أرخص التذاكر وأقلها قيمة، وهو ما مكنه من أن يحظى بغرفة شديدة التواضع على متن إحدى السفن المتجهة من الاسكندرية إلى أحد الموانئ الفرنسية.

وخلال هذه الرحلة البحرية فوجئ قبطان السفينة بأن عاطف حليم ابن الثلاثة عشر ربيعاً يسافر على السفينة بمفرده ودون أن يكون مصاحباً لشخص آخر بالغ مسافر على نفس الرحلة. ويسأل القبطان الفتى لماذا يغامر ويسافر وحده إلى فرنسا؟ وكان رد الفتى بسيطاً وواضحاً وقاطعاً فى نفس الوقت: بأنه يجيد العزف على الكمان ولكنه يأمل فى أن يصل فى عزف هذه الآلة إلى القمة، وأنه يعتبر أن فرنسا هى بوابته لتحقيق هذه الغاية. ويدخله القبطان فى تحدى؛ ويعرض عليه أن يقدم عزفاً منفرداً فى قاعة الطعام والحفلات على سطح السفينة، وفى حالة إذا ما حاز على إعجاب المشاهدين ينقله إلى إحدى افخر الغرف دون أن يطلب منه دفع الفارق. وبالفعل، أدى عاطف حليم العزف وكان محل تقدير الحاضرين. ومن جانبه وفى القبطان بوعده ونقل عاطف حليم إلى واحدة من أفخر الغرف على سطح السفينة حتى وصلوا إلى فرنسا.

وفى مطلع عقد التسعينيات من الألفية المنصرمة انتقل الفنان عاطف حليم للإقامة والاستقرار فى اليابان إثر تزوجه بواحدة من أشهر مقدمات البرامج التليفزيونية باليابان، وهى نفسها التى تحولت بعد ذلك إلى منتج تنفيذى للفنان تتولى الاتفاق على الحفلات التى يقدمها والترويج الإعلامى له والعلاقات العامة اللازمة لانتشاره الفنى وما إلى ذلك من أنشطة مرتبطة ببزوغ نجم عاطف حليم فى سماء العاصمة اليابانية طوكيو ثم اليابان بأكملها. ويقر اليابانيون المقربون من الفنان عاطف حليم واسرته والذين عرفوه منذ وصوله لليابان منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بأنه أمضى بضع سنوات لا يجد الإقبال الكافى على حفلاته، إلا أنه طور نفسه وأدامه صعوداً بحيث صار الآن بالتأكيد من اشهر عازفى الكمان فى العاصمة اليابانية.

وقد حضرت بالفعل إحدى حفلاته والتى اقيمت بمسرح «إدينو»، وهو واحد من اكبر واعرق المسارح بطوكيو. وشاهدت بأم رأسى المسرح الذى يسع ألف متفرجاً، وهو ممتلئ عن آخره بالجمهور اليابانى من مختلف الأعمار والفئات ولا يوجد فيه موطئ لقدم. وعلمت أن هذا الحضور الجماهيرى المكثف هو قاسم مشترك لكافة حفلات عاطف حليم خلال السنوات الأخيرة. ومن جهة أخرى، تتسم حفلات عاطف حليم بأنها لا تقتصر على العزف المنفرد فقط، بل تشهد عزفاً مشتركاً يختلف من حالة لأخرى، أحياناً مع عازفة بيانو وأحياناً أخرى مع عازف كمان آخر أو عازفى آلات أخرى. كما أن الحضور الجماهيرى لحفلات الفنان يتنوع فى فئاته العمرية ما بين الاطفال والشباب والبالغين والكهول والشيوخ، وكذلك يتوازن الحضور ما بين الذكور والإناث. بل إن بعض العائلات تأتى إلى حفلات الفنان عاطف حليم، خاصة تلك التى تنظم فى منتصف النهار خلال ايام العطلات الوطنية اليابانية أو عطلات نهاية الأسبوع، كوسيلة للترفيه الجماعى والراقى لكافة افراد الأسرة معاً، على تنوع مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية، بحيث يخرجون جميعاً فى نهاية الأمر مشبعين بوجبة فنية وثقافيه وروحية دسمة وثرية ومتنوعة تسمو بالروح وتزكى النفس وتفعل العقل وتزيل فى ذات الوقت ضغوط الحياة اليومية ورتابتها، أو على الأقل تخفف منها. كما أن الإقبال على حفلات وعزف الفنان عاطف حليم لا يقتصر على اليابانيين، ولكنه يمتد للأجانب المقيمين على ارض اليابان على اختلاف خلفياتهم اللغوية والثقافية وعلى تعدد انتماءاتهم الجغرافية والإقليمية.

ومن مزايا الفنان عاطف حليم أنه يجيد اللغة اليابانية تحدثاً وفهماً وكتابة وقراءة، بجانب إجادته بالطبع لكل من اللغتين العربية والفرنسية. وبالتالى صار متعدد اللغات، وبالتالي الثقافات، وهو ما أثرى آفاقه ونوع مصادر ثقافاته وينابيع المدارس الفنية التى يستلهمها فى إبداعاته وأدائه الموسيقى. وعندما يعزف الفنان فى حفلاته، فإن المقطوعات التى يعزفها تتنوع ما بين الغربى لبيتهوفن وغيره والشرقى واليابانى، ويجيدها جميعاً بل يتبع ويبدع ويتفوق على نفسه فى كل مرة يؤديها. وبالنسبة للكثير من المقطوعات التى يعزفها، فإنه صار يحفظها عن ظهر قلب ويتألق فى أدائها إلى حد أنه بات يؤديها بدون الحاجة إلى النوتة الموسيقية أمامه، ويتفاعل معها وجدانياً بشكل يلحظه المشاهد، وبدون أن ينال ذلك من حرفيته. فقد رأيت اليابانيين يغمضون أعينهم ويتأملون ويتيهون فى هذا النغم المنبعث من عزف عاطف حليم على الكمان كفنان على أعلى مستوى عالمى من الحس الفنى والإبداع الموسيقى.

كما أن من حسن طالع عاطف حليم أنه يعيش فى اليابان، ذلك البلد الذى يتسم بدرجة عالية من التسامح تجاه، بل والإقبال على التعددية الثقافية والفنية، نظراً لانفتاحه وعرونته تجاه «الآخر» معرفياً وقيمياً ومنهجياً، بل ويتسع الإنسان اليابانى من تنوع الانتاج الثقافى والأدبى والفنى ويتقبله ويقبل عليه. كذلك فإن المجتمع اليابانى، مثله مثل المجتمع المصرى، يعتز بتاريخه الضارب بجذوره فى التاريخ، ويفخر بإسهامه الحضارى لإثراء مسيرة البشرية عبر مراحل تطورها الطويلة، ويؤمن بان التواصل مع العطاء الإنسانى عبر العالم وإبداعاته المختلفة المشارب والمآرب يحقن فى أوصاله الحيوية ويبعث من جديد قدرته على اكتساب ما لدى الآخرين من خبرات وتجارب يستفيد منها اليابانيون على الصعيدين الفردى والمجتمعى. والمواطن اليابانى، أياً كان موقعه أو وظيفته، ذواق للفنون عموماً، وللموسيقى على وجه الخصوص، لأنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من تراثه ومن تربيته، بل ومن تكوينه الروحى وتشكيله النفسى. فالموسيقى حاضرة فى الموروث الحضارى اليابانى بأطواره المتوالية، سواء كانت موسيقى منفردة أو مرتبطة بأداء مسرحى تمثيلى أو راقص.

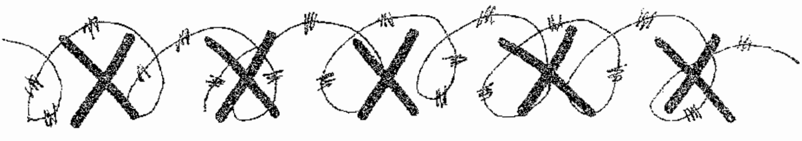
الموسـيقى حاضـرة فى المـوروث الحضـارى اليابانى بأطواره المتوالية، سواء كانت موسيقى منفـردة أو مرتبطـة بـأداء مسرحى تمثيلى أو راقص

كما أن التربية الموسيقية مكون أساسى فى المناهج الدراسية فى كافة المراحل التعليمية للطفل اليابانى منذ دخوله إلى مرحلة الحضانة حتى مرحلة متقدمة فى مشواره الدراسى. كذلك تمثل الأنشطة الموسيقية، سواء على مستوى التذوق أو التعلم أو العزف، بنداً ثابتاً على جدول أعمال برامج وفعاليات المكتبات العامة ومراكز الخدمة المجتمعية المنتشرة فى أحياء المدن أو الريف على امتداد الأرض اليابانية، خاصة فيما يتعلق بالأطفال. ولا ينحصر هذا الاهتمام فى الموسيقى اليابانية، بل يمتد إلى كل مناهل الموسيقى العالمية، بدءاً بالموسيقى المصرية القديمة فى عهد الفراعنة، ووصولاً إلى وقتنا الراهن فى مختلف أرجاء المعمورة، مروراً بالكثير والمتنوع فيما بين الاثنين وبشكل متلازم مع أو موازى لأى منهما.

ووجود الفنان عاطف حليم وحياته الطويلة وبزوغ نجمه فى سماء العاصمة اليابانية طوكيو لم يحل دون ارتباطه بوطنه الأم مصر، بل إنه حرص على إحياء حفل بأحد مسارح دار الأوبرا المصرية بالعاصمة المصرية القاهرة منذ أكثر من خمس سنوات. كما حرص على إحياء حفل مماثل فى دار السفارة المصرية بطوكيو منذ عقد كامل من الزمن، وأبدى استعداده ورغبته فى استئناف التعاون الفنى مع مصر ومع السفارة المصرية باليابان أيا كانت المناسبة أو الحدث، وبات يتردد بانتظام على الاحتفالات التى تقيمها السفارة المصرية فى طوكيو. وحرص الفنان على التواصل مع وطنه واستمرار الارتباط به لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه، حيث يصر خلال التقديم لأى من حفلاته داخل اليابان أو خارجها على أن يتم تقديمه باعتباره مصرى الموطن سكندرى النشأة شرقى الهوى متوسطى المزاج. كما أنه فى أى حديث إعلامى أو صحفى معه يؤكد على ما يسميه فضل الاسكندرية عليه من حيث الوحى الفنى والموسيقى الذى استلهمه من عبق الثغر وما تمثله من هجين متناغم ومنسجم وله شخصيته الثقافية المتميزة وخصوصيته الحضارية وإن تنوعت مصادرها وتعددت. كذلك يؤكد دائماً على تأثير الفن الشرقى عموماً، والمصرى على وجه الخصوص، على إبداعاته الفنية وأدائه الموسيقى. وأخيراً، وليس آخراً، يعتز دائماً بهويته المصرية ويفخر بها. هذا إذاً هو الفنان المصرى عاطف حليم البارز نجمه فى سماء اليابان.

العالم العربى...

مشكلات أخرى



محسن يوسف

يمر عالمنا المعاصر بالعديد من التحولات الاقتصادية والسياسية التى حولت كوكبنا إلى ما يشبه القرية الصغيرة. وقد تواكب مع هذا، ونتيجة للتعامل غير الرشيد مع المصادر الطبيعية ظهور مشاكل ذات طابع كونى من حيث تأثيرها السلبى على مجمل كوكب الأرض، ولعل مشكلات الطاقة والتغيرات المناخية والتلوث التى باتت تهدد مستقبل الحياة على كوكب الأرض أن تعد نموذجاً لهذا النوع من المشاكل العابرة للقارات والحدود.

وبالرغم من وجود العديد من الظواهر السلبية المصاحبة لسياسات العولمة توجد ظواهر أخرى إيجابية من أهمها تحول ثقافة حقوق الإنسان والديمقراطية بكل ما تحمله من قيم نبيلة إلى ثقافة إنسانية باتت تفرض نفسها على جميع مجتمعات كوكب الأرض.

لقد أصبحت هذه الظواهر والتحولات التى تعيد تشكيل وجه كوكب الأرض فى عملية متسارعة الوتائر تشكل تحديا حقيقيا لمستقبل مجتمعاتنا العربية مما يضعنا أمام أحد خيارين: إما التهميش والخروج بعيداً عن مسار حركة التقدم الإنسانى، وإما التفاعل مع حركة التقدم الإنسانى والإسهام فيها والمشاركة فى صياغة مسيرتها وحصول مجتمعاتنا على عائد مجز من ثمارها.

فى هذا السياق يصبح طرح تساؤل: العالم العربى إلى أين؟، فى ظل تنامى ظاهرة العولمة سؤالا ليس مشروعا فحسب ولكنه حتمى، ويستوجب أولوية الإجابة عليه، لأنه سؤال متعلق بالمستقبل. ولذلك

> المؤتمر السادس للإصلاح العربى ـ مكتبة الإسكندرية
> من ١-٣ مارس ٢٠٠٩

تتركز مناقشات المؤتمر السادس للإصلاح العربى والذى يعقد فى الفترة من ١-٣ مارس ٢٠٠٩ بمكتبة الإسكندرية على عدة موضوعات محورية.

العالم العربى المتغير فى إطار كوكب متغير

هذا الإطار تجرى مناقشة وضع الأصوليات فى العالم العربى وتأثيرها على العلاقات الدولية فى ظل تنامى ظاهرة العولمة، خاصة عقب محاولة الترويج لفكرة صراع الحضارات، أو اقتران الإسلام بالإرهاب، وجعل العالم العربى بؤرة توتر وهدف دائم للهجوم باعتباره منبع الأصولية الإسلامية والتى أصبحت فى الإعلام الدولى الوجه الآخر للإرهاب الدينى.

يعانى العالم العربى من مشكلات كوكب الأرض مثل مشكلات الطاقة والغذاء والتغيرات المناخية والمياه والتدفقات المالية وهى مشكلات حقيقية أصبح لها تداعيات مباشرة. وبالنسبة لمشكلة الطاقة فإن جزءاً كبيراً من دول العالم العربى يعد من المنتجين الرئيسيين للبترول والغاز كما أن عدداً من هذه الدول لديها النصيب الأوفر من الاحتياطى العالمى للنفط. لذلك فإن اقتصادياتها تعتمد بشكل كبير على استخدام وتصدير النفط وبالتالى فإنها تعتبر طرفاً مهما فى هذه القضايا خاصة مع تذبذب الأسعار فى النفط خلال الفترة الأخيرة وتأثير ذلك على الاقتصاد المحلى والدولى، لأن معظم الدول العربية تعد دولاً ذات اقتصاد ريعى يقوم على تصدير المواد الخام خاصة الطاقة التى باتت مهددة بالنضوب فى خلال سنوات.

كذلك تعانى بعض الدول العربية الأخرى من مشكلات ندرة المياه أو قلة الغذاء، فى الوقت الذى تتزايد احتياجاتها المائية نتيجة للنمو السكانى المطرد من جهة والإجراءات المصاحبة والخاصة بالتحضر والنمو من جهة أخرى والتى يكون من نتيجتها ارتفاع معدلات استخدام المياه على مختلف أشكالها المنزلية والصناعية والزراعية وهو الأمر الذى يتطلب التفكير فى المستقبل الذى سوف تشح فيه المياه وضرورة التفكير فى خطط لترشيد استخدام المياه وخاصة فى المجال الزراعى حيث يتطلب تغيراً جذرياً فى أساليب الرى المستخدمة حاليا إذ ترتبط غالبا بثقافة وتقنيات متوارثة فى أساليب الزراعة. كذلك ضرورة النظر فى هذا المجال فى عدد من الخطط الأخرى وخاصة ما يتعلق منها بضرورة إعادة معالجة استخدام مياه الصرف بشكل اقتصادى غير ضار بالصحة والبيئة. وكذلك محاولة سد الاحتياجات المطلوبة من خلال مشروعات تحلية مياه البحر. وبالطبع كل ذلك يعتمد على ضرورة النظر فى القوانين والتشريعات الموجودة ومحاولة البحث عن حلول من خلال الابتكار والبحث العلمى والعمل على تغيير ثقافة الإسراف فى الاستهلاك والتى تعد جزءاً من العادات والتقاليد فى كثير من البلاد العربية.

هذا وقد أصبحت المشكلات المتعلقة بالتغيرات البيئية من المشكلات العابرة للحدود وتجاوزت إمكانية علاج التلوث على مستوى مدينة أو بلد ما ولكن يجب التصدى لهذه المشكلات على المستوى العالمى وخاصة مع اتساع عمليات التصنيع والتعامل الجائر مع الغابات، حيث إن كثيرا من الدول أصبحت مهددة بشكل حقيقى بمخاطر الاحتباس الحرارى وما قد يترتب عليه من غرق مساحات واسعة من الأراضى خاصة داخل بعض الدول العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وهى مساحات يعيش فيها ملايين السكان وتشكل مراكز رئيسية للإنتاج الزراعى والصناعى فى هذه الدول.

كل هذه المشكلات أصبحت تناقش على نطاق دولى حيث تسعى دول العالم لصياغة اتفاقيات لتنظيم التعامل معها أو مواجهتها، فما هو موقف العالم العربى منها؟ وكيف سيتم التعامل معها؟ وما هى أفضل البدائل التى يجب البحث عنها وكيف يمكن السعى لتوفير المصادر البديلة أو الرخيصة للطاقة أو لمياه الشرب أو للغذاء؟

ولذلك يجب النظر فى مستقبل الدول العربية فى عالم متعدد الأقطاب، خاصة بعد الانهيار الاقتصادى الذى أصاب أسواق المال الأمريكية وكذلك بقية الأسواق فى مختلف أنحاء العالم، مثل الصين واليابان وروسيا ودول الاتحاد الأوروبى، وكيف يمكن التعامل مع هذا الواقع الجديد خاصة إن المنطقة العربية أصبحت مسرحا للعديد من الصراعات الإقليمية الطاحنة. وفى مقدمتها الصراع العربى الإسرائيلى الذى طالما تحدد مساره وتأثر بالوضع الدولى، يضاف إلى هذا ما شاع فى العقدين الماضيين من سياسات حق التدخل الدولى فى بعض الصراعات الإقليمية والتى باتت تتم تحت غطاء دولى كما حدث فى غزو العراق، أو حتى فى الصراعات الداخلية فى السودان والصومال وغيرها من البلاد العربية.

التفاعلات الإقليمية

وبالنظر إلى الواقع الإقليمى العربى والذى أصبح يعج بالمشكلات خاصة تلك التى تتأثر بشكل مباشر بتنامى ظاهرة العولمة وفى مقدمتها الصراعات والنزاعات

يعاني العالم العربي من مشكلات الطاقة والغذاء والتغيرات المناخية والمياه والتدفقات المالية وهي مشكلات حقيقية أصبح لها تداعيات مباشرة

السياسية الداخلية في العراق /لبنان/ الصومال /فلسطين /السودان /موريتانيا وغيرها والتي وصلت الى حد الحروب الاهلية وخلقت أجواء داعمة لمحاولات التدخل الخارجي، الذي أصبح يتم الآن تحت دعاوى إنسانية تجد من يدعمها أو بحجة تأثيرها على الاستقرار الدولي والإقليمي.

ولذلك فإن مستقبل التكامل الاقتصادي بين البلدان العربية يعتبر أمرا مهما وخاصة ما يرتبط به من سياسات التوزيع وضمان الرفاه الاجتماعي،وسياسات التشغيل وهجرة العمالة العربية، والتجارة البينية بين الدول العربية، خاصة في ظل التحولات الاقتصادية الهيكلية على الصعيد العالمي، وتزايد معدلات البطالة وانخفاض مصادر الدخل الرئيسية نتيجة نضوب موارد الثروة التي تعتمد على تصدير الخامات، كذلك تنامي ما يعرف باقتصاد المعرفة والذي سوف يحدد موقع الدول العربية على ساحة الاقتصاد العالمي.

هذا وقد أصبحت قضية الفقر من القضايا المهمة التي تؤدي إلى تفاقم الكثير من المشكلات الأخرى، وقضية الفقر لا تبرز فقط من خلال انخفاض مستوى الدخل بأقل مما يضمن الاحتياجات الأساسية للأفراد، ولكن يضاعف من تأثيرها التفاوت الرهيب في الدخل داخل البلد الواحد وأثر ذلك على التفاوت الاقتصادي غير المقبول مما أصبح يهدد تماسك المجتمع إلى جانب مشكلات أخرى ترتبط بالبطالة وخاصة بين الشباب وانتشار العشوائيات التي تعتبر أحزمة جديدة للفقر داخل المدن الكبرى والتي يمكن أن تكون مكانا وبؤرا للجريمة والانحراف والتطرف وغيرها من الظواهر الاجتماعية السلبية، مما يتطلب وضع رؤية اقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة يمكن من خلالها تحديد المسئوليات والأدوار لحماية الكثير من الفئات الاجتماعية الفقيرة والمهمشة الأمر الذي يقتضي ضرورة التعاون والتنسيق بين مختلف الدول العربية، وضرورة التعامل مع قضية الفقر من خلال الأبعاد الاجتماعية والسياسية التي تؤثر وتتأثر بها وخاصة ما يتعلق بانتشار ثقافة الفقر أو فقر الثقافة والتي تتطلب فكرا وأبعادا جديدة للتعامل مع قضية الفقر في البلاد العربية.

المواطن والدولة والمجتمع

هذا ويتأثر مستقبل العلاقة بين المواطن الفرد والدولة والمجتمع بتنامي ثقافة سياسية عالمية والتي أصبح فيها تصنف دول العالم وفقا لمعايير المساواة وعدم التمييز، ومعايير ضمان الحقوق والحريات المدنية، ومدى رسوخ دولة القانون، وهي المعايير التي أصبحت تحكم إلى حد كبير علاقة أي دولة بمجمل دول العالم الأخرى وتؤثر فيها.

لذلك يجب الاهتمام بالحريات والحقوق المدنية للإنسان العربي، في ظل التحولات الدولية التي تشهد ما يسمى بموجة التحول الديمقراطي التي بدأت مع انهيار المعسكر الاشتراكي وانتهاء الحرب الباردة، وأصبحت تفرض ضرورة تحول النظم السياسية من النمط الشمولي / الاستبدادي إلى النمط الديمقراطي وما يفرضه هذا من شكل جديد للعلاقة بين الفرد والدولة والذي يقوم على احترام حقوق الإنسان وهي العملية التي مازالت تواجه تحديات هائلة وتتعثر في الكثير من المجتمعات العربية.

ويعد مفهوم المواطنة بين الممارسة الواقعية والحقوق الدستورية من الأمور التي لا تحتاج فقط إلى القوانين والتشريعات بقدر ما تحتاج إلى ثقافة سياسية سائدة تعظم من قيم المساواة وعدم التمييز على خلفية الدين أو العرق أو الجنس أو الوضع الاجتماعي، وهي الثقافة التي ترتبط إلى حد كبير برسوخ مشروع الدولة المدنية الحديثة، وهو المشروع الذي مازال يواجه تحديات حقيقية في العديد من البلاد العربية حيث يقوم على ممارسات حقيقية ترتبط بتداول السلطة،واستقلال القضاء، وتحديد موقع الدين في الحياة الاجتماعية والسياسية، والمشاركة السياسية، وهي كلها قضايا مازالت محل حوار مجتمعي في العديد من الدول العربية لتذليل العوائق الهيكلية التي تحول دون تحقيقها.

كذلك تعد حقوق المرأة العربية ودورها من الأمور المهمة وخاصة في ظل ثقافة محافظة مازالت تنكر على المرأة الكثير من حقوقها، على الصعيد القانوني وصعيد الممارسة الفعلية،وهو ما يمكن رصده في أشكال التمييز على الصعيد الرسمي الذي لم يمنح المرأة حقوقها بشكل قانوني، أو على الصعيد المجتمعي الذي تسود فيه ممارسات التمييز رغم وجود القوانين التي تناهضها.

هذا ومن المهم رسوخ دولة القانون في الدول العربية لأنه بالرغم من وجود هياكل ومؤسسات قانونية في البلاد العربية، إلا أن وجود أنظمة قضائية غير رسمية موازية فيما يعرف بالقضاء العرفي أو غيرها من الأنظمة الأخرى، وكذلك موضوع استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية، أو ضعف مبدأ المواطنة نتيجة تغليب الولاءات الفرعية (دينية/عرقية)، ووجود نظم قضائية غير طبيعية (مثل محاكم أمن الدولة) كل تلك المشكلات تتعارض مع قضية رسوخ واحترام القانون بتحديات حقيقية تضر بجوهر الدولة المدنية الحديثة وبجوهر مفهوم المواطنة القائم على حق التقاضي، وتساوي الجميع أمام القضاء، والحق في محاكمة المواطن أمام قاضيه الطبيعي. ورغم أهمية هذه الحقوق إلا أن المواءمة بين حرية الفرد في ظل حقوق الإنسان وحاجة المجتمع إلى حماية الأمن القومي خاصة خلال فترات الاضطراب يعتبر من التحديات التي تواجه كل الدول.

ومن المشاكل المطروحة دور المجتمع المدني العربي وتركيز نشاطه في إطار الإغاثة والعمل الخيري دون التركيز على شراكة حقيقية في صنع السياسات العامة. إن التراجع العام لدور الدولة في ظل النظام الاقتصادي الليبرالي، والسعي المنشود لبناء نظم سياسية ديمقراطية، وما يقوم عليه من تحرير المجال العام، كل ذلك يتطلب تصاعد دور المجتمع المدني كشريك حقيقي في إدارة شئون المجتمع وهو ما يعني وجود دور حقيقي له في صنع السياسات العامة، والمشاركة في تنفيذها ومراقبتها والضغط من أجل تعديلها. ومن الواضح أن منظمات المجتمع المدني في الدول العربية لم تتمكن بعد حتى الآن من أن تقوم بهذا الدور، حيث كثيرا ما ينظر إليها ليس باعتبارها صوتا للشعب، بل باعتبارها منفذا لما تسمح به الدولة أو لما تتخلى عن القيام به، والسؤال المطروح هنا هو كيف يتحول المجتمع المدني إلى شريك في صنع السياسات العامة ومراقب لكفاءة تنفيذها كأحد أسس بناء الدولة المدنية الحديثة؟

الخطاب الثقافي والإعلامي

تقوم الثقافة الديمقراطية بدور محوري في عملية الإصلاح والتغيير، حيث تبني الأسس التي تشكل القاعدة الصلبة لمبادئ التوافق والتقدم ومسلمات ضرورة إصلاح الأوضاع القائمة، وفي هذا الإطار فإن هناك حاجة ملحة لصياغة جديدة لنوعين من الخطاب المؤثر في الحياة العامة:

هناك ضرورة جذرية لتجديد الخطاب الديني بحيث يرتكز على النصوص المقدسة الصحيحة في توجيه شئون الحياة على أرضية التسامح والقبول بالتعدد مع المساواة وعدم التمييز واحترام النصوص التي أجمعت على إقرارها المنظمات الإنسانية والدولية في العصر الحديث في قيم حقوق الإنسان وقواعد الديمقراطية. ويواجه تجديد الخطاب الديني الكثير من التحديات خاصة في ظل المحاولات التي تعمل على دفع الصراعات الدولية لأن تأخذ صبغة دينية، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وبعض المحاولات التي تهدف إلى الربط بين الإسلام والإرهاب وما تعاني منه المنطقة العربية التي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين من انتهاكات تحت مسمى الحرب على الإرهاب، وجعلها ضحية لمزيد من سياسات التدخل والهيمنة، بالإضافة إلى تنامي الخطابات الدينية السلفية المحافظة في العديد من البلاد العربية مما يساعد بشكل كبير في عدم الفهم الصحيح للإسلام أو غيره من الديانات والتي تعطي الحجج للتدخل بحجة مكافحة الإرهاب، بالإضافة إلى أن الكثير من الصراعات الداخلية تصوب سلاحها تجاه مشروع الدولة المدنية الحديثة.

كذلك يحتاج الخطاب الإعلامي إلى التطوير في اتجاه مزيد من الحريات ليواكب التطور الهائل في وسائل الاتصال بالطفرة التي جعلتها تحول العالم فعلا إلى قرية صغيرة، ليس هذا فقط بل خلقت إمكانيات هائلة لممارسة حرية الاختلاف والتعبير عن الرأي خاصة مع ظهور شبكة الإنترنت بإمكانياتها الهائلة، والمحطات الفضائية، وهو ما يطرح مجددا كيف يكون الإعلام حرا، ومستنيرا، وموضوعيا، وهي القواعد الثلاث التي تشكل الأساس المهني للإعلام في العصر الحديث، لأن تجاهل الإعلام العربي في جملته لأهمية هذه القواعد وضرورة السعي إلى تحقيقها، أو محاولة الالتفاف حولها في شكل قيود غير مباشرة أو مواثيق تقيد حركتها كل ذلك يدفع المواطن العربي إلى البحث في عصر السماوات المفتوحة عن إعلام بديل لا يتبنى مصالحه الاستراتيجية ولا يعنيه قضاياه المصيرية في بناء المستقبل ولذلك يجب إعادة النظر في طبيعة المؤسسات الإعلامية ونمط ملكيتها وضرورة التخفف من كثير من أشكال ومستويات الرقابة عليها في الدول العربية.

السياسات العامة وأولوياتها

إن جزءاً من عملية الإصلاح في البلاد العربية ينصب بالأساس على تغيير العديد من السياسات العامة التي تشكل مرتكزات عملية التنمية والاستقرار داخل كل مجتمع، وفي نفس الوقت تحتاج الدول العربية إلى سياسات عامة بديلة تكون قادرة على التعامل مع المستجدات الداخلية والدولية، خاصة بعد أن أصبحت هناك معايير شبه موحدة تحكم سوق إنتاج السلع والخدمات وسوق العمل، وفي هذا الإطار يجب النظر إلى بعض القضايا المهمة مثل سياسات التعليم في الدول العربية وإلى أين تتجه مقارنة بما تقدمه مؤسسات التعليم في الدول المتقدمة ومراجعة مفهوم الأمن القومي برؤية جديدة والنظر إليها بصورة أشمل من خلال مفهوم الأمن الإنساني والذي يجب أن يركز على سياسات بديلة للاهتمام بكل احتياجات الإنسان وخاصة قضايا التشغيل والاستثمار وتطويع وتطبيق النظام الرأسمالي بما يتناسب مع ظروف العالم العربي لتحقيق الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية في الدول العربية. ❊

كـــــــــتب إســـــبانيــة

EL LIBRO DEL AMOR ESQUIVO (FINALISTA DEL PREMIO NADAL 2009)
de ABELLA, RUBEN
كتاب عن الحب المتحفظ
(الحائز على جائزة نادال (Nadal) ٢٠٠٩)
المؤلف : روبين أبيا
DESTINO (EDICIONES DESTINO, S.A.),
23.12$



إنها قصة حضريه تحكى عن أصل حقيقة كوننا.

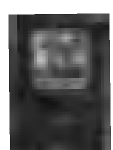
يحاول فيلكس التعافى من الآثار المدمرة لقطع علاقته مع فيابنا ويستغل مظهره المتشابه بشكل لامعقول لمظهر دونوفان ملك الأغنية الرومانسية ومعبود المرأة. فيقوم بإنتحال شخصيته خلال ثلاث ليال بمدريد حتى الصباح.

فهى رواية لحياة متشابكة ببعضها فى مدينة مدريد، كتبت بشكل بريق وجذاب، تختلط بها المدونات بداية من الشعر إلى الفكاهة.

فهى قصة حضريه عن الحب والاحتياج والسعادة بالمؤامرة والرغبة وإستحالة إستدامة الخداع. فمن خلال شخصياته، يحكى لنا الكتاب عن وجوه الواقع الملموس والواقع الذى نعتقده ونتخيله أو الذى نحلم به والذين يشكلون بالنهايه حقيقة أصل كوننا وطبيعة فكرنا.

*

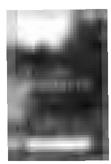
POESIA COMPLETA
ARGUIJO, JUAN DE
الديوان الشعرى الكامل
خوان دى أرجويخو
CATEDRA,Madrid , 2009
12.25$



جون خوان دى أرجويخو (١٥٦٧-١٦٢٢) صاحب ديوان الرابعة والعشرين من أشبيليه التى تعتبر أحد الخلفاء الشرعيين لشعر إريرا «Herrera» ومن أوائل الأشعار التى فتحت أبواب عصر الباروك الإسبانى. فعلاقاته الضيقة بمثقفين أشبيلية النحدرين من سلامله ما لاريـنـا «mal-larista» سمحت له بالدخول للتقليد الأدبى التى أصبحت من أهم ما يمثله. حيث تصنف كأعلى إنتاج شعرى لعصر النهضة الإسبانى والمدرس الفعلى لفن السوناتا. فأسم أرجيخو لم يكن مهملاً أبداً بين نخبة الشعراء أو بالنسبة للشعراء العصر الذهبى. فعمله محظوظ لأنه وضع بذور نشاطه وطوره فى طور التكوين والنضج والتطهير وتحقيق الإمكانيات الداخلية للغة الإسبانية كلغة للشعر. وذلك أصبح إسهام عظيم من الشاعر أرجيخو فى الأدب حيث أخذت سونيتاته الكمال الشكلى.

*

EL ESPIA IMPERFECTO
de CABALLERO, JOSE LUIS
الجاسوس المعيب
خوسيه لويس كابايروا
ROCA EDITORIAL DE LIBROS, S.L.
Madrid , 2009
21.25$



فى مكتب صغير ومظلم فى منطقة سانتاندر ينتظر ميجيل مايسترى مارين عميل CNI وصول إنياكى سارجارزازو الملقب بإنياكى دى موندراجون مدير الإيتا، والمعترف والمتهم بخيانتهم. فرؤساء CNI سلموه إلى مايسترى ليقيمه إن كانت منظمة إيتا تغشهم أو إن كانت الماسة الخام عندهم.

التقى عميل CNI برجل تعيس ومريض ومعذب. فثقة رؤساء CNI قد شرعت فى تقديم نتائج عملية ولكن مايسترى لا يثق فى الدوافع الحقيقية التى حولت إنياكى إلى خائن حيث إنها بعيدة كل البعد عن السياسه أوعن اعترافه. فالوقت يخوض كل مرة فى صراع عنيف مع منظمة الإيتا بشكل متزايد، ولكن ميجيل مايسترى مخلص وأمين، وقد عاهده بأنه سيحميه ليس فقط من منظمة الإيتا التى تبحث عنه لقتله بل من رؤساء CNI الذين يتهمونه بالخيانة.

إنها قصة جاسوسية تحكى عن الإخلاص والخيانة فى بلاد الباسك يقوم ببطولتها عميل CNI التى ستحوله مبادئه الأخلاقية إلى عميل معيب.

*

LIBRO DE HUELGAS, REVUELTAS Y REVOLUCIONES
ARANGUREN, TERESA y CAMPOAMOR, CLARA y BERTOLO, CONSTANTINO
كتاب عن الإضرابات والإنقلابات والثورات
تيريزا أرانجوين، كلارا كاميوأمور، قسطنطين بيرتولوا.
ZARAGOZA, 2009, $28.12



الحكايات الراديكالية تجتمع فى قصة عندما يقع الناس تحت وطأة السيادة. تعبر الثورة بكل قوة عن الإرادة الداخليه فى الرجال والنساء من أجل العيش فى عالم عادل. فى ظل الإنقلابات التحررية، تعبر النصوص والصور بتلك الحكايات المختارة بجميع ألوانها عن الحنق ولكن أيضاً بنقد فكاهى. منذ تمرد لوثر حتى الإنقلابات التى ضد العولمة مروراً بإسبارتاكو، اللجنة الثورية بباريس، الثورة المكسيكية، و٦٨ مايو أو الانتفاضة.

*

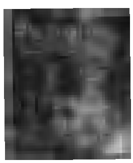
OTRO FINAL
de AMO, ALVARO DEL y CHAMORRO, EDUARDO
نهاية أخرى
ألبارو ديل امو، إدواردوا شامورروا
2009 , ZARAGOZA
30.62$



لأن الأمور يمكن أن تكون غير ذلك. أقترح خمسة عشر من الروائيين الكبار الحاليين نهايات جديدة لأهم خمسة عشر قصة سينمائية. فهل إنجريد وبوجارت قرروا بألا ينفصلوا ويعودوا معاً إلى باريس من مطار كازابلانكا؟، جاك ليمون كان يستطيع بألا يكون سلبيا عند إغراءات المليونير له؛ وربما بيتربان خرج من باريس للأبد وأستطاع ان ينمو ; وقد يفوز فون إيزنباخ بحب تاديتيو له قبل موته فى فينسيا ; وربما يتغلب نورمان باتيس على هوس الرعب ; وربما لم يستطع ماستر مارشال الإمضاء وقت طويل فى منطقة فيار ديل ريبو «Villar del R?o»........

*

Pasiones. La Semana Santa en Sevilla
Zamora Moya, José Antonio
عيد أسبوع الآلام. لا سيمانا سانتا بإشبيليه
ثامورا موبا، خوسيه أنطونيو
AlGaida , 2009



بدء خوسيه أنطونيو ثاسورا الفوتوغرافيا فى عام ١٩٤٨. فكان بداية حياته المهنية إنجذب إلى تصوير الريبورتاج الذى كان يتميز به. يمتلك خوسيه أنطونيو كمية كبيرة من الصور الفوتوغرافيه والتى حوالى ٢٠٠.٠٠٠ صورة، والتى فكرتها عن الأندلس.

حصل على عدة جوائز فى المسابقات القوميه للتصوير وفى المؤسسات العامة (وزارة الثقافة، المؤتمر الأندلسى، بلدية مالاجا أو بلدية أشبيلية) كما فى المؤسسات الخاصة. فقد قدم العديد من المعارض عن ذلك العمل فى إسبانيا وبالخارج.

حيث إنه مؤلف الرسالة الرسمية «عيد لا سيمانا سانتا فى إشبيليه عام ١٩٨٩».

وإنه مؤلف لثلاثة كتب بكتابة نصوصها متضمنة صوره وهم : لحظات، لا سيمانا سانتا بإشبيليه (الجايدا ١٩٩٩)، معرفة خبراتية، الرحله المقدسه، (Algaida، ٢٠٠١)، وإشبيليا، (إفيرست ٢٠٠٤)، فهذا الأخير بكتابة كارلوس كولون. والمضيف إليه عنوان رابع وهو «عيد أسبوع الآلا م. سيمانا سانتا بإشبيليه».

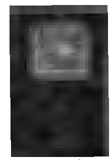
*

DON GIL DE LAS CALZAS VERDES
de MOLINA, TIRSO DE

السيد جل ذو السروال الأخضر

تيرسو دي مولينا

CATEDRA, 2009



تعتبر هذه المسرحية أكثر المسرحيات جاذبية والتي لاقت نجاحاً كبيرا في وقتنا الحالي. وهي أحد الدلائل الأكثر شمولية على براعة تقنية تيرسو دي مولينو. فنحن أمام خلاصة من الاكتشافات الأصلية الرسمية حيث تجتمع فيها مهارة التوافق بين ما هو مثقف وشعبي وكيفية إستخدام أقصى حد لأدوات الشخصيات من ملابس وصوت وحركة ومن موارد المسرحية المصممة لقوالب الشخصيات، حيث إنها مسرحيه تعتبر حالياً «كلاسيكية»، يتخللها روح الفكاهة والتي يمكن أن تقرأ على نحو المراقبة على الممارسات الاجتماعية. يعتبر تيرسو دي مولينا موهبة استثنائية لبناء الجو الإبداعي والمناظر الطبيعية الخلابة.

هذا العمل يقدم رؤيه مدريديه تكشف عن الألفه المدهشه بالحياه الحضريه.

LOS GUARDIANES DURMIENTES
de RODRIGUEZ RIVERA, LUIS

الحراس النائمين

لويس دي رودريجيث

Zaragoda , 2009



إنها رواية للخيال العلمي التي تتنبأ بتدهور الكوكب والمجتمع والبشرية بأصداء كل من Isaac Asimov, Philip K. Dick y Ray Bradbury

الرواية تحكي عن حراسين يحرسون مفتاح الخلاص التي تعتبر الأمل الوحيد للعالم الذي يحتضر حيث في نهاية القرن الواحد والعشرين يخضع العالم لجماعتين لتناوب السلطة. وهم التجاوزات الرأسمالية التي في إنقراض جزء كبير من الكائنات الحية، والتهديد بنقص مياه الشرب.

فالرجل والمرأة هم حراس المفتاح البيولوجي لتوليد المنظومة البيئيه للكوكب ووضع حد لهيمنة الجماعات القاسية.

LA PERLA DE AL-ANDALUS
de MOLINOS, LUIS

لؤلؤة الأندلس

لويس مولينوس

ROCA EDITORIAL DE LIBROS, S.L., 2009



كان عهد خليفة الأندلس في قمة الازدهار خلال النصف الثاني من القرن العاشر، حيث كانت قرطبة حينذاك عاصمة للمسلمين، تثير دهشة العالم لعظمتها وثقافتها. ولكن فجأة حدث بعد ذلك صراع بين الطوائف على السلطة مما أدى إلى تدمير المدينة ثم تابعها في التدمير جميع المقاطعات الأندلسية.

تحكي هذه الرواية عن توماس بن عبد العزيز الذي ولد في الأراضي القشتاليه الإسبانية على حدود نهر الدويرو في عهد الخليفة المنصور المحارب الكبير الذي استخدم قوته وسلطته في الخلافة للقضاء على الممالك الإسبانية.

فعندما كان عبد العزيز لديه اربع سنوات تقريباً خطف وتم حمله إلى قرطبة للبيع في أسواق العبيد. وهناك تم شراؤه بواسطة رجل عجوز يعمل في صبغ الجلود ليتبناه ويقوم بتربيته وتعليمه تعاليم الديانة الإسلامية. وبعد أن أتم سن النضوج، أصبح اسمه يهز العالم بأسره. وفجأة اكتشف أن المدينة التي تربى بها في سعادة وأمن، تحولت إلى عدو له تشده وتسحبه لسقوطه.

في تلك الأوقات كان بعض المحاربين يضعون اللؤلؤ في ملابسهم اعتقادهم منهم بحمايتهم من الأعداء.

فيقوم توماس عبد العزيز بالبحث عن اللؤلؤه السحرية لإنقاذه من تلك النكبه، متمسكاً بالحب والحياة.

يحمي اللؤلؤ من المحاربين، والشاب الذي يبحث عن هويته خلال السنوات المأساوية التي تم فيها إنهيار العاصمة الأندلسية، حيث إنهم الأطراف المؤثرين في هذه الرواية.

Cancer: el fin de un mito
Dr. José Ram?n Germà Lluch

الكانسر: نهاية الأسطورة

دكتور خوسيه رامون جيرما يوش

Planeta , 2009-02-08



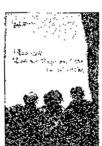
ما هو الكانسر؟ وهل يمكن التغلب عليه؟ وما هي الوسائل الجديدة لعلاجه؟ وكيف يمكن مواجهة الكانسر في القرن ٢١؟ يجيب الدكتور خوسيه رامون يوش المختص في مرض السرطان على هذه الأسئلة وأسئلة أخرى أكثر: نهاية الأسطورة، هو كتاب يشرح لنا أهمية التشخيص الدقيق وعلاجه المناسب لكل نوع من أنواع مرض الكانسر. كما يشرح لنا البحوث والإكتشافات الطبيه الحديثة التي تسمح لمواجهة هذا المرض بتفاؤل وأمل أكثر في العلاج. فمن خلال عدة حالات حقيقية، يدعونا جيرما يوش إلى توضيح هذا المرض وإزالة الخوف ويرشدنا ببحوث بيوتكنولوجية واكتشافات أكثر ابتكاراً مما يعطينا أملاً أكثر في الحياة وإقبالاً عليها.

Esperadme en el cielo
Marruja Torres

انتظرني في السماء

ماروخا توريس

Destino , 2009



حاز الكتاب على جائزة «نادال» «NADAL» عام ٢٠٠٩، القصة للبالغين حيث تحكي عن السعادة التي لا تنتهي أبداً.

يجتمع الراوي والبطل في الآخرة، ما بعد الموت، Terenci Moix، Manolo V,zquez Montalb,n مع صديق ثالث. فيتذكرون مع بعضهم الماضي ويعيدون مشاهدة مشاهد قصصهم العاطفية أثناء مرحلة التعليم، والنزوح إلى أي مكان يرغبون فيه، من شوارع «راقال» ببرشلونا بعد الحرب العالمية إلى السجادة السحرية، لسابو والوزير الكبير، ومن حدائق «ريتيرو» المدريدي إلى الأحلام الذهبية بهوليوود مروراً بالإسكندرية والتي ليست بعيدة أبداً عن السينمات التي بالمنطقه.

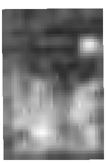
فكل شيء يأخذ الجو السحري. يعيش الثلاثة أصدقاء في مغامرة ويكون بطلها بيتر بان واليس في بلاد العجائب. ولكن لسوء الحظ يواجهون مشكلة كبيرة، فبالرغم من مزايا الدولة التي هم بها عديدة إلا انهم لا يستطيعون التأثير على الأحياء. ومع ذلك ليس لهم خيار إلا أن يوحدوا قواهم في جهد حاسم معاً.

Vientos de cuaresma
Leonardo Padura

رياح الصوم الكبير

ليوناردو بادورا

Tusquets,2009



تصادف أيام جو الربيع الجهنمية بسبب هبوب رياح ساخنة من الجنوب، مع عبد الصوم الكبير والتي فيها تم تعارف القائد الشرطي ماريو كونتي على كارينا وهي سيدة جميلة و رائعة تهوى الجاز والة الساكسو. فكل هذا جعله على أن يبحث بدقة عنها بسبب نهايتها الغامضة.

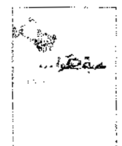
فإنها مدرسة كيمياء في الربيع من عمرها، تقوم بتدريس للذين ما قبل الجامعة والتي كان يدرس فيها ماريو كونتي من قبل بسنوات عديدة، تم العثور على تلك السيدة مقتولة في شقتها بسبب جرعات زائدة من الماريجوانا.

و لهذا كان البحث عن تلك المدرسة إستكشاف أكاديمي و سياسي صرف، فقد دخل ماريو كونتي عالم الفساد حيث تكشف الوصوليه وتجارة المخدرات واستهلاك المواد المخدرة و التنوير، عن الجانب المخفي من المجتمع الكوبي المعاصر.

يوزى كل هذا، حب البوليس ماريو كونتي لتلك المرأة الرائعة الجمال حيث يعيش معها قصة حب دون أن يتخيل بأن هناك شيئا قد يمكن ان يدمر هذه العلاقة في يوم ما.

❁ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ❁

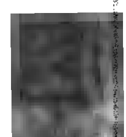
حبة هوا...
تأليف: وليد طاهر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٤٠ صفحة



يقول الكاتب بلال فضل عن هذا الكتاب الممتع: وليد طاهر واحد من أبرز رسامي الكاريكاتير في مصر.. يبدع ويتألق دون أن يستعير أصابع أحد.. فها هو يهندس لنا في هذا الكتاب البديع فنا معماريا خاصا ومسجلا باسمه يمزج فيه بين الفن التشكيلي والشعر والمعمار.. الفن ستراه والشعر ستقرأه.. أما المعمار فستلمس تأثيره على تعمير دماغك بعد أن تنتهي من القراءة وتعاودها مجددا..

❁

فصول عن شوقي أمير الشعراء
صلاح فضل
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٥٢ صفحة



يحتوي الكتاب على عشرة فصول، هي عبارة عن تأملات ناقد مخضرم في شعر أحمد شوقي، وعلاقته الشخصية بهذا الشعر، حيث كان ديوان شوقي أول ما قرأ صلاح فضل، بعد القرآن الكريم. تتجلى في الكتاب روح الحنين والمحبة الغامرة لهذا الشعر ولهذا الشاعر الذي جدد في بناء القصيدة العربية ومنحها حيوية جديدة، كانت باهرة في عصرها.

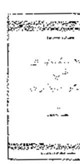
ينطلق الكتاب من سؤال مركزي وهو: ما سر شعرية شوقي التي صنعت عصرا أدبيا كاملاً، وغذت أذواق أجيال متتابعة، وأجبرت أدباء العروبة على الإغضاء عن تنافسهم الضرس وتنصيبه أميرا للشعراء؟

محمل الفصول هو محاولة الإجابة عن هذا السؤال، والتي تتحدد فيما يرى صلاح فضل في: وضع الشعر العربي في مركز الحياة العامة، بامتلاك خطاب النهضة، وبلورة منظومة القيم المعاصرة، والتطور بها إلى درجة عالية من النضج والعصرية، وتبني الحيوية الدافقة في لغة الشعر والإسهام في صناعة أدوات الاتصال الجمالي بالجماهير القارئة واعتماد لغة الغناء سبيلاً لذلك، وفتح باب المسرح الشعري على مصراعيه، وحفز الأجيال الجديدة على تنمسته، وإنشاء أدب الأطفال في الثقافة العربية، والإفادة من تجارب الآداب العالمية في تربية النشء وتغذية وجدانهم، وتعويدهم القراءة والتواصل الإبداعي.

من عناوين الفصول الواردة في الكتاب يتضح أن د. صلاح فضل عاش طويلاً مع شعر شوقي، فخرج بهذا الكتاب الجديد الجميل، الذي يتكون من ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط، ومن عناوينه: ارتحالات شوقي - خطاب النهضة في شعر شوقي، والظواهر الأسلوبية فيه، وتجليات الشعرية في مسرح شوقي والعيد بين المتنبي وشوقي.

❁

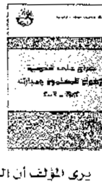
تحقيق في الذهن البشري
دايفد هيوم
ترجمة: د. محمد محجوب
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٣١ صفحة



يظهر إذاً أن الطبيعة قد استصفت من أخلاط الحياة مزيجاً هو أنسبها إلى بني الإنسان، وأنها قد أسرّت إليهم منذرة ألا يسترسلوا إلى أيٍ من نوازعهم استرسالاً، فيقعدوا منه عجزاً عن غيره من المشاغل والمباهج. تقول لهم: أطلقوا ما شئتم العنان لهيامكم بالعلم ولكن اجعلوا علمكم إنسانياً يمته التعلق مباشرة بالعمل وبالمجتمع. ألا قد حرّمتُ عليكم كل تفكير مستغلق (على الناس) وكل بحث موغل سحيق، لأسلطن منهما شر العقاب (على من لا يسمع منكم) بما يسوقانه عليكم من وجوم السويداء، وبما يجرانكم إليه من الريبة التي لا تنتهي، وبما ستستقبل به اكتشافاتكم المزعومة من البرود عندما تنشرونها. يا أيها الإنسان كُن فيلسوفاً، ولكن، عبر كامل فلسفتك تلك، ابق إنساناً.

❁

صراع على الشرعية:
الإخوان المسلمون ومبارك ١٩٨٢ ـ ٢٠٠٧
هشام العوضي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٢٩٨ صفحة



يرى المؤلف أن العلاقة بين «الإخوان المسلمين» ونظام الحكم في مصر، منذ أيام الملك فاروق وحتى اليوم تتأرجح بين الهدوء النسبي والعنف والتصادم الحاد، وإذ يركز على مرحلة هذا الصراع في عهد الرئيس مبارك، يشير إلى أن التسعينيات شكلت مرحلة فارقة في علاقة النظام المصري بجماعة الإخوان المسلمين منذ العام ١٩٨٢، معتبرا أن السبب الجوهري في تفسير هذا التحول والصراع بين الإخوان المسلمين والنظام المصري هو سعي كل منهما إلى تكريس شرعيته بكافة أشكالها: السياسية، القانونية والمجتمعية.

ثم يتناول المؤلف أبعاد التطورات الجديدة في علاقة هذا الصراع في القرن الواحد والعشرين من خلال دراسة التغيرات في مصر والعالم، والتغيرات داخل النظام، وداخل جماعة الإخوان، وأثر كل ذلك في مستقبل علاقة الدولة والمجتمع في مصر.

إنه «عمل يتسم بالعمق والتبصر، ويقدم مساهمة للمعرفة من خلال تقديم معلومات مثيرة وجديدة عن الإخوان المسلمين على وجه الخصوص، وتوضيح خيارات الحركة الإسلامية بصفة عامة» (جيمس بيسكاتوري - مركز الدراسات الإسلامية، جامعة أكسفورد).

❁

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي
مايكل كوك
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٩١٠ صفحات



تأثر المستشرق الكبير مايكل كوك بكلام الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، حيث قال إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الإسلام، وجوهر الدين، فكان ذلك من دوافع إقدام كوك على بحث هذا الأمر في الموروث الفقهي والكلامي الإسلامي المكتوب كله. وقد التزم كوك في عمله ظاهراً بالطرائق الفيلولوجية فاستوعب كل ذكر لهذين المفردين عن طريق القراءة الهائلة، والتنظيم الدقيق. بيد أن إشكالية الكتاب هي المواطنة المعاصرة التي تقول بحق الجميع في المشاركة والإسهام في تحقيق الخير العام، والتدخل من أجل التصحيح والتغيير. وهو يرى أنها توافرت في التجربة الإسلامية الكلاسيكية بسبب إصرار المسلمين عليها ولاتزال لها تأثيرات في الإسلام الحديث والمعاصر، ولدى سائر الفرق والمذاهب.

إن هذا الكتاب لا يمكن تلخيصه بل لابد من قراءته، والتمعن في مقاصده، فالنص عميق وشاسع، ويرتكز على مئات المصادر المطبوعة والمخطوطة، التي رجع إليها المؤلف بكفاية ومسئولية عاليتي الوتيرة ولكي يصل إلى استنتاجات بعيدة المدى في موضوعه، والموضوعات المجاورة.

إن الواقع أن هذا الكتاب في أحد وجوهه هو قراءة عميقة لروح الإسلام كله، من منظور إشكاليات الضمير الديني والأخلاقي، وأبعاد المسئولية بين الدولة والمواطن في التجربة العالمية المعاصرة.

❁

الأرض الموعودة
خطة صهيونية من الثمانينيات
أوريد إينون
ترجمة: إسرائيل شاحاك
ترجمة: ليلى حافظ
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٦٠ صفحة



«مصر منقسمة وممزقة إلى عدة بؤر ذات نفوذ، إذا تفككت مصر، فإن دولاً مثل ليبيا والسودان، أو حتى الدول التي أبعد من ذلك، لن تستمر في الوجود في شكلها الحالي، وسوف تنضم إلى سقوط وتحلل مصر. إن التصور بوجود دولة مسيحية قبطية في مصر العليا متاخمة لعدة دول ضعيفة ذات سلطات شديدة المحلية وبلا حكومة مركزية، هو مفتاح التطور

التاريخي الذى تأخر تحقيقه فقط بسبب اتفاقية السلام، ولكن الذي يبدو حتمياً على المدى الطويل».

هذا أحد نصوص دراسة صدرت فى بداية الثمانينيات، يدعو كاتبها إلى تفتيت الدول العربية حتى يكتب لإسرائيل البقاء، فمن تفتيت العراق إلى أكراد وسنة وشيعة ـ وقد تكفلت أمريكا بذلك بغزوها العراق، ثم تكليفها الأمريكي اليهودي نوح فلدمان بوضع دستور العراق ـ إلى تفتيت مصر إلى دولة قبطية فى الصعيد.. متاخمة لعدة دول ضعيفة».

والمثير فى الدراسة قول كاتبها بأن نشرها لا يضر» فالعرب ضعفاء وأعجز من أن يقوموا بأى شىء لوقفها، أما أمريكا فهى لا تسمع إلا للإعلام الصهيونى، ولكننا نقول إن دوام الحال من المحال، فالعرب يستطيعون فعل الكثير، ومن الآن» وأمريكا تتغير» ويمكن للعرب أن يغيروها فيما يخص الشرق الأوسط.

٭

أفتوكا لايزو

تأليف: أسامة غريب

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٢٤٢ صفحة



يقول المؤلف: التقيت به فى إحدى السهرات مختتياً بطبق فتة باللحمة الضانى فى ركن قصى من صالة الطعام، وقد فاجأنى فى اللقاء الأول بأنه زعلان منى وعاتب علىّ بشدة، فلما استفسرت منه عن السبب قال: لأننى انتظرت منذ وصولى إلى مونتريال أن «تفيدنى» وظال انتظارى دون جدوى. قلت له مدهوشاً: أفيدك فى ماذا؟ ما هى بالضبط الفائدة التى توقعتها منى ولم تجدها؟ فضحك بشدة وأخذ يقهقه قائلاً: كنت أعلم أنك لن تفهمنى بسهولة مع أن كلامى واضح. قلت له وضح أكثر يا شيخ بنزهير. قال: «تفيدنى» يا أستاذ مشتقة من verb to feed ومعناها بالعربية يُطعم أو يزغط أو يدفع اللُّقم فى الأفواه، وأتوقع منك أن «تفيدنى» معناها أتوقع أن تطعمنى وتذيقنى اللُّقم وانتظر دعوتك لى على العشاء حتى أقبلها فوراً. وأضاف: لقد سمعت أنك رجل كريم وأن نارك تحت القدر لا تنطفئ.

أدهشنى جرأته فى طلب العزومة وضحكت بصوت عال قائلاً: نارى لا تنطفئ؟ قلت وقد قررت أن ألاعبه على طريقته وأجاريه فى لغته العجيبة: «أفتوك لايزو يا شيخ بنزهير» فقال: يعنى إيه؟ قلت: ألا تزعم أنك تعرف لغات وتستطيع فك شفرة العفريت؟ قال: غلب حمارى يا سيدى. قلت له: «أفتوك لايزو» يعنى أفتوك كذباً ونصفها الثانى مشتق من كلمة lies وتعنى أكاذيب بالإنجليزية.. «أفتوكا لايزو» هو مصطلح يعنى ضحكوا عليك وباعوا لك التروماى وملأوا خيالك بالوهم.. فهمت يا أستاذ بنزهير؟

٭

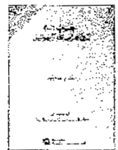
حرب ٢٠٠٦

بين حزب الله وإسرائيل

مات م. ماثيوز

ترجمة: ميا بحبوح

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨



الكتاب عبارة عن تحليل للحرب بين حزب الله وإسرائيل سنة ٢٠٠٦، ويتضمن دراسة للعقيدة القتالية لكل من الطرفين قبل الحرب، ونظرة عامة إلى المشكلات العملياتية والتكتيكية التى واجهها الجيش الإسرائيلى فى أثنائها.

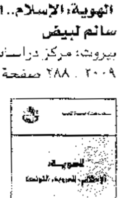
ويوضح الكتاب أن القوات البرية الإسرائيلية وجدت نفسها، بعد أعوام من انشغالها بعمليات مواجهة الانتفاضة فى الأراضى المحتلة، غير مهيأة تكتيكياً وغير مدربة على مواجهة مقاتلى حزب الله الذين لا ينقصهم التصميم والذين نفذوا ما يمكن اعتباره دفاعاً تقليدياً من موقع ثابت.

٭

الهوية: الإسلام.. العروبة.. التونسة

سالم لبيض

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٢٨٨ صفحة



يهدف هذا الكتاب إلى دراسة موضوع الهوية ومفارقاتها بين المجتمع والدولة فى تونس. وينطلق المؤلف من فرضية أن لكليهما (المجتمع والدولة) هوية خاصة به، وينشأ اختلاف يصل حد التناقض والصراع أحياناً، مردّه أن الدولة صاحبة القوة والنفوذ حاولت أن تطبع المجتمع بهوية من يتولونها، ولكن المجتمع أبى إلا أن يثبت هويته.

وقد اختار المؤلف تتبع دراسة هذه القضية وتجاذباتها من خلال أربعة أنماط رئيسية من خطاب الشرائح الاجتماعية الأكثر فعالية، وهى الهوية فى الخطاب السياسى، والهوية فى الخطاب النقابى، والهوية فى الخطاب التربوى، والهوية فى الخطاب الطلابى، وما انتهت إليه تلك الأنماط من تصورات لمسألة الهوية وقضاياها فى الفعل والممارسة، ثم ختم دراسته بنوع من المقارنة بين هوية بعض النخب وهوية المجتمع، راصداً أيهما أقدر على البقاء.

إن هذه الدراسة، فى نهاية الأمر، ليست دفاعاً عن هوية مغايرة مختلفة عن الهويات المرسومة للمجتمع سلفاً من قبل القوى التى تمتلك أدوات صنع الهوية فحسب، وإنما هى، إضافة إلى ذلك، وعى متقدم بأن النهضة الحقيقية لمجتمع ما لا تتحقق خارج هويته الحقيقية، أى خارج منظومته اللغوية والدينية.

٭

المفاوضات المتعددة الأطراف لعملية السلام

بداية ملتبسة ونهايات مؤجلة

(سجل توثيقى)

أحمد قريع (أبو علاء)

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨



وضع مهندسو مؤتمر سلام الشرق الأوسط، الذى انطلق من مدريد سنة ١٩٩١ مسارين متوازيين للمفاوضات: الأول مسار ثنائى لحل صراعات الماضى، والثانى مسار متعدد الأطراف يركز على المستقبل، من خلال معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية العابرة للحدود.

ومع أن المفاوضات المتعددة الأطراف جزء مكمل لمسيرة عملية السلام، فإن ما يعرف عنها هو الشىء القليل، إذ كانت التغطية الإعلامية ضعيفة والاهتمام العام بها قليلاً. ولقد جرت هذه المفاوضات على مدار سبع جولات فى إطار خمس مجموعات عمل منفصلة للبحث فى قضايا التنمية الاقتصادية الإقليمية، ومصادر المياه، والبيئة، واللاجئين، وضبط التسلح والأمن الإقليمى، وذلك بدءاً من اللقاء الافتتاحى فى موسكو فى ديسمبر ١٩٩٢ بمشاركة ٣٦ دولة، ثم تنقل بين عدد من العواصم، واستمر متقطعاً حتى عام ١٩٩٥.

لقد جاء إصدار هذا الكتاب ذى الطابع التسجيلى، مع قليل من العرض والتحليل، بهدف التأريخ لهذه المفاوضات وتوثيق محطاتها الأساسية، وبالتالى زيادة الوعى العام بها، مع إلقاء ضوء كاشف على القضايا التى تمت دراستها فى لجنة التوجيه العامة وفى كل واحدة من مجموعات العمل، بما فى ذلك المشاركة الفلسطينية والأداء الفلسطينى فى تلك المفاوضات. وقد حاول الكتاب تلخيص الإنجازات والإخفاقات، وعرض المساهمة التى قدمها «المتعدد» فى دفع مسيرة السلام.

٭

المُضمَر

كاترين كيربرات ـ أوريكيونى

ترجمة: ريتا خاطر

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩



لِمَ لا نقول دائماً ما نقصده بشكل مباشر، كان ذلك ليكون أسهل على الجميع؟ وبتلازم، لِمَ نسعى، تحت طائلة تكبّد فائض من «العمل التأويلى»، التى كشف النقاب عن المعانى المستترة وراء المسطور فى أقوال الآخرين فضلاً عن المُضمَرات والأفكار المبيتة والتى تشكّل، إن جاز التعبير، الأجزاء المغمورة من هذه الأقوال؟

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن هذه الأسئلة وإلقاء بعض الضوء على هذا المستنقع المصطلحى المؤلف من «افتراضات، ومضمنات، وعلاقات تضمينية، واستدلالات، وإلماحات، وتلميحات»، وغيرها من المحسنات البيانية.

كما يعالج أيضاً موضوع «المضمر» ونشأته وما ينتج عنه، أى كيف يبصر النور وأى منحى ينتهجه، فضلاً عن دراسة تكونه ومفاعيله التداولية التواصلية، وكيف يعمد المتكلمون إلى استخراج المحتويات المضمرة من القول وكيفية ارتداد هذه الأخيرة على المتكلمين أنفسهم.

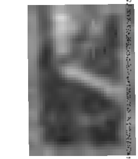
وبهذه الصفة، لا يتوجه الكتاب إلى الاختصاصيين فى مجال الألسنية وحسب، بل إلى كل من يهتم بواقع أن للخطابات فعلها المؤثر (سواء أكانت هذه الخطابات أدبية أم «عادية»، سياسية أم إعلانية)، وأنها تعمل بجزئها الأكبر، خفية ولكن بشكل فعّال، بفضل «المحتويات عابرة السبيل المستترة»، ونعنى بها المحتويات المضمرة فى الخطاب الكلامى.

٭

عراقى فى باريس

تأليف: صموئيل شمعون

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٢٥٢ صفحة



منذ زمن طويل لم نقرأ عملاً أدبياً بمثل هذا الحجم والمستوى. منذ زمن طويل لم نقرأ عملاً يهزنا، يعصف بنا من الداخل (لا يمكن أن تخرج منه سليماً معافى كما دخلت) أقصد بأنك تخرج أفضل بكثير مما كنت سابقاً: تخرج أكثر تسامحاً، وحرية، وانفتاحاً على الآخرين. كل الآخرين. منذ زمن طويل لم يضحكنا عمل أدبي، لم يدخل البهجة إلى قلوبنا مثل هذا العمل. لقد ضحكت فى عشرة أيام (حيث قرأته مرتين متتاليتين) أكثر مما ضحكت فى عشر سنوات أو ربما عشرين سنة، أو ربما طيلة حياتى كلها. ضحكت كثيراً إذن حتى كدت أموت من الضحك، وتقريبا فى كل صفحة. ولكنى بكيت أحياناً. نعم بكيت وانتحبت بدون أن أشعر أو بدون أن افتعل أى شعور. لقد نظفنى هذا الكتاب من نفسى، حررنى من أوجاعى، وساهم فى تفجير المكبوت المحتقن فى داخلى. أعادنى الى الأزمنة الغابرة القديمة.

منذ زمن طويل لم أقع على عمل أدبى يجمع فى طياته بين كل جوانب الحياة العربية: من جنس، وسياسة، ودين، وغرب وشرق، وماض وحاضر، وكوابيس، ومخابرات، وعلاقات غرامية عربية، ونماذج بشرية مصورة بشكل فوتوغرافى تقريبا: أى بشكل واقعى ممتع تماماً. تقريبا لا يوجد أى افتعال فى رواية صموئيل شمعون هذه: ولست بحاجة لأن تبذل أى جهد لكى تقرأها بنهم من البداية وحتى النهاية وأنت تتمنى لو أنها لم تنته. هذا هو العمل الأدبى الحقيقى. وإلا فما معنى الروائع الأدبية؟

رقص الجزيئات

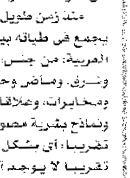
كيف تغير التكنولوجيا النانوية من حياتنا

تد سرجنت

ترجمة: صباح صديق الدملوجى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦،

٢٦٦ صفحة



يركز المؤلف وهو عملية اكتشافية تشق أرض مستقبل التكنولوجيا النانوية، على أن كل الاختصاصات العلمية ابتداء من الطب حتى الرقاقات المايكروية ستجتمع لابتداع مواد تستخدم أصغر المقاسات الممكنة، ألا وهى الجزيئة. وبدلاً من محاولة تخطى العالم الطبيعى، فإن التكنولوجيا النانوية تقتبس كل حركة تؤديها، من الهيكلية المتكاملة والرائعة للطبيعة ذاتها. أما إمكانياتها الكامنة، فتبدو لا نهائية مع مترتبات عملية كفيلة بإحداث ثورة فى طرائق عيشنا وعملنا. وسيقوم الرواد من العلماء من خلال التلاعب بأدق كتل البناء فى الطبيعة بتحسين نوعية الحياة للجميع بطريقة شديدة الأثر.

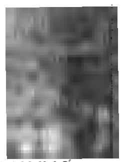
ألغاز ١١ / ٩

إيان هالشيل

ترجمة: د. سامى الإسكندرانى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩،

٣٢٨ صفحة



ألغاز ١١ / ٩ من فعلها؟ بن لادن ومجموعته.. أم واشنطن؟.. هل الاثنان؟ أم أكثر من ذلك؟

تغير العالم بعد ١١ / ٩ .. على أساس الرواية الرسمية للإدارة الأمريكية.. لكن تلك الرواية لا تجيب على الأسئلة الضرورية.. فضلاً عن العديد من الثغرات، مثل قيام مجموعة من الهواة بالهجمات، وظهور أحياء وأموات فى القائمة التى أعلنتها الإدارة للمختطفين..

- كيف انهار البرجان التوأم؟ ولماذا رفعت السلطات الأنقاض قبل فحصها؟ مخالفة بذلك القانون الأمريكى؟ ولماذا وكيف انهار البرج السابع؟
- أين الصناديق السوداء؟ كيف لم تعثر عليها السلطات وعثرت على جواز سفر أحد الخاطفين المزعومين؟ وأين حطام طائرتى البنتاجون وبنسلفانيا ومن كان عليهما؟
- كيف تم الاستيلاء على قيادة الطائرات المختطفة سلمياً، دون أن يرسل الطيارون الأمريكيون، ونصفهم عسكريون، إشارات اختطاف لا يستغرق إرسالها ثانيتين أو ثلاثاً؟
- طائرة البنتاجون اصطدمت به بعد ٥١ دقيقة من اصطدام طائرة ٨٨ بالبرج الشمالى، وبعد اختطاف الطائرة بحوالى ٤٨ دقيقة، وبعد أن خرجت الطائرة عن مسارها بحوالى ٤٤ دقيقة، وبعد أن أغلقت أجهزة الاتصال بحوالى ٤٢ دقيقة، وبعد أن اصطدمت طائرة يونايتد بالبرج الجنوبى بحوالى ٣٥ دقيقة. كيف طارت كل هذا الوقت دون أن تخرج لها طلعات مقاتلة. ولا انطلقت عليها صواريخ حماية واشنطن؟
- كيف قاد بن لادن فى أفغانستان «مقاتلو الحرية»، وأبطال الحرية، الذين حاربوا الاتحاد السوفيتى بدعم ومساندة الحكومات العربية وباكستان والولايات المتحدة؟ وإلام تطورت علاقاته بهم؟ وهل مازال حياً؟
- ما علاقة خالد شيخ محمد بالمخابرات الباكستانية، والأمريكية، وبن لادن؟
- لماذا لم تتبع الإدارة الأمريكية القواعد الملزمة للتحقيق فى حوادث الطيران طبقاً لتعليمات منظمة إيكاو الدولية للطيران المدنى؟

هذا جزء صغير من الأسئلة والثغرات للرواية الرسمية، التى بناء عليها، تغير العالم!

وهذا هو موضوع هذا الكتاب

مقالة العبودية الطوعية

إيتيان دو لا بويسى

ترجمة: عبود كاسوحة

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩،

٢٦٢ صفحة



إن شهرة إيتيان دو لا بويسى ترتبط بموضوع صاغه «أيام كان يافعاً»، «يمجد فيه الحرية ضد الطغاة». وفى خضم الاستعداد للمعركة التى هزت الربع الأخير من القرن السادس عشر، أعيد إطلاق تسمية جديدة على تلك الأهجية، هى «ضد الفرد»، نتيجة الرغبة القوية لدى الناشرين. وكلما قامت اضطرابات فى تاريخ فرنسا، ولاسيما حين كانت الأمة تقف فى وجه التسلط الملكى، كانت المقالة تستخدم بوصفها دعوة إلى التمرد.

إن مقاومة البؤس والقهر، لا تمر، حسبما يرى لا بويسى عبر العنف والقتل، لأن عبودية الشعوب عبودية طوعية. فهم الذين «يذبحون أنفسهم بأنفسهم». وهم الذين بخضوعهم للنير يشوهون الطبيعة البشرية، المفطورة أصلاً على الانعتاق والحرية.

سيتخلص الناس من العبودية الرهيبة، باستعادتهم حقيقتهم الأولية، «طبيعتهم الحرة». فيناط بهذه الاستعادة التحول الكبير فى الحياة السياسية التى ستجعل من الإنسان، لا من الله ولا من أوليائه، الفاعل الأوحد فى العالم السياسى، وذلك ضمن إطار تعاقدى حر.

نوافذ الاشتهاء

خيرى رمضان

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨،

٢٠٠ كلمة



الكتاب يعالج المستجدات التكنولوجية التى أتاحت لفئات الشباب دخول عوامل أخرى مسكوتاً عنها ومحجوبة فى الثقافة العربية مثل الفضائيات، والإنترنت، وكاميرا الموبايل، فهم يشاهدون عليها كل شىء من الأغانى حتى الأفلام الإباحية، الأمر الذى هيأ لهم وشجعهم على الخروج على كل قيم المجتمع متصورين بتأثير ما يرونه أن كل شىء أصبح سهلاً ومتاحاً، ومباحاً. فانطلقت قطعانهم تهاجم الفتيات فى الشارع تحرشاً أو اغتصاباً. فنوافذ الاشتهاء مشرعة أبوابها بلا رقيب ولا حسيب بتأثير مجتمع مطحون اقتصادياً ومأزوماً ثقافياً. يتعرض بوصفه ذلك، إلى غزو تكنولوجى، فى ظاهرة ربما لم تتكرر فى التاريخ، ولن تتكرر وهى أن التقدم العلمى جلس فى ركابه تأخراً أخلاقياً.

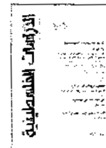
ولأن هذه القضية لها ظلال، يعانيها المتزوجون، نشأت قضية الزواج الثانى، هل هو حق للرجل وحده الذى يتعرض للإغراء فى الشارع والتليفزيون والكمبيوتر والموبايل وما موقف الزوجة التى يريد زوجها الزواج عليها، ولماذا هو حق للرجل وحده؟

يضعنا الكتاب فى مواجهة صريحة مع أزماتنا دون مواربة أو محاولة للتجميل، فهو يرصد مفارقة عبثية تخيم على حياتنا، وهى كما يقول فى مقدمته إننا نتنافس فى بناء المساجد والكنائس، ونتحدث طويلاً فى الأخلاق، وعن الأخلاق، ومع ذلك تنتشر الخطيئة بصورة مفزعة، تخترق حواجز البيوت التى كانت آمنة، تستغل التكنولوجيا الحديثة لتصنع من الخيانة قانوناً جديداً، يحكم العلاقات الزوجية ويقضى عليها بالفشل سواء بالطلاق أو بالقتل أو بتنشئة جيل جديد ممزق، يسمع كثيراً عن الأخلاق ولا يراها. فنوافذ الاشتهاء مشرعة يمكنك الدخول إليها عبر الإنترنت أو المحمول، عبر صورة كاذبة أو كلمات معسولة لا تبحث سوى عن أجساد عطشى أو آذان محرومة لتدنسها، وهى نوافذ تتسع كل يوم، تبحث عن وافد جديد يعتقد أنه فى طريقه إلى السعادة، ليكتشف فى النهاية أنه عضو جديد فى نادى الجحيم، فهل نفكر جميعاً فى كيف يمكننا إغلاق هذه النوافذ؟

دوريات

مجلة الدراسات الفلسطينية

بيروت: فصلية تصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية. عدد ٧٦



انتظر الفلسطينيون أن تحمل سنة ٢٠٠٨ معها، قبيل انصرامها، تجديد ثلاث شرعيات: شرعية رئاسة السلطة الفلسطينية بالانتخاب، وشرعية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) بعقد المجلس الوطني الفلسطيني، وشرعية قيادة حركة «فتح» بعقد المؤتمر العام السادس. لكن سنة ٢٠٠٨ انتهت والأوضاع الفلسطينية في أسوأ حال لها، فعلى المستوى السياسي وصلت المفاوضات السياسية بين م. ت. ف وإسرائيل إلى الطريق المسدود، وعلى المستوى الوطني انقسمت السلطة الفلسطينية إلى قطعة أخرى في الضفة الغربية، ونشب الاحتراب بينهما، الأمر الذي يشير إلى تداعي المشروع الوطني الفلسطيني برمته.

إن هذه الحال المضطربة والشديدة البلبلة جعلت التفكير في خيارات سياسية بديلة أمراً حيوياً، وصارت فكرة التخلي عن «حل الدولتين» نحو فكرة «الدولة الواحدة» أحد عناصر التفكير السياسي الفلسطيني في هذه المرحلة، وباتت تشكل جزءاً لا بأس به من السجالات الفلسطينية التي تدور في هذه الأيام على هاتين الفكرتين. وقد أثارت مقالة أحمد سامح الخالدي الموسومة بعنوان: «المأزق الفلسطيني الراهن: كيف وصلنا إلى هنا وما العمل؟» والمنشورة في مجلة «الدراسات الفلسطينية»، العدد المزدوج ٧٤ / ٧٥ (ربيع وصيف ٢٠٠٨)، بعض الردود والمناقشات، وها نحن ننشر هنا، في هذا المحور، ثلاثة ردود تناقش ما أثارته مقالة أحمد سامح الخالدي، وثلاث مقالات تتعرض بالشرح والتفسير للأزمة الفلسطينية الراهنة، بما في ذلك أزمة حركة «فتح» عشية مؤتمرها السادس.

يعترض علي الجرباوي على الإسهاب في تشخيص الحالة الفلسطينية الراهنة، لأن ثمة إجماعاً على تفصيلاتها المفجعة، ويرى أن الأحرى هو الإجابة عن الأسباب التي أدت إلى هذه الحال. وفي معرض إجابته يرصد هذه الأسباب التي تتلخص، بحسب رأيه، في هيمنة الشخصنة على الحياة السياسية الفلسطينية، وفي تكلسها، وفي تلف منظومة القيم المجتمعية، ويقدم، في هذا السياق، تفنيداً لبعض الاستنتاجات الواردة في مقالة أحمد سامح الخالدي. ويعرض عمر البرغوثي رؤيته للحل الممكن، فيرى أن الدولة الديمقراطية العلمانية هي الحل التاريخي الذي يمكنه أن يجعل حق تقرير المصير للفلسطينيين وعدم صهينة فلسطين، قابلين للتطبيق. وهو أساس أخلاقي للتعايش بين العرب واليهود في فلسطين التاريخية، ثم يفصل هذا الحل بأبعاده الأخلاقية والقانونية والسياسية، ويطالب بإعادة النظر في مسألة «المقاومة المسلحة». أما جورج جقمان فيعتقد أن مسار أوسلو قد استنفد، وأن «خريطة الطريق» ولدت ميتة، وأن مسار «أنابوليس» كان القصد منه إبقاء الحركة السياسية مستمرة من غير أن تصل إلى أي حل. ولهذا فهو يرى أن «خيار الدولة الواحدة» بات رهاناً على المستقبل حتى لو لم يعرف أحد ما سيؤول إليه هذا الرهان المفتوح على احتمالات قد لا تكون في مصلحة الفلسطينيين. وعلى الرغم من ذلك، فالكاتب يعتقد أنه الخيار الأفضل من منظور أخلاقي، وإن لم يكن هو الخيار الملائم من منظور سياسي. أما مصطفى الحسيني فيناقش فكرة «حل الدولتين» من منظور مختلف لا علاقة له مباشرة بمقالة أحمد سامح الخالدي، بينما يعتقد غسان الخطيب أن الدور التاريخي لمنظمة التحرير الفلسطينية شارف على النهاية، في حين يتناول سميح شبيب المعضلات التي تواجه حركة «فتح» وهي على أبواب مؤتمرها السادس.

*

شئون عربية معاصرة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع دار نشر روتلدج، يناير ٢٠٠٩



يتضمن العدد عشرة أبحاث ومقابلة، وهي على التوالي:

١ - احتلال العراق ورؤية الخروج من هذا المأزق لـ «خير الدين حسيب».

٢ - حوار مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله حول عدد من الموضوعات الحساسة والخلافية، كمسألة الحجاب والأصولية الإسلامية، وصولاً إلى العولمة والعدالة في العالم. أجرى الحوار هاشم قاسم.

٣ - التراث المعماري العراقي في القرن الماضي تحت رحمة عشوائية التطور لـ «علي الحيدري».

٤ - تتبع لمتغيرات القضية الكردية في العراق على مر الزمن لـ «كمال ماجد».

٥ - سياسات الإصلاح الاقتصادي ووقعها على الطبقات الفقيرة في المجتمع المصري (دراسة سوسيولوجية - اقتصادية) لـ «علي الدين عبدالبديع القصبي».

٦ - حقيقة طبيعة النظام والصراع داخل الأسرة الحاكمة في السعودية لـ «مي يماني».

٧ - إعادة رسم خارطة الأراضي الفلسطينية تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي لـ «ساري حنفي».

٨ - التحول الصامت، كيف يتم «تهويد» القدس يوماً بعد يوم لـ «فاليري زنلف».

٩ - واقع القوات العراقية الجديدة للعقيد السابق رعد الحمداني.

١٠ - خارطة الحركات والتيارات السنية في لبنان وتفاعلها في الساحة السياسية اللبنانية والإقليمية لـ «عبدالغني عماد».

١١ - اليهودي الأخير في بيروت لـ «سعيد أبو ريش».

وفي العدد مراجعة لكتاب بول كنغستون Making Islam democratic: Social movements and the Post-Islam turn: أعد المراجعة آصف بيات.

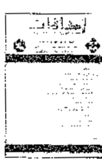
إضافة إلى ببليوجرافيا ويوميات من آب - تشرين الأول ٢٠٠٨. وملف إحصائي يتناول الطاقة في الوطن العربي لـ «كابي الخوري».

*

إضافات

المجلة العربية لعلم الاجتماع

مجلة أكاديمية فصلية محكمة. شتاء ٢٠٠٩



صدر العدد الخامس - شتاء ٢٠٠٩ من مجلة «إضافات» متضمناً افتتاحية: المدينة العربية وعلم الاجتماع الحضري للدكتور ساري حنفي.

وفي العدد تسعة بحوث:

- السوق والتمدن في العالم العربي لـ «فرانك ميرميه».

- المجالات العامة والفضاء الحضري: مقاربة نقدية مقارنة لـ «فواز طرابلسي».

- شوارع بيروت: الذات والمواجهة مع «الآخر» لـ «ستيفن سايدمان».

- البداوة والبدائية: إعادة تفكر في النموذج الخلدوني لـ «سعد الصويان».

- السيميائية: نظرة إلى المستقبل والماضي لـ «دانيال تشاندلر».

- سيميولوجيا مدينة تونس لـ «محسن بو عزيزي».

- المصر الحضري وارتباطه بالهجرة الداخلية: دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض لـ «عزيزة عبدالله النعيم».

- العناية الاجتماعية: احتياجاتها وتوفير خدماتها في لبنان لـ «مايكو سوجيتا».

- المجتمع المدني في المغرب: المفهوم والسياق لـ «عصام العدوني».

كما تضمن العدد مراجعات الكتب التالية:

- البغاء في شوارع الدار البيضاء (سارة كارمونا بنيتو)، أعد المراجعة عبدالله هرهار.

- إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم (بيار بورديو وجان - كلود باسرون)، أعدها علي أسعد وطفة.

- وقع العولمة في مجتمعات الخليج العربي: دبي والرياض أنموذجان (بدرية البشر)، أعدها باقر النجار.

- العلمانية في مواجهة الإسلام (أوليفر روي)، أعدتها ربى صالح.

- ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء (فاضل الربيعي)، أعدها يوسف مكي.

- المهن والمجتمع في الشرق الأوسط أفول النخب وأزمة الطبقات المتوسطة (اليزابيث لونجنس)، أعدها ساري حنفي.

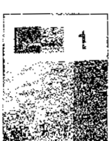
كما تضمن العدد، في باب آراء وردود، نقداً لمقالة راتبة سعد «الدوافع والدلالات المتعلقة بموضة الشباب في الحياة اليومية عند اللبنانيين» بقلم رنا مكرزل وصونيا فارس.

*

سيمرا

المملكة العربية السعودية: نادي الجوف الأدبي الثقافي

أكتوبر ٢٠٠٨



هذا هو العدد الأول من هذه المجلة

الأدبية الجديدة، التي تصدر عن نادي الجوف الأدبي الثقافي، والتي يبدو أن ولادتها كانت صعبة كما هو متوقع في مثل تلك الأعمال. يقول عبد الرحمن الدرعان في افتتاحياتها: «ليس سراً أن نبدأ افتتاحية هذا العدد بأننا لم نتردد بإلغاء النسخة التجريبية للعدد الذي كان يفترض أن يصدر قبل نحو عام تقريباً باعتباره العدد التجريبي لأسباب ليس هنا مجال الاسترسال في طرحها من بينها تلك الصعوبات التي لما يزال النادي الأدبي يحاول أن ينازلها منذ تشكيل مجلس الإدارة في دورته الثانية».

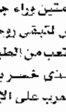
ويعد الدرعان في افتتاحيته بأننا «سوف نكون على حد سواء مع كل النقد البناء الذي ننتظره بشغف. ذلك النقد الذي يبقينا على حد اليقظة سعياً للوصول إلى الأهداف التي تصبو إليها. ولا نكتمكم سراً بأن الحلم الذي يراودنا منذ ولادة النادي هو العمل على إحياء سوق دومة الجندل كأحد الأسواق العربية الشهيرة الذي لن يكون ممكناً للنادي بمفرده أن يتبنى إعادة إحيائه كمشروع متكامل وهو دعوة لكل المؤسسات الرسمية والأهلية أن تعضدنا وتؤازر طموحنا في سبيل إعادة إحيائه».

ويضيف «إنه في الوقت الذي كنا نضع النقطة الأخيرة على مواد هذا العدد بلغنا وفاة الشاعر العربي الكبير محمود درويش التي أحدثت قشعريرة في الجسد العربي بكامله.. لا نملك ونحن نقف بكامل ذهولنا إلا أن نضع سبع سنابل على ضريحه وأن نمشي صامتين وراء جنازته التي تعود إلى أمها الأرض لتبقى روحه المحلقة كحمامة بيضاء لا تتعب من الطيران في سماء الشعر العربي الذي خسر بفقدانه أحد أهم الشعراء العرب على الإطلاق».

*

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير ٢٠٠٩



يتضمن العدد افتتاحية بعنوان «حول العدوان الإسرائيلي على غزة: مكاسب تكتيكية وفشل استراتيجي» لرئيس التحرير الدكتور خير الدين حسيب، وستة بحوث هي:

١ ـ الأزمة المالية العالمية: أسبابها وانعكاساتها لـ «إلياس سابا».

٢ ـ الفيدرالية في العراق بين الدستور والتطبيق العملي لـ «قحطان أحمد سليمان الحمداني».

٣ ـ صراع على الشرعية: الإخوان المسلمون ومبارك ١٩٨٢ ـ ٢٠٠٧ (خلاصة تنفيذية) لـ «هشام العوضي».

٤ ـ ناجي العلي: الوطن والفن في الممارسة السياسية لـ «قادري أحمد حيدر».

٥ ـ التطهير المكاني: محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالي الإسرائيلي لـ «ساري حنفي».

٦ ـ الوطن العربي: انتشار أمراض السرطان والمشكلات البيئية القائمة لـ «كاظم المقدادي».

بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد قسطنطين زريق كتب كل من:

جورج قرم: هل تخطى الزمن فكر قسطنطين زريق؟

زياد حافظ: قسطنطين زريق والفكر القومي: حداثة فكره.

عزيز العظمة: استجلاء العلاقة بين الفكر القومي والسياسة.

جميل مطر: قسطنطين زريق يضع شروط القضاء على التخلف.

ميشال جحا: قسطنطين زريق (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠): سيرته وكتاباته.

كما تضمن العدد تقريراً عن نشاط مركز دراسات الوحدة العربية خلال العام ٢٠٠٨ والمتوقع خلال العام ٢٠٠٩.

أما في باب آراء ومناقشات، فقد كتب إبراهيم العيسوي عن: «مأساة غزة: العار ورد الاعتبار»، وكتب وحيد عبدالمجيد عن «مأزق القاهرة والاعتدال العربي».

وفي هذا العدد أيضاً ثلاث ترجمات مهمة، وهي:

ـ الحرب على غزة: انتصارات تكتيكية وهزيمة استراتيجية لـ «أنتوني كوردسمان».

ـ محرومون ومهددون بالخطر: الأزمة الإنسانية في قطاع غزة لـ «منظمة «مراقبة حقوق الإنسان»».

ـ فضائح إعادة إعمار العراق لـ «جيمس غلانز وت. كريستيان ميلر».

وفي باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية: «الاتحاد النقدي الخليجي والعملة الخليجية المشتركة» (عبدالمنعم السيد علي)، أعد المراجعة منير الحمش. و«تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي» (ناجي عويجان)، أعد المراجعة ماجد صالح السامرائي. «مذكراتي: ماض لحراسة المستقبل» (سمير أمين)، أعد المراجعة عبدالمالك أشهبون، إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابي الخوري.

وموجز يوميات الوحدة العربية، وببليوجرافيا الوحدة العربية.

*

افتتاحيات.. تحـولات المـدن

أمكنة

تعنى بثقافة المكان

الكتاب التاسع

نوفمبر ٢٠٠٨



من قبل كنا نرصد التحول عبر تلك الانتقالات الحساسة من جيل لجيل، من مرحلة عمرية لأخرى، اختلاف موضات الشعر والملابس، ارتفاع الأسعار. كان الانتقال يستغرق وقتاً، كمرحلة وسيطة يتداخل فيها القديم والجديد. أما الآن فالفجوات ضاقت بين أزمنة التحول هذه، تحت ضغط كثافة الإنتاج والتقدم التكنولوجي الرهيب، وغياب أي نظام فكري أو خيالي متماسك يقاوم نظام السوق.

ربما كان الحنين إلى الماضي هو أحد منتوجات هذا النوع من التحول الهادئ، أما الآن: مع تسارع التحولات التي تحدث على كافة الأصعدة، والمتذبذبة كشاشة البورصة: أصبح الحنين غير مؤثر، ولا يبعث في النفس هذا العزاء المشبع، لأنه فقد الطريق لهذا الزمن الجميل! وكذلك لا يبعث تلك الحسرة التي يبرق خلالها الماضي بكل شحناته، وكثافته وثقله العاطفي كصورة بالأبيض والأسود. أصبح هذا الماضي بعيداً لا يطاله حنين. لا يمكن التنبؤ بما سيكون عليه دور الحنين في الأجيال القادمة.

أمام هذا التسارع في التحولات، لن يسع عمر الفرد، مهما طال، إلا ليشهد على لحظة، سرعان ما تنقلب. لن تمنحه اليقين أو تثبت إيمانه، بل حولته إلى متفرج أعزل. بلا ذنب أصبحنا محرومين من نعمة التنقل بمرح عبر الأزمنة، الماضي، الحاضر، المستقبل. أعتقد أن أجيال آبائنا وأجدادنا، عاشوا وماتوا وهم غير مهانين في أعماقهم، أو مصدومين في حياتهم وما حصلوا منها. كان المجتمع لازال محتفظاً بمفاجآته تحت جلده. أما نحن فنعيش الصدمة منذ البداية، لحظة بلحظة: كبث مباشر لا ينقطع، ليست صدمة التحولات السريعة فقط. ولكن هذا الجو العائق الذي صاحبها، من فساد وتعصب واستغلال وتسلط، وتحلل للنسيج الاجتماعي، بدون أي مكاسب تعوض هذه التضحيات الإجبارية. جزء من هذا الخطأ يقع علينا، لأننا لم نسهر على «فرديتنا»، ولم نحافظ عليها، وأهدرنا مسئوليتنا أمام أنفسنا، في سبيل العيش وسط هذه الموجات من العزاء الجماعي.

لم يعد هناك مستقبل، كالذي حلمنا به من قبل، كلحظة انتقال نوعي وجني لثمار الرحلة. أصبح المستقبل هو هذا الحاضر الثقيل الذي نعيشه الآن، بعد أن ضاقت المسافة بيننا وبينه. لقد ساد الشعور بأن ليس هناك نقلة نوعية ستخطوها الإنسانية، وأن العالم سيسير على ما هو عليه حتى النهاية. لقد تجرأنا على المستقبل أكثر مما يجب، وكذلك حملناه أكثر مما يحتمل. أصبح المستقبل سلعة عادية لا جدد فيها ولا جاذبية. المستقبل الذي كان من أهم خصائصه أن يظل مؤجلاً ومختزناً لحلم ما، لطموح ما، لغاية ما.

ربما المدينة، وهي المكان المثالي لمعاينة ورصد التحولات، لم تعد ذلك الفضاء العاقل أو حتى الشاعري، لقد كان أملنا أن تقوم المدينة بتنظيم تلك العزلات المتجاورة وتخلق منها وعياً جديداً. ولكن «مدينتنا» ساهمت بشكل حاسم في تأكيد هذه العزلات، بسوء التنظيم، بصلف الأسوار العالية لمدنها المغلقة، بحزن عشوائياتها، بتراكم الثروة والسلطة في ناحية، وانعدامها في الناحية الأخرى، وأخيراً بتأجج الصراع العشوائي بين كل الأطراف من أجل السيطرة على هذا الفضاء المديني. لقد تكاثرت العوائق، التي تعوق السير والاتصال، داخل المدن، بحيث أصبحنا نعيش ونتنقل بين أكثر من مدينة، وهذه الحالة هي في النهاية نقض لكل لحظات التحرر، ولتلك السماء الموحدة، التي عاشتها أو وعدتنا بها «مدينتنا» القديمة.

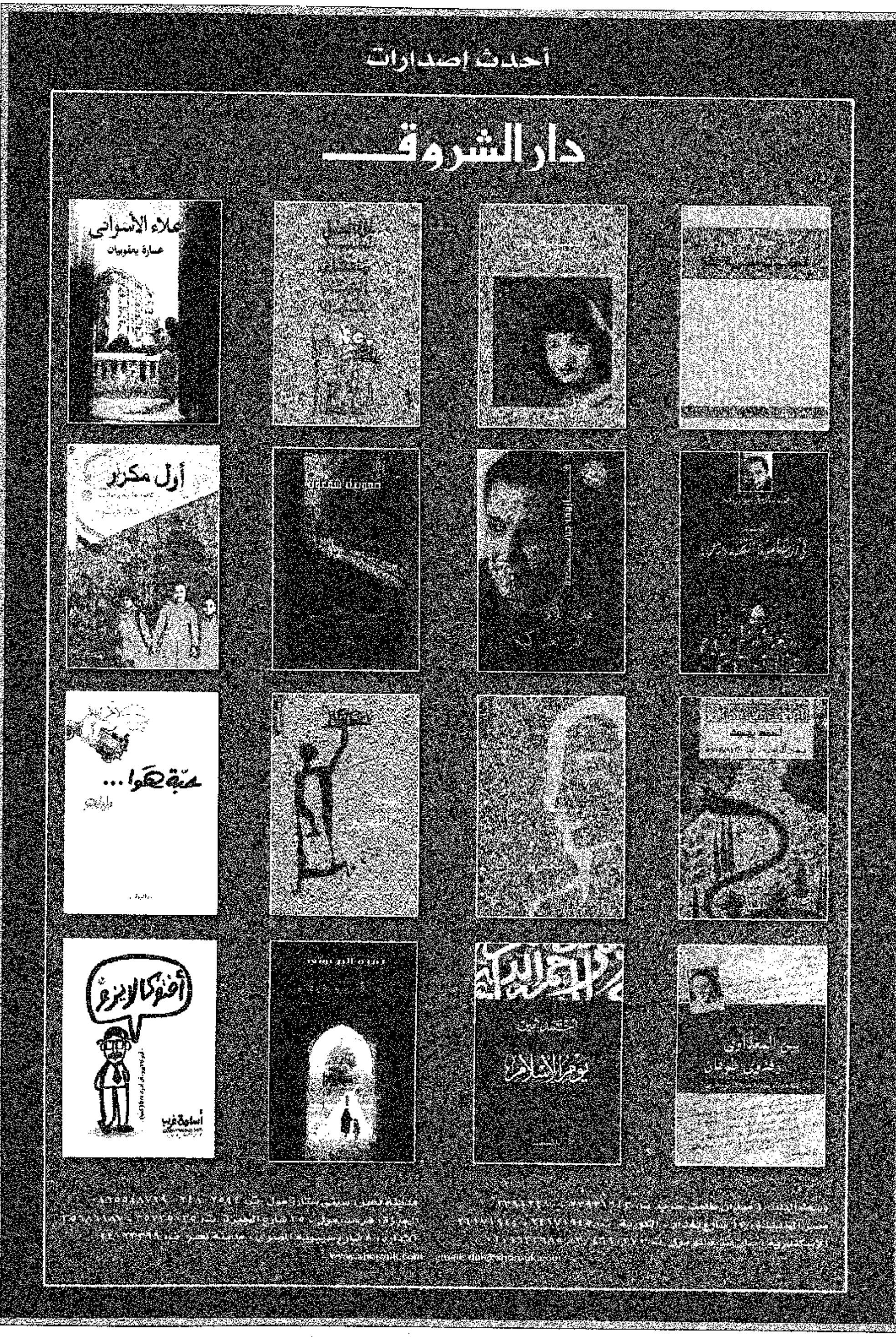
إرث المدينة والمدنية يعاد تقسيمهما الآن على أسس جديدة.

ربما نعيش الآن لحظة فاصلة في عمر «مدينتنا»، وربما نكون على أبواب مدينة جديدة، ليس لها علاقة بالمدينة القديمة، سوى تناثر الشكوى والحزن والغضب في أرجائها.

في فيلم «بين القصرين» المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ المسماة بنفس الاسم، يتلقى الأخوان نبأ وفاة سعد زغلول ليلاً، عبر صوت بائع الجرائد، بينما هما يتحدثان على سطح البيت، عندها يطلب الأخ الأكبر، والذي يقوم بدوره عبدالمنعم إبراهيم، من أخيه الأصغر، والذي يقوم بدوره نور الشريف، المصدوم والذاهل من وقع الصدمة: يطلب منه بمواساة أن يذهب لينام، لأن أمامه في الغد يوم طويل. ما يفرق هذا الغد عن باقي الأيام، أن شبح الموت يحلق عليه. أشعر أننا مازلنا نعيش في نهار طويل كهذا حتى الآن، شبيه لذلك النهار. هناك موت منتظر أو موت قد حدث بالفعل. أو هكذا نشعر في لحظة التحول الحادة.

أجيال مر عمرها وهي مستيقظة.

نحاول في هذا العدد من المجلة أن نرصد تحولات المدن، ونثبت قيمة التذكر، حتى لا ننسى، ونوثق ما يحدث، أو ما حدث بالفعل في نهارنا الطويل هذا.



أحدث إصدارات
دار الشروق
علاء الأسواني
عمارة يعقوبيان
حبة هوا...
يوم الإسلام
أسامة غريب


Zone Advertising
life style
rugs & carpets
خصم خاص بمناسبة أوكازيون النساجون الشرقيون
بجميع معارض النساجون الشرقيون